



د. سامية عامر

الصليبيون في شمال أفريقيا

حملة لويس التاسع على تونس
(١٢٧٠ م) - (٦٦٨-٦٦٩ هـ)



رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك

الصابليون في شمال أفريقيا

حملة لويس التاسع على تونس

١٢٧٠ م / ٦٦٨ - ٦٦٩ هـ

تأليف

دكتورة / سسمية عامر

كلية التربية ببور سعيد - جامعة قناة السويس

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م



مركز للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

CENTER FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

للمستشارين

د . المصطفى إبراهيم الهادي

د . شوقي عبد القوي حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفي

تصميم الغلاف : وائل محمود

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ٥ شارع ترعة اللبيلية - الهرم - ج.م.ع - تلفون - فاكس ٢٨٧١٦٩٣

PUBLISHER: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryouta St., Al-Haram - A.R.E. Tel : 387169

إهداء

إلى روح أستاذي الفاضل
دكتور جوزيف نسيم يوسف

المقدمة

لقد شهد العالم منذ أقدم عصوره وحتى اليوم العديد من الأحداث الهامة والانتفاضات الخطيرة التي أمتز لها كيانه والتي تركت بصماتها على سير مجرى الأحداث. ولعل أهمها هي الحركة الصليبية التي اقتطعت من تاريخ البشرية ثلاثة قرون من الزمان ، هي القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر الميلادية (القرون السادس والسابع والثامن الهجرية) والتي تمثل الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط والأمر الهام أن هذه الحركة تركت آثارها على المسرح الدولي ليس حتى نهاية العصر الوسيط فحسب بل امتدت بشكل أو بآخر لتؤثر على سير الأحداث في التاريخ الحديث والمعاصر ،

وقد اشتملت تلك الحركة على العديد من الحملات العسكرية الكبيرة التي تعرض لها العالم العربي الإسلامي من مشرقه إلى مغربه وفيما بين هذه الحملات وجدت فترات من الهدوء النسبي في بعض الأحيان وفترات ساخنة تغلغلها معارك عديدة في كثير من الأحيان.

ويلاحظ أن الحملات الكبيرة ظهرت فيها مؤلفات قيمة عديدة بمختلف اللغات الحية وكانت أغلبها حظاً هي حملة لويس التاسع ملك فرنسا على تونس عام ١٢٧٠م / ٦٦٨-٦٦٩هـ وكانت هذه الحملة هي آخر حملات القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) وهي التاسعة في عداد تلك الحملات وكان قد ظهر كتابان لأستاذي الدكتور جوزيف نسيم يوسف عن حملتي هذا الملك على كل من مصر والشام في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (أواسط القرن السابع الهجري)، فرأيت لفتياري حملته الثالثة على تونس في الشمال الأفريقي في لواخر ذلك القرن لتكون موضوعاً لدراستي لدرجة الدكتوراه .

وهذه الحملة لم يظهر فيها مؤلف علمي قائم بذاته يتناول كافة أحداثها . ووقائعها كما عبرت عنها مختلف الوثائق والمصادر القديمة من عربية ولايتينية وفرنسية قديمة وإيطالية قديمة وغيرها .

حقيقة ظهر منذ قرابة مائة عام مضت كتاب بالألمانية بعنوان :

Stornfeld , Ludwigs des Heiligen Irreuzug nach Tunis (1270) und die politik karls I Vinsizilien , Berlin 1896 .

إلا أن هذا الكتاب إلى جانب قنمه فقد عبر عن الحملة من وجهة نظر واحدة اعتمد فيها أساسا على الأصول الأجنبية، فجاءت دراسته معبرة عن شطر واحد من البحث دون الشطر الآخر، أي غير معبرة عن الحقيقة التاريخية كاملة وما قيل عن مؤلف شترنفلد يقال أيضا عن مؤلف سيلفستر دي سامسي Silvester de Sacy و ج. جراند شامب G. Grand Champ وبذلك أصبحت مثل تلك المؤلفات غير ذات موضوع بعد فقدانها لقيمتها، فجاءت دراستنا لتسد هذا النقص ولتعبّر عن مختلف وجهات النظر . وهذا هو الهدف من أي بحث في التاريخ . هذا فضلا عن العديد من القضايا الهامة المتعلقة بتفاصيل الحملة التي أغفلتها تلك المراجع وقد قمنا بدراستها وتحليلها وتوصلنا إلى آراء حاسمة بشأنها .

وليسما عدا ذلك ، فكل ما هناك اشارات مقتضبة في المؤلفات الخاصة بتاريخ الحركة الصليبية . وفي مقدمتها كتابا رينيه جروسيه وسيتلن رانسيما و مجموعة بنسلفانيا عن تاريخ تلك الحركة والتي صدر منها حتى الآن خمسة أجزاء . وهناك أيضا مؤلفات عن سيرة لويس التاسع وضعت أساسا لتعجيده وذكر مآثره وفضائله ولاتحتل حملة تونس مكانا رئيسيا فيها نذكر منها على سبيل المثال مؤلفات

H. Bor deaux, E. Berger ,

A. Bailly , de Tillemont , F. Perry , W knox, M. Guizot ,

A . Bary, J. Boufenger, H. Wallon , M. Sepet .

كذلك توجد بعض الدراسات في جوانب معينة من الحملة أو أحد عناصرها وهي تنور بصفة خاصة حول معاهدة الصلح بين شارل كورنت أنجو والمستنصر وذلك في عدد من المجلات والدوريات التاريخية المعروفة، وقد ظهرت هذه الدراسات هي الأخرى منذ زمن بعيد وفي صفحات قليلة وتعتبر في معظمها ، أيضا عن وجهة نظر واحدة دون وجهة النظر الأخرى فجاءت مبتورة لا تفي بالفرض المطلوب .

كل هذا تلافينا في دراستنا عن الحملة معتمدين على وثائقها وأصولها من مربية وغير

عربية خطية ومطبوعة وكانت النتيجة دراسة موضوعية متكاملة قائمة على أساس منهجي سليم فرضته طبيعة الموضوع وقد تناولنا عشرات القضايا والنقاط الغامضة التي واجهتنا بالدراسة النقدية القائمة على المقارنات والموازنات التاريخية وتوصلنا منها إلى استنتاجات وآراء واضحة محددة تناولتها بالتفصيل في قمة البحث واستعرضناها بإيجاز وتركيز في خاتمته .

على أية حال إذا كانت جغرافية أي موقع هي مفتاح تاريخه فهذا يصدق وينطبق تماما على تونس فجغرافيتها هي في الحقيقة مفتاح تاريخها الذي يكشف عن الأسباب الحقيقية التي وجهت حملة لويس التاسع الصليبية إليها وهذا يتطلب منا وقفة أمام مسرحها الجغرافي حيث وقعت أحداث الحملة، أن نظرة فاحصة منقطة إلى خريطة تونس تبين أنها تقع في الجزء الشمالي الغربي من قارة أفريقيا^(١) يحدها شمالا وشرقا سواحل البحر الأبيض المتوسط وجنوبا ولاية طرابلس والصحراء الكبرى، وغربا الجزائر ، وهي تكون مع الجزائر والمغرب وحدة جغرافية واحدة^(٢) ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسي، باستثناء برقة وطرابلس اللتين تعرفان اليوم باسم ليبيا واللتين كانتا امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية. وقد أثرت هذه الطبيعة الجغرافية على بلاد المغرب لكي يحافظ على معالم حضارته وأصوله عبر التاريخ^(٣)، فقد تأثر المغرب باتجاه سلسلة جبال أطلس في جهة موازية للساحل^(٤)، لذا فقد صمد على أن يقف حجرة عثر في طريق المؤثرات الأوربية^(٥)، ولعبت تلك الجبال دورا هاما لحماية المغرب بوجه عام وتونس بصفة خاصة من تلك الاعتداءات الأوربية المتكررة ضدها، فقد ساعدت الطبيعة المغرب الإسلامي على المقاومة والقدرة على الاحتمال واعتلاء الجبال

١- لفظ أفريقيا مشتق من كلمة Aphi التي أطلقها الفينيقيون على سكان قرطاجنة ثم عساه اليونانيون وأطلقوه على سكان المغرب من جنود مصر الفريجية حتى المحيط الأطلسي ويقال أنها سميت أفريقيا لأنها لم تكن بين مصر والمغرب والمزيد أنظر عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ص ١٢٦-١٢٧ ، أحمد بن خالد، تاريخ المغرب الأتامي، ج ١، ص ٢٢، جوستاف لوبون : حضارة العرب، ص ٢٦١ ، حسن عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص ٧-٦ .

٢- ابن خلدون : المغر ، ج ٦، ص ٩٨ .

٣- عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص ١٢٨، لوبون : حضارة العرب، ص ٢١٦ .

٤- الأصطخري : صياك الممالك، ص ٢٩، البشاري: أحسن الاقاليم، ص ٢٢٦، ٢١٥ .

٥- جمال الدين الفكتوري : جغرافية العالم، ص ١٤٢ .

وقطعوا خط الرجعة على الصليبيين بعد وفاة ملكهم لويس التاسع. ثم أن جهود الملك شارل الانجوى ذهبت هباء يوم أحكم التونسيون خططهم ووجدوا هدفهم للاستفادة من هذه الجبال.

تبلغ مساحة تونس ١٦٥ كيلو مترا مربعا، وتطل على الطرف الشرقى لسلسلة جبال الأطلس ويقسمها الجغرافيون العرب إلى ثلاثة أقسام رئيسية : القسم الشمالى وهو عبارة عن مزارع خصبة يمر على جانب كبير منها نهر مجردة الذى ينبع من الجزائر ويعتمد أهل تونس عليه فى الشرب^(١).

أما القسم الثانى فهو الساحل الذى يمتد من جهة الشرق بحذاء البحر، ويتألف من أراض خصبة غزيرة العمران. أما القسم الثالث فهو ناحية الجنوب ويشتمل أيضا على سهول عظيمة ومراع شاسعة وواحات وتخلل وتونس مدينة جميلة بالغ الرحالة والجغرافيون فى ذكر محاسنها . يقول عنها الاندلسي : «أنها مدينة حسنة تحيط بها من جميع الجهات المزارع والأراضي المعصورة الخيرات»^(٢). وهى من أصلح بلاد أفريقيا ماء وهواء وأكثرها خيرا^(٣)، كما يصفها ابن حوقل قائلا «أنها مدينة ليست بالصغيرة ولا الكبيرة»^(٤). وقد منحها هذا الموقع امتياز شهرة عظيمة فكانت ملتقى الصناعات والفنانين، وكان الأندلسيون يفتخرون بوجودهم فيها^(٥). ويرجع هذا إلى قرب المسافة بين تونس وأعظم بلاد أفريقيا آنذاك وهى قرطاجنة، وقد أثر امتداد الساحل الأفريقى فى طبيعة السكان وكانوا يتميزون بنشاطهم البحرى العظيم وهو جزء لا يتجزأ من حياتهم الاقتصادية، وهو الأمر الذى ظهر بوضوح حين استقل المغرب عن تبعيته للأمويين وبلغ نشاطهم ذروته فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (القرنان التاسع والعاشر الميلاديين) وتمكنوا من احتلال صقلية وجنوب إيطاليا ومالطة وسردينيا^(٦).

١- البشارى : أحسن التقاسيم، ص ٢٣٩، ابن حوقل: صورة الأرض ، ص ٧٢، انظر أيضا: يسرى الجوهري: أفريقيا ، ص ٢٠٢ .

٢- الاندلسي: حفاة المغرب والأندلس، ص ١١١ .

٣- البسحقى: نخبة الدرر ومجاشد البر والبحر، ص ٢٣٧ .

٤- ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٢ .

٥- القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ١٧٢ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٢ .

٦- عبد العزيز صالم ونشرون : البحرية المصرية، ص ٤٦٧ .

وتوسى في العصر القديم لم تكن سوى قرية صغيرة مهملة ظهرت قيمتها ومزايا موقعها الجغرافي بعد الفتح الإسلامي لها، حين قرر الحسان بن النعمان تطعيم قرطاجنة مكس الحضر على الوجود الإسلامي. وعمل على عمارة تونس «دلا منها لتكون المقر الرئيسي للحكم الإسلامي هناك. وهي تقع في جون»^(١) خارج عن البحر على بحيرة محتفزة عرصها أكثر من طولها، لأن طولها ستة أميال وعرضها ثمانية أميال ويقال أن هذه البحيرة كانت موجودة منذ ألفي عام قبل ذلك التاريخ وقد غلب عليها ماء البحر إلى أن أعيد حفرها في حين يذكر أبي أبي دينار «أن هذه البحيرة لم تكن موجودة من قبل وإنما حفر في المر حفير انتهى به إلى مدينة تونس ومن ثم هذه البحيرة إلى قرطاجنة ثلاثة أميال، ويؤكد أن حفرها ثم في العصر الإسلامي لأن قرطاجنة كانت تنفح حائلا بين تونس والبحر، فلما خربت أصبح من الضروري حفر هذه البحيرة لجذب مياه البحر إلى تونس»^(٢) حيث كانت المسافة بين تونس والبحر ستة أميال^(٣)، وقيل أربعة أميال^(٤).

وتتمثل البحيرة بالبحر عن طريق فم الوادي^(٥) وتبلغ مساحة هذه البحيرة أربعين ميلا وقد أجرى ماء البحر في هذه البحيرة حتى جاوز أعلاها بربع فامتدتها وربما أقل^(٦)، وبعد آخر هذه البحيرة جزء يتسع فيه الماء ويعمق ويطلق عليه التونسيون اسم وقور، وإلى تصل السفن المحملة بالبضائع وترسو هناك. ونظرا لكبر حجم السفن أحيانا كان التونسيون يعدون زوارق صغيرة تفرغ المراكب الكبيرة فيها حمولتها، وهكذا حتى تنتهي عملية النقل حيث أن سعة البحيرة لا تحتل إلا الزوارق الصغيرة^(٧). وقد لعبت تلك البحيرة دورا كبيرا في اقتصاد

١- البحر : هو الجزء الضيق من البحر المالح في الأرض .

٢- العميري : الروض المطار في خير الأقطار، ص ١٤٣

٣- ابن أبي دينار : للتونس في أخبار إفريقيا وتونس، ص ٨

٤- العميري : الروض المطار، ص ١٤٢ .

٥- فم الوادي : يسوق إلى الآن في تونس باسم حلق الوادي. انظر ابن أبي دينار المؤرخ، ص ٨ .

الانديسي : حفة المغرب، ص ١١٧، المكنى : المغرب، ص ٣٧-٢٨ .

٦- القنطرة هي طول الفسيفساء لنتنر جبران مسعود : التراث، ج ١، ص ١١٤٧ .

٧- الانديسي : حفة المغرب، ص ١١١، المكنى : حفة المغرب، ص ٣٢

تونس، واعتمد الأهالي عليها في الصيد وهم على علم بمواضعها الصطرة التي كانوا يتجشونها خشية المطار^(١).

وحيط ستوس سور دائري تبلغ مساحته أربعة وعشرين ألف ذراع^(٢)، وقبل واحد وعشرين ألف ذراع^(٣)، ويصف الأبرعسي هذا السور أنه من تراب وثيق^(٤)

وجميع مزارعها وحيراتها داخل هذا السور الذي يقف كسياج حولها^(٥) والسور ليس قديما مثل البحيرة بل يرجع أنه بني عام ٤٠٠ هـ (القرن العاشر الميلادي) حيث بنى ابن أبي دينار أنه بعد أن دمر أبو يزيد الخارجي مدينة تونس قام الشيخ محرز وأمر بنيائه ليحمي تونس من النهب والتمار^(٦) في حين يعود ابن أبي دينار ويذكر أن البوالة الحقيقية في بناء هذا السور تعود إلى بني الأغل^(٧) ويقال أن هذا السور كان جهة الشمال فقط وليس دائري^(٨)

وأضافة بني تونس والقيروان تبلغ مائة وسبعة وخمسين ميلا^(٩) وقيل أن المسافر برا كان

١- ابن أبي دينار . المؤنس ، ص ٨٠ . الحميري الزين المطار - ص ١٤٢ . ابن خرداذبة المسالك ص ٨٧

٢- الفراع : مقياس طوله ما بين ٥٠ - ٧٠ سنتيمتر . انظر جبران مسعود الفوائد ج ١ ص ٦٩٢ .

٣- ابن أبي دينار المؤنس ص ٨٠ . ابن الفقيه مختصر كتاب البلدان ص ٧٩ . الحميري . الروض المطار ص ١٤٢

٤- الأبرعسي، صفة للغرب ص ١١١ .

٥- القرويني آثار البلاد ص ١٧٢ . الأبرعسي ص ١١١ .

٦- هو أبو يزيد بن كندة المارجي . ولد بالمسورس . وهو بنائي الأصل أتى أبوه إلى المغرب وتعلم القرآن وحاصل أهل الشريعة الذين كانوا ينادون بتكفير أهل السنة واستباحة أموالهم وقد جاهر أبو يزيد عهد العليفة المهدي عام ٣٦٣ هـ / ٩٤٢م وتحدى العليفة وأعلن ضده راية العصيان وقويت شوكته على عهد العليفة لقدم، ومن أفريقيا وأحدث ممارا كثيرا بتونس والبريد أنظر ابن أبي دينار . المؤنس ص ٥٧ - ٦٢

٧- نسبة إلى إبراهيم بن الأغل الذي ولاه العليفة هارون الرشيد ولاية تونس فاستقل بها . انظر ابن أبي دينار : المؤنس ص ١٧

٨- البكري . المغرب في فكر تلويح لفرقيا والمغرب ص ٢٨-٢٩ .

٩- شغلقت المصادر العربية على تحديد المسافة بين تونس والقيروان فهناك آراء تقول أنها مائة ميل أو تزيد أو أقل وللمزيد انظر البكري للمغرب ص ٣٧-٣٩ . الحموي . معجم البلدان ج ١ ص ٦٠ . ابن أبي دينار . المؤنس ص ١٢

يقطعها في ثلاثة أيام^(١) وكانت تونس بعد عمرائها في صدر الإسلام قد بلغت من الشهرة والعظمة لدرجة تسميتها بلحدي القيروان. ويقال أنه كان يوجد بين تونس والقيروان موضع يقال له مخخفة يحدث به أمر عجيب من كل عام ففي وقت حصاد الزيتون كان يوجد بورج من الطيور يجعل كل طائر في مظهره زيتونين ويأتي إلى هذا الموضع ويلقي بهما مما يؤدي إلى زيادة غلة الزيتون وأيضا زيادة في الدخل حدها القزويني بلتها بلغت ما يزيد عن سبع ألف درهم في ذلك الحين^(٢).

وكان يوجد بتونس خندق حصين وعدد من الأبواب حدها الانريسي بثلاثة^(٣)، في حين قال البكري أنها خمسة أبواب^(٤)، ويذكر ابن أبي دينار أنها عشرة أبواب وتماقص عددها على عهد إلى سبعة^(٥) ومن أسماء هذه الأبواب هي باب الجريفة في الجنوب وباب البحر وهو يفتح على الشر ، وباب قرطاجة في الشرق، وباب السقائن في الشمال وباب أرطه في الغرب. وكان منهل تونس عليه سلسلة غليظة تحميها من تسرب سفن الأعداء ويحميها من الجنوب حصن المجرد ويعرف باسم قصر السلسلة^(٦).

لما من مسميات تونس فقد اختلفت المصادر حولها فمن المؤرخين من يقول أن اسمها في البداية كان ترشيش ولا قدم إليها المسلمون للمرة الأولى نزلا بصومعة داخلها يسمى ترشيش^(٧)، وكانوا يتقنون هناك بصوت راعب، فيقولون فيما بينهم هذه الصومعة تونس،

١- القزويني . إثار البلاد . ص ١٧٢ . الاصطخرى . حسانك الممالك ص ٢٦ . البشاري . أحسن التأسيس .

ص ٢٢٩

٢- القزويني . المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٣- الانريسي ، وصف المغرب ص ١١١ .

٤- البكري : المغرب ص ٣٧ - ٢٩

٥- ابن أبي دينار للتونس ص ١٠ . المبيرى : الروض المطار ، ص ١١٢ - ١١٥

٦- البكري . المصدر السابق ، نفس الصفحة .

٧- يذكر أ. د. عبد العزيز سالم أن أول عهد للمسلمين بتونس وتولميتها كان زمن الطليقة عثمان بن عفان وذلك بقيادة عبدالله بن أبي السرح ولكنها ليست مرحلة ، الفتح المتمثل بل هي مرحلة الفاتنة . انظر عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ١٤٦ ، ١٧٢

أى تحدث الأنسة وعدم الوحشة فزمرها هذا الاسم. ويقال أن العرب كانوا طوال الليل الموحش لا يسمعون سوى صوت الرهبان فقالوا على هذه البقعة أنها تونس في حين هناك رواية أخرى مفادها أن العرب وجدوا زيتونه مقلد في مكان اقلمة جامع الزيتونة فغفلوا عليها اسم تونس ولزمها الاسم هي والجامع ^(٢). ويورد ابن أبي ديار رواية أخرى فيقول: «إن العرب حين نزلوا صوبعة دق الرهبان وأضافهم وأنعمهم دشيش الحنطة فصار هذا عادة أهل البلد في رأس السنة يتكلمون هذا الدشيش وفي إحدى جلساتهم مع الرهبان رأوا مكانا يحيط به الشوك من كل جانب فسأل العرب الرهبان عن هذا الشوك فأنبرهم فنه كان يرى في بعض الليالي نورا ساطعا في هذه البقعة فعلم أنه سيكون لها شأن فعمل على حمايتها من الفانورات وحس الكلاب وصلى العرب الأوائل في نفس المكان ، وقالوا فيما بينهم إن صح هذا القول فهي بقعة مباركة لأنها شهدت صلاة العصور الأولى من المسلمين ، وظلت على هذا حتى دخلها الإسلام بصورة فعلية ^(٣) ويؤكد ابن حوقل رواية ابن أبي ديار أن اسمها كان ترشيش وطوره لعرب إلى اسم تونس ^(٤).

ويشير البكري «أن لتونس خمسة أسماء هي ترشيش ، وتونس أو تانسى ، والحضرة ، والحضراء ، والدرجة العليا ، أما ترشيش فهو اسمها في العصر القديم وتونس اسم حادث لها واشتقاقه من التئيس أو الأنسة ، والحضرة لأنها كانت حضرة السلاطين من بني حفص ، والحضراء لكثرة الزيتون خاصة عند اشتداد لونه الأخضر عليه ، أو سميت الخضراء لكثرة مزارعها وخيراتها الزراعية ، أما الدرجة العليا فلأنها للجامع الأعظم ، وقيل لارتفاعها عن بقى البلدان ولارتفاع صيتها وشهرتها بين دول بلاد المغرب ^(٥) بينما يشير الإدريسي إلى

١- يذكر أ. هيد العريز سالم أن سبب تسميته بالزيتونة نسبة إلى القديسة زيتونة التي عاشت زمن استيلاء الواندال على قرطاجنة وتونس من الروم وقت انهيار الإمبراطورية الرومانية - اسطر حد العريز سالم المغرب الكبير من ١٤ ، ٤١ ، ٢٤٩ - جوييف نسيم يوسف - روث الامبراطورية ، من ٥٠

٢- ابن أبي ديار ، تونس ، من ٩٠-٩١ ، ١٧ .

٣- ابن حوقل - صورة الأرض ، من ٧٢ ، للمعبري الرش المطار من ١٤٢ - جامع أيضا عند العريز سالم المغرب الكبير ، من ٢٤٢ .

٤- البكري ، المغرب ، من ٢٧-٢٩

أن كلمة تونس حُرقت من اسم طرشيض الذي كانت تعرف به قديماً^(١) ويضيف المصنف إلى أن اسم تونس اشتق من لفظ ترمبوس الذي كان يطلق عليها قبل دخول الإسلام^(٢) بينما تشير الروايات الأخرى إلى أن اسم تونس في الأصل قرطاجنة^(٣)، وهي تسمية مجازية لقرب السافة بين تونس وقرطاجنة ، ولما كانت تتمتع به قرطاجنة من شهرة وعظمة بين باقي مدن شمال أفريقيا.

ويطلق عليها أيضاً اسم تونس العريب لأنه قلما دخلها غريب عنها إلا وتعلق بها ولا يفارقها إلا وهو متحسّر عليها^(٤) ويضيف أبي أبي دينار قائلا هناك بعض المصاري عن أصل تسميتها فقالوا «تس» في كتبها وتسمى معها باللسان الاغريقي القديم «تندم»^(٥)

ويرجع الفضل إلى العرب في بناء دار صناعة السفن في تونس فعندما نظم الخليفة الوليد بن عبد الملك الحملات العسكرية التي قادها حسان بن النعمان لفتح تونس^(٦)، شعر المسلمون

١- الانريسي، وصف المغرب، ص١١١، المسعودي، مروج الذهب، ص٥٧

٢- الفضلي، شجرة الدر، ص٢٢ .

٣- ابن الفقيه . مختصر البلدان، ص٧٩ . ابن خردابة المسالك والممالك ، ص٨٧ راجع أيضا محمد رطلول عبد الحميد : تاريخ للمغرب العربي، ص١٤٤

٤- ابن أبي دينار . المؤنس، ص١٦ . والمريد انظر لوبري ، حضارة العرب . ص٢٦٦ ، أحمد بن خالد، تاريخ للمغرب الأقصى، ص٢٢، حسن عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس، ص٧-

٥- ابن حوقل صورة الأرض ، ص٧٧، ابن أبي دينار: المؤنس ، ص١٧ ، ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٢٢٤ .

٦- لقد احتفظت الروايات حول اسم القائد العربي الذي فتح تونس فهذه روايات تلص على أن وهو بن قيس الليثي هو الذي اقتسمها عام ٦٧٠م (٦٨٧م) في حين وردت اشارات أخرى وهي الأصح أن الذي اقتسمها هو حسان بن النعمان عام ٧٧٠م (٦٩٧م) ولما قام على رأس حملتي سطنتي ذلك بعد استشهاده ومجر بطريقيا ولم يكن قد فتح بعد أما حملة حسان الأولى، كانت عام ٧٦٤م (٦٩٤م) والثانية عام ٧٦٨م (٦٩٨م) وعندما وصل حسان إلى هناك بلغه بتشديد العصار حول قرطاجنة ويقال أنه أقام معسكره بتونس ثم بدأ بقرطاجنة ولحكم حصاره حتى افتتحها ثم أمر بتدميرها كي لا يمتدحها الروم مقبلا للانتقام من حسان مما دعا إلى ضرورة بناء وتعمير مدينة تونس التي كانت مهتلة بسبب وجود قرطاجنة بشهرتها العظيمة التي جلبت على معظم مدن أفريقيا والمريد عن الفتح الإسلامي لتونس انظر أبي أبي دينار . المؤنس، ص١٦، ١٥ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ٧٢ ، المسعودي : الروض المصنوع، ص١٤٤-١٤٥ ، ابن خلدون : السيرة ، ج ٤ ، ص٨٧ ، راجع أيضا عبد العزيز سالم : للمغرب الكبير ، ص٢٤-٢٥ .

بله لابد من إقامة تحصينات عسكرية قوية تحمي حدود دولتهم الجديدة تونس من غارات البيزنطيين. لذلك أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بإرسال ما يقرب من ألفي قبيلي مصري للعمل على تعزيز موقف حسان بتونس ووضع أسس دار الصناعة هناك^(١) وخرق حسان البحر من مرسى رانس إلى دار الصناعة . ويقول ابن أبي دينار أنه جر البحر ١٢ ميلا أي حفر له حتى وصله إلى دار الصناعة التي جعل منها مرسى وميناء هام للسفن^(٢)، وأصبح هذا الميناء القاعدة البحرية التي كانت تطلق منها الأساطيل الإسلامية في صراعها ضد البيزنطيين بعد احتلال قرطاجنة^(٣)، كما شيد بالقرب من دار صناعة السفن دار الإمارة وثكنات للرباطة وهذه المنشآت العسكرية ظلت في تطور مستمر على مر العصور. فقد أراد فيها موسى بن نصير، لدرجة أن بعض المؤرخين ينسب إليه بناءها . وفي الحقيقة فإن الثروة الأولى تعود إلى الحسان بن النعمان . أما ما فعله موسى وعبيد الله بن المحجوب ، والأغالبة، وغيرهم ممن حكموا تونس فما هي إلا إضافات وبضمان ذات قيمة أضيفت للجهود والثروة الأولى التي زرعها حسان بن النعمان، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن تونس لم يكن ينقصها من الناحية العسكرية شيء بل كان يمكن أن تقف حائطا منيعا في وجه قادة الحملة الصليبية التاسعة فقد وصف البكري دار الصناعة هذه بأنها كانت متصلة بالميناء والميناء متصل بالبحيرة والبحيرة متصلة بالبحر^(٤)، وبالإضافة إلى المنشآت العسكرية التي أقامها المسلمون ، فإنه يرجع الفضل أيضا إلى حسان بن النعمان في وضع مائة جامع الزيتونة، الذي أراد عليه وطوره عبيد الله المحجوب^(٥) . وجامع الزيتونة بقي على مستوى رفيع من الفن

١- ابن خلدون المقدمة، ص ٢٥٢، البكري المغرب ، ص ٢٨ . راجع أيضا أنوريده شطي، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٦٧ .

٢- مرسى رانس هو ميناء تونس على البحر المتوسط. انظر بالوت الحصى، معجم البلدان، ج ١، ص ٦٠.

٣- ابن أبي دينار: خلاص ، ص ١٢ . راجع أيضا عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ص ٢٤٩ .

٤- البكري، المغرب ، ص ٢٧- ٢٩.

٥- عبيد الله بن المحجوب هو عامل الخليفة هشام عبد الملك على مصر وكان من أسرة عريقة وأميرا جليلًا وكاتبًا بلغا أمره الخليفة بالسير نحو أفريقيا وولاه إيلما عام ١١٠هـ (٧٢٢م) وينسب إليه خطأ بناء دار الصناعة ولكنه أراد عليها وطورها هي والمسجد انظر ابي دينار . للزنتس ، ص ٤١.

للمعماري^(١)، وهو يطل على البحر وينظر الجالس فيه على جميع جواربه^(٢).

وتشتهر تونس في الفترة موضوع الدراسة بالأسواق الكثيرة والمعامات ومضادات الأبواب الرخامية الرائعة المصنوع وهو ما اشتهرت به قرطاجنة . كما كان يصنع بها الأواني المزخرفة الشديدة البياض وقد صنعت خصيصا للماء ولا يرى لها مثيل في بقية بلاد المغرب^(٣) واشتهرت أيضا بالقصور الرائعة ومنها قصر يقع على أعلى جبل يسمى جبل للتوبة لايتب به زرع ويسميه التونسيون الزلاج وشرق هذا القصر غار منحنى الباب يسمى المعشوق ، ويقرب منه عين جارية وقد أُنشئ القصر ولا يوجد سوى المعارة . وفي الطريق إلى شاطئ البحيرة كانت توجد من ماء يقال لها الحمام وتشتهر تونس بتعدد ثرواتها الطبيعية ومنها الثروة السمكية حيث يصطاد التونسيون أنواعا عديدة من الأسماك والحيتان^(٤) ومنه نوع يقال له البقونس وفيه مثل شعبي «لولا البقونس لم يحالف أهل تونس»^(٥) . والسبب في هذا المثل هو أن أهل تونس كانوا معروفين بمصاولة الحاكم في الرأي والضرب على الولاة دائما ويصفهم القرويس بقاتلهم مشهورين بالذلم وبذات النفس والبخل الشديد والشغب والمروج على الولاة وقد قال أحد ولاتهم فيهم شعرا يؤكد هذه الصفات:

١- لقد ثار جدل بين المؤرخين حول المؤسس الحقيقي لجامع الزيتونة إلى أن قام أ.د أحمد فكري بدراسة علمية أثبتت حوله وتبين من التلويح الموجودة به أنه بنى في أوائل القرن الثالث الهجري (أوائل القرن التاسع الميلادي) وللمزيد حول التطوير المعماري لجامع الزيتونة انظر محمد المير سالك المغرب الكبير ، ص ٤٤٦-٤٤٧ .

٢- الجارية هي السفينة ومنها قول تعالى في سورة الرحمن دله الجوار والمنشأت في البحر كالأعلام . آية ٢٤ .

٣- المضادة هي مضادة الطريق أي تلحيته ومضادة له أي تلافوه وتوافقها ومضادة الباب أي خشبته من جانبيه والمضاد ما يحيط باليد من على ومهرها . انظر جبران مسعود ، الزند ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

٤- العميري: الروس المصغر. ص ١٤٢ . ابن عتيار المؤنس ، ص ١٢ . المسعودي: مروج الذهب ، ص ٥٧ .

٥- ابن حوقل: حشوة الأرض. ص ٧٧ . العميري: الروس المصغر. ص ١٤ . ابن أبي دينار المؤنس .

ص ١٢

٧- العميري: المصغر السابق، نفس الصفحة .

أصعرك ما أفلح تونس كما سمها ولكن ألفتيتها وهي توحش^(١)

وأصدق دليل على ذلك السياسة المتتوية التي سلكها المستعمر صاحب تونس إزاء حملة لويس التاسع على بلاده، وترك أرضه نهبا مغنوا ومن الغريب أننا لم نسمع في هذه الفترة ولم نتمكن من العثور على أى إشارات تغيد بخروج الشعب التونسي ضد حاكمه رغم تظاهره الواضح بالمخاللة مع العدو، وقد وصفها الخليفة عمر رضى الله عنه بأنها أفريقية ولكنها الفترة عادة مغنوا بها^(٢).

وعلى لى الأحوال ، فمن المعروف أن مدينة تونس تطورت تطورا ملحوظا منذ الفتح الإسلامي لها وتميزت باستقرار روحها اقتصادي تركز في حاصنها الزراعية ومحاصيلها المريدة . كما أعطى لها موقعها الممتاز مجالا واسعا لكي تزدهر تجاريا ، حيث كان لقرب جزيرة صقلية من تونس أثر عظيم في رواج التجارة بها وجعل من تونس حلقة اتصال بين الشرق والغرب^(٣). كما ازدهرت أيضا من طريق صناعة الحبوب نظرا لكثرة محصول القنب بها^(٤). ويذكر ابن بطرلة أن أهل المغرب عادة كانوا يتمتعون برخص أسعارهم عن مصر^(٥)، وكثرة محاصيلهم من الزيتون والسفرجل واللوز العجيب والتي الأحمود الكبير والرمان الذي له حلاوة لا توجد في غيره والطبخ والوالع^(٦). وقد ترتب على انتماش تونس الاقتصادي أن عقدت العديد من المعاهدات الاقتصادية مع جنوة وبيزا وصقلية والبندقية وسردينيا وغيرها ، وكانت شوارع تونس تعج بالتجار المسيحيين من كل الجنسيات ، وكان التوسينيون سفراء المعارية في بلاد أوروبا وشكلوا وزنا ونقل لا يستهان به أبان العملة الصليبية عليها

١- القروشي: آثار البلاد ، ص ١٧٢ ، المصيري: الروش للمطار، ص ١٤٣-١٤٤

٢- كان هذا في مضمون الرسالة التي بعث بها عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أثناء تقدمه للفتح أفريقية، ورغبته الكلمة في المعقول على موافقة الطغفة فكتب إليه عمر بهذا الرد لأنه كان يعلم بشراة أهلها ويكنهم الوعدة والمريد انظر عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص ١٥٩

٣- الأبريسي: وصف المغرب، ص ١١ ، المصيري: الروش للمطار، ص ١٤

٤- ابن أبي عيثار: المؤنس ، ص ١٧-١٢ ،

٥- ابن بريدة: مذهب الرحلة، ص ٤٢٢، الشاذلي: نفس المقاسيم، ص ٢٢٩

٦- ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٧٧، المصيري: الروش، ص ١٤٥، القروشي: آثار البلاد، ص ١٧٢

وإذا كنا قد تناولنا في بداية عرضنا للمسرح الجغرافي حفرافية مدينة تونس، فهذا يرجع إلى أهميتها السياسية وقت وصول حملة لويس التاسع إليها. ولكن نظرا لأن مسرح الصراع العسكري كان على أرض قرطاجنة نفسها وليس تونس، فمن الجدير بنا أن نتناول أيضا جغرافية وطبوغرافية قرطاجنة قسبة بلاد أفريقيا كما كانوا يسمونها قديما، وقرطاجنة خلال موضوع البحث كانت بلدة مغربية مهددة وتابعا سياسيا وعسكريا لتونس، تبعد عنها بما لا يقل عن عشرة أميال^(١)، وقيل اثنتي عشر ميلا^(٢) وهناك أكثر من موضع يجعل اسم قرطاجنة فهناك قرطاجنة الأندلس وهي تقع عند جبل طارق وتعرف باسم قرطاجنة الجزيرة ومرساها هذا الموضع يقال له وادي الرمل^(٣) أما الثانية فهي قرطاجنة الحلفاء بالأندلس^(٤) أيضا وهي واحدة من قرى تميم^(٥) وكانت تميمير قد أصبحت في مكانة مرموقة من الناحية السياسية بعد «تمسيم مرسية» وهي في نفس الموضع جنوب الأندلس^(٦)، وكانت ترسمي عندها المراكب

١- المصيري: الروض المطار، ص ٤٦٦، ابن أبي دينار المؤنس، ص ٢٨

٢- واقرت المصوي: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٢٢.

٣- بحث طارق بن زياد عند ذلك بن أبي عمار في فرقة صارت بعدة الساحل شعاعا واستولت على هذه القرية التي عرفت باسم قرطاجنة الجزيرة وهي تقع في جوف جبل طارق عند مصب نهر يعرف بواندي البحر واستولى على كل المنطقة المحيطة بها. انظر المقرئ: فتح الطيب، ج ١، ص ٢٢٩. راجع كذلك عبد العزيز صائب، المغرب الكبير، ص ٢٧٤.

٤- المصيري: الروض المطار، ص ٤٦٦، المقرئ: فتح الطيب، ج ١، ص ١٦٨-١٦٩

٥- تميمير هذه أقيمت في موضع مدينة مرسية جنوب إسبانيا، وقد فتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير ويقال أن الذي فتحها هو عبد الأعلى بن موسى بن نصير. راجع عبد العزيز ومالك قصة تتعلق بفتحها وذلك أن ملكها كان يسمى غنرس ولما فشلت قواته في قلب الرطب الإسلامي على تميمير عمل هي إخراج النساء وأمرهن بأن ينشرن شعورهن ويقلن على صدور لثديتهن ويقلن من بقي من الرجال فانهقد له الملح والأمان ويصل عبد العزيز للثديتين ويحرقن بقة رجال تميمير بن غنرس. والزميرد انظر للمصيري: الروض المطار، ص ٤٦٢، المقرئ: فتح الطيب، ج ١، ص ٢٧٤.

٦- لقد حررت قرطاجنة الأندلس لأن ماء البحر طغى على جزء منها وسقى جزء سيط ليس له شجرة المدينة الأم ويتجمع من بقاياها أنها بنيت على حرار قرطاجنة أفريقيا. انظر باقرت المصوي: معجم البلدان، ص ٣٢٢، المقرئ: فتح الطيب، ج ١، ص ١٦٤. راجع أيضا عبد الحميد حميدة: أعمال الجغرافيين العرب

الصغيرة والكبيرة ، ومشهورة بحصنها وأراضيها الزراعية الشاسعة وغنية ماعدا وأما الثالثة فهي قرطاجنة أفريقيا وتطلق بالفتح ثم السكون وطلا مهلة وبجيم ونون مشددة وقيل أن اسمها قرطا وأضيف لها كلمة جنة لطبيعتها وحسنها^(١) وهي من أعظم وأقدم مدن أفريقيا يقول عنها وليم دي نانجي مؤرخ وشاهد عيان الحملة الصليبية على تونس «أما رسونا قرب شواطئ قرطاجنة التي كانت تسمى سيدة مدن أفريقيا على الإطلاق وكانت تتمتع بقدر كبير من المنعة والسيطرة والحصانة»^(٢). ومدينة قرطاجنة غاية في القدم يقال أنها بنيت قبل بناء مدينة روما بأشبعين سنة ويقال أن ملكها كان جبارا عظيم الشأن ويسمى هانيبال Hannibal وكان كثير التمرد على روما فحطها وقتل ملوكها وأحد بلادهم وبعث إلى قرطاجنة خواتيم الملوك الذين قتلهم . ولما اشتد حصاره على روما أرسل قائد روما أحد قواده وأمره بصرب حصارا شديدا حول قرطاجنة وكان اسم هذا القائد الروماني هو شيسون فحرب رجاله قرطاجنة وبزلوا بديارها ولقدوا هانيبال درسا قاسيا كان من أهم نتائجها بداية تخريب قرطاجنة وتهديمها^(٣)، إلى أن أدنى المسلمون عند فتحهم لتونس على ما تبقى بها من آثار.

وعلى الرغم من سيطرة الرومان عليها إلا أن قرطاجنة ظلت تتمتع بوزن وثقل اقتصادي كبير في حوض البحر المتوسط^(٤)، وظلت تتلوى روما فترات وتثور ضدها إلى أن كانت محنة الامبراطورية الرومانية وتصبصع كيانها^(٥)، مما أدى إلى إردباد الطامعين فيها وعلى رأسهم الوندال الذين تمكنوا بقيادة ملكهم Gericck من الاستيلاء على قرطاجنة فكانت لمحة

١- باثوث المصري : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٢٢٢ ، ولقزيرد عن حكم المبتكين للقرطاجنة قديما أنظر عبد

الحديد حميدة : أعلام المصراعين العرب ، ص ١٨-٢٠.

٢- Nangis , Vie de Saint Louis, p. 441 .

-٢-

٣- للمصري : الروض المطار ، ص ٤٦٧-٤٦٤ ، ابن أبي دينار : الخراس ، ص ٢٦-٢٢ ، المعشقي : نعمة البحر ، ص ٢٢ ، ولجج أيضا آدم منتر : المشاركة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص ٤٢٢ ، عبد العزيز سالم وآخرين : البحرية المصرية ، ص ٤٦٦ . جمال الدين النحاس : جغرافية العالم ، ص ١٤٢

٤- باثوث المصري : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٢٢٢ ، انظر أيضا عبد العزيز سالم وآخرين : البحرية المصرية ، ص ٤٦٦-٤٦٧

٥- جوزيف تدسيم : دولة الامبراطورية الرومانية ، ص ٥٠-٥٢ ، ابراهيم طوخان : السفسون في أوروبا ،

قوية وجهت إلى روما حيث اتخذ منها الوندال مركزاً للقيام بالعمليات البحرية ضد روما وحاول الرومان جاهدين أرجاعها إلى نفوذهم ولكن دون جدوى حيث منى أسطولهم بهزيمة هدامة قرب قرطاجنة عام ٤٦٨م. وتأكدت روما من ضياعها بأن عقدت معاهدة معززة مع Geiseric اعترفت بسلطانته على قرطاجنة إلى أن تمكنت الامبراطورية البيزنطية من فرض سيطرتها على المغرب ورعت قرطاجنة بالبيزنطيين لسوء معاملة الوندال لشعبها وظلت هكذا إلى أن تم التفتح العربي الإسلامي لها على يد حسان بن النعمان^(١).

وقد حبت الطبيعة قرطاجنة بمقومات هامة نظرا لوقوعها على ساحل البحر المتوسط وأدرك الرومان والوندال والبيزنطيون ذلك ، وفطن أيضا حسان بن النعمان إلى أهميتها في مدرسة النشاط الاقتصادي والعسكري^(٢) وأشار حسان بذلك في الوقت الذي شعر فيه بضرورة السيطرة على الوجود الإسلامي هناك حيث أنها كانت كانت المعبور السهل أمام البيزنطيين لتوجيه الضربات القاسية إلى المسلمين بتونس لذلك أمر بتخريبها وأتى على ما بها .

هذا من تاريخ قرطاجنة السياسي قبل العملة عليها، أما من جغرافيتها فهي تقع أعلى مدار السرطان بأحدى عشر درجة ، طولها حوالي ٢٤ درجة وعرضها ٣٥ درجة^(٣) بينها وبين بحيرة تونس المنيرة حوالي ثلاثة أميال ونصف وهو الموقع الذي شهد المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة يحيى بن صالح والسليبيين. ويتصل بها من جهة الغرب إقليم سطوفة بمدائه الثلاث وهي بنزرت وشلوكة وتينجة^(٤). ويحيط بقرطاجنة ثلاثة أسوار دائرية يحميها البحر فيها من كل جانب^(٥) ونظرا للتخريب المتكرر الذي لقي عليها فلم يبق منها سوى الميناء

١- عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص ٦-١٥، ٤٧، ٥١.

٢- عبد العزيز سالم والحريري : السيرة المصرية، ص ١٦٦. لويزي : حضارة العرب، ص ٢٦٦، حصن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس، ص ٧. إبراهيم طرخان : المسلمون في أوروبا، ص ١٦-١٧.

٣- واقره المصري: مصمم البلدان، ج ٤، ص ٢٢٢.

٤- الاندلسي : وصف المغرب، ص ١١٤ وأيضا الدوايري : كتاب صورة الأرض من جغرافيا بطليموس لتقوي، ص ١٦ راجع أيضا عبد العزيز سالم والحريري : السيرة المصرية، ص ١٧٧.

٥- ابن أبي دينار : المؤنس، ص ٢٤، الاندلسي، وصف المغرب ص ١١٢. واقره المصري: مصمم البلدان، ص ٢٢٢، الصيرفي : الروض المطار، ص ١٦٢.

والبرج وأرض المعلقة التي كانت تحتوى على القلعة ويقع ميناء قرطاجنة داخل المدينة، وكانت له شهرة عظيمة ويتمتع بربواج تجارى كبير، وكانت تسطه السفن يوميا محملة بالبضائع المختلفة ووقت وصول الحملة كان حريا مهما وقد فقد أهميته العظمى عند الفتح الإسلامى، وكان يوجد عليه قصر ورياطا^(١).

أما البرج فكان يعرف باسم برج سليمان^(٢)، وعرفه الزركشى باسم قرطيل المحار^(٣) شرقى قرطاجنة وعلى الرغم من أن إعادة بناء هذا البرج وعمارته حدثت فى أواسط القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)^(٤)، إلا أن مكانه كان موجودا منذ القدم وتأثر بالتخريب الذى تعرضت له قرطاجنة ، وقد استلقت منه الصليبيون تماما بل كان البرج من أوائل المواقع العسكرية الهامة التى حرص عليها الصليبيون فى بداية سؤلهم قرطاجنة.

وقد تلقى من قرطاجنة أيضا قلعة تسمى بالمعلقة^(٥)، وهى القلعة التى استولى عليها لويس التاسع بعد نزوله قرطاجنة مباشرة ونقل إليها مرصاه. ويذكر الصميرى عن تاريخ هذه القلعة «أنه كان يسكنها قوم من العرب يعرفون ببني زياد، ولما طلع عبد المؤمن بن على إلى أفريقيا قصص على أميرهم محمد بن زياد وحرب عنقه وكانت فى وقت عمارتها (أى القلعة) من غرائب البناء وظهرت فيها قدرة عظيمة لم يبلغها أحد من قبله»^(٦) وقد وصفها الإدريسي «بأنها من غرائب البناء فى وقت عمارتها»^(٧)، وأنها كانت متصلة اتصالا مباشرا بالبحر.

وقد تعددت الروايات حول معالم قرطاجنة وروعة مبانيها قبل تقريبا ويقال أن مجارى مياه قرطاجنة لم يوجد مثله فى روعتها، وجميعها من الرخام الأبيض واللون المتعدد

١- ابن أبى فيثار: المؤنس ، ج٢٤ .

٢- ابن أبى فيثار : المصدر السابق ، نفس الصفحة

٣- القرطيل هو الرأس البارز من البر فى البحر وهو اصطلاح جغرافى قديم

٤- الزركشى: تاريخ الدولتين للرحبة والمطمية، ج١٠٧

٥- للصميرى : الفروس للعطار، ج٦٤

٦- الصميرى: للمصدر السابق ، نفس الصفحة، ابن أبى فيثار : المؤنس ، ج٢٤

٧- الإدريسي: وصف الغرب، ج١١٦ ، المصطفى: نسخة الدهر، ج٢٢

الأشكال. ويشبهها باقوت بلئ عقود هذه الجارى كانت أشبه بالمائر وتضاف إلى عظمة منارة الاسكنرية^(١).

ويقال أن المسافة بين قرطاجنة والقيروان ثلاثة أيام، والمائر فيها كان يمشى بين جبال متحارة بعضها إلى بعض وبين تلك الجبال عقود معقودة وسد مبنية، وفوق هذه العقود يجرى الماء بروعة وجمال^(٢)، ويصيف الصميري قائلا أن من يدخل قرطاجنة كان يجد في كل يوم أعجوبة لم يرها من قبل^(٣)، ومن أعجب مياثيها أيضا الحدايا، وهي التي جدها الخليفة المستنصر المنصفي وقت توليه الحكم وجلب الماء عليها إلى بساطيه بلئ فهر. وكانت الحدايا هذه من عجائب الدنيا كما يصفها الرحالة العرب، وكان الماء يشعث إليها من عين يقال لها جوقار أو جلقار، وهي وراء زفوان^(٤)، بمسافة كبيرة ويقال أنهم جلبوا إليها ماء زعان أيضا وكانت تلك الحدايا تغيب تحت الأرض في الأماكن المرتفعة، فإذا صرت على مواضع منخفضة تكون على قناطر فوقها قناطر، وكان يوجد في وسط قرطاجنة صهريج يتبع من هذا الماء المجلوب^(٥).

وبالقرب من قلعة قرطاجنة السابق ذكرها كان يوجد قصر يسمى قصر الطيلطر^(٦)، وكان يتسم بالارتفاع الشاهق وبه قباب معقودة، ومطل على البحر، شكله مستدير، يقال أن من يراه على بعد يجده كقبة قائم في الهواء^(٧)، ويوجد به خمسون قوسا، كل قوس سمته قريد هن ثلاثين شبرا ومنى من حجر يسمى الكلدان وقد رسمت بمحيط استدارته أنواع من الصور والتماثيل العجيبة والسباع والحيوانات. وكان ملعسه ناعما وصم أيضا ملعنا وناديا كان يجتمع فيه أهل قرطاجنة في أوقات معينة من العام.

١- باقوت الصميري معجم البلدان، ص ٣٦٢، راجع أيضا لدم متر الحضارة الإسلامية ص ٢٧٥

٢- المقري، تلح الطيب، ج ١، ص ١٦٨.

٣- الصميري، الروض المعطار، ص ٤٦٢.

٤- يقال أن هذه العين لا تزال مرجوبة تتوش في موقع يقال له الصمدية وزفوان مدينة نفوس أيضا

٥- وكثير من عجائب البناء في هذه المنامة. انظر الصميري، الروض المعطار، ص ٤٦٤، ابن أبي دجاد المؤنس، ص ٢٤١-٢٥٠

٦- طباطر، تحريف كلمة تاتار Thosse أي المسرح. انظر ابن أبي دينار المؤنس، ص ٢٤-٢٥

٧- الصميري، الروض المعطار، ص ٤٦٢، ابن أبي دينار، المؤنس، ص ٢٤١

كما يوجد أيضا قصر يقال له ترمس أو قومش^(١)، وكان مبنيًا من الرخام الأبيض المفرط في الطول، يتريع على رأسه سارية من عشرة رجال، وكان يوجد بها مواجيل يسميها لتونسيون مواجيل الشياطين^(٢) لأنه لايعرف من أين تسفلها الماء ولا تزال تلك للمواجيل موجودة حتى يومنا هذا. وقد سكن هذا القصر قوم من قطاع الطرق، فقصم أهل تونس على التكتيل بهم، وهدموا أجزاء من القصر وهم بداخله فماتوا ونشوا جميعا فيه^(٣).

واشتهرت قرطاجنة أيضا بعبية كان اسمها النواميس^(٤) وكان عيدها ٢٤ داموسا طول كل منها ١٣٠ قمعا وبين كل داموسين يوجد حوحدات يصل منها الماء إلى جميعها بهنسة وحكمة، وكان الماء الواصل من عين جوقار التي بقرب القيروان إلى قرطاجنة يفرغ في هذه النواميس على عدة قناطير لاتحصى على وزن معتدل على قواعد مسية بالصخر، وقد انقطع الماء من هذه النواميس لكسر القناة وبخراب قرطاجنة^(٥).

وكان يوجد بها أيضا قصران من رخام يعرفان بالأعشى فيهما ماء مجلوب من الناحية القبلية من قرطاجنة، وعليه ماء مجلوب من جوف الأرض ومن تحت الجبل، وماء مجلوب من موضع المنياء القديم ومن أعظم ما يوجد في هذين القصرين الرخام بالشكالة الرائعة والزواله العميلة وكل قطعة من هذا الرخام ليس لها مثيل^(٦).

١- الحميري: الروض المطار، ص ٤٦٢، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٢٤

٢- سميت بهذا الاسم لأنه كان من يتقرب منها ويشمئذ كان يسمع نوحا هائلا وكانوا ينتقلون بوجه الشياطين داخلها ولكنها أسطورة، وكل ما في الأمر كما ذكر الحميري: الروض المطار، ص ٤٦٤، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٢٤، والبرجيل يقدم به الماء الناتج من انتظام ومنه المروج والمواج والتونجان، انظر ابن بطوطه لسان العرب، ج ٢، ص ٥٤٨، جبران مسعود الزائد، ج ٢، ص ١٤٥٣.

٣- الحميري: الروض المطار، ص ٤٦٢

٤- النواميس: هي الأحواض أو الهواريس وسفرتها للموس وكانت تستعمل بمعنى السجون ومنها النيماس، انظر المغربي: نوح الطوبى، ج ١، ص ١٦٨

٥- الأبرسي: مرغة الشناق، ص ١١٣، الحميري: الروض المطار، ص ٤٦٣، ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٢٤-٢٥

٦- ابن أبي دينار: المؤنس، ص ٢٤، الحميري: الروض المطار، ص ٤٦٣، المصري: معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٢٢، الأبرسي: وصف المغرب، ص ١١١.

وقرطاجنة كانت تحيط بها أراض منخفضة عنها عبارة عن سهول ومزارع وحقول لا حصر لها ويزرع بها العنيد من التمار والعلات طوال العام^(١).

على الرغم من كل هذه الحضارة العمرانية والمكانة الاستراتيجية والاقتصادية التي تميزت بها قرطاجنة بين كل مدن أفريقيا ، إلا أن يد الخراب امتدت إليها مراراً كما سبق القول فقد دمرتها روما من قبل ، وروم أثنى حسان بن النعمان إلى أفريقيا دل على قرطاجنة أول ما نزل نظرا للأحجار التي وصلته عن ديوع صينها وشهرتها السياسية بين المدن الأخرى ، فحاصرها عام ٧٧هـ (٦٩٧م) واضطر ملكها البيروني إلى الهرب ليلاً إلى صقلية والاندلس^(٢) . وحلها حسان بالسيف ، ولما وجد فيها مطعماً وفرصة سهلة لاهتدات البيرونيين على المسلمي يتوس أمر بتهديمها وإشلاء مدينة تونس عوضاً عنها. وهي القرية الصغيرة المهلهة من قبل ولم يتبق من آثار قرطاجنة حسبما أسلمنا إلا المياه والقلمة والبرج^(٣) ، وهي الأماكن التي احتس الصايبيون بها يوم وصولهم قرطاجنة، وكان من أثر انتشار الفرنج في بقية أراضي قرطاجنة

وهكذا لعب الموقع الجغرافي لتونس وقرطاجنة دوره الحظير في إردباد الطامع فيها ، فقد أثر على اقتصادياتها وزادت التجارة بها ، وداعت شهرتها في كل أوروبا وأزدهرت تونس حشائراً ، وبنت فيها القصور والمساجد واتسعت عمارتها وأردانت خيراتها ، وصمرت أسواقها وعملت المعاهدات التجارية بينها وبين معظم مدن الغرب ، وبنت هبها الفنادق والمطاعم

١- الإبرسي. وصف الغرب ص ١١٤ .

٢- العميري. الفرض للمطار، ص ٤٦٢

٣- ابن أبي دينار التؤني ص ٢٥. ابن الأثير الكامل ج ٤، ص ١٠٠ ابن عذاري، ج ١، ص ٣٥ ، ابن حليو العبر، ج ٦ ، ص ١٠٩ . يالقرت العموي. معجم البلدان، ص ٢٢٢

٤- لتعلقت المسائر حول التعميد الرمي الذي خرب فيه قرطاجنة منهم من يقول حرباً الرومان ومنهم من يقول خربت على عهد هشام بن عقال لما أرسل قائده عذالة بن أبي الصرح إلى حوش اجمر المنوسـ في حين توجد معص الآراء الفاتكة، بأن الحسان هو أول من حربها وللمريد انظر العميري. الرور المسائر، ص ٤٦٤-٤٦٥. ابن أبي دينار، ص ٣٦-٣٧. ولجع أيضاً عبد العزيز سالم تاريخ الدولة العربية، ج ٢، ص ٢٦٥

لاستقبال الزائرين من التجار، لدرجة أن أسواق تونس^(١)، ضاقت بهم آنذاك واستمرت هكذا طوال فترة الحملة الصليبية ومدة زمنية كبيرة بعدها إلى أن دخلت في طور الانحدار بسبب الاضطرابات السياسية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي / أواخر القرن التاسع الهجري ولولا كل هذا التطور الحضاري الذي اشتهرت به تونس وموقعها الاستراتيجي الجغرافي الممتاز ما طمع فيها لويس التاسع ورفاقه فالحلف الأسمر بالنسبة لهم هو الاستيلاء على الأرض والمال وقد ظهر ذلك واضحا ومات الشعار الصليبي المعروف وزال القناع الديني الذي طامحوا به لتبرير هجومهم على أراضي الإسلام فلو كان الدين هو الأساس لرحلوا إلى بلاد الشام مباشرة واستولوا على بيت المقدس من المسلمين .

١- دائرة المعارف الإسلامية، ج ١٠، ص ١٧٦ .

دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر الموضوع ومراجعته

أولاً : المصادر الأجنبية :

تقييمها وأهميتها - وايم دي نانجي- وايم دي شارتر- جوفروا دي بليه- قوائم الفرسان
لؤلف مجهول- تاريخ الامبراطور هرقل لؤلف مجهول- فضائل القديس لويس لؤلف مجهول-
حوليات مآثر القبارصة- حوليات الأرائقي المقدسة لؤلف مجهول- وايم دي سان باثوس -
ويجر- وايم دي ياعوا .

ثانياً: المصادر العربية :

تقييمها وأهميتها ابن حنون - ابن القمعة- الفروني- ابن أبي ديثار ابن أبي زرع-
الحلالم الموشية لؤلف مجهول- الرركشي- الفيومي- العيني- ابن تيمزي بردي- ابن الفر-
ابن واصل- ابن العبري- اليوبيتي- ابن أيبك- المقريري- ابن نياس- ابن رسول

ثالثاً . كتب المسالك والممالك ومؤلفات الرحالة والجغرافيين العرب

الابريسي - ابن حردابة - الأصبهري- المسعودي - ابن حوقل- الصوري.

رابعاً . المراجع الحديثة من عربية وأجنبية .

مراجع أجنبية في تاريخ الحركة الصليبية- مراجع أجنبية في سيرة الملك لويس - مرجع
أجنبية في تاريخ إنجلترا وفرنسا- مراجع عربية شاملة ومختصة في تاريخ المغرب .

موضوع بحثنا وهو حملة لويس الصليبية على تونس، في أواخر القرن الثالث عشر
الميلادي/ أواخر القرن السابع الهجري، يعد من الموضوعات الهامة في تاريخ الحركة
الصليبية، فهو الحلقة الأخيرة في تلك السلسلة الممتدة من الصراع الصليبي الإسلامي

وبعد الفوضى في غمار أحداث هذه الحملة ووقائعها ، والكشف عن غموضها وفجواتها
العديدة، كان لابد من البحث والتنقيب في بطون الأصول العربية والأجنبية على حد سواء
وكان لابد لنا من وقفة مع مختلف الروايات والأسانيد ومناقشتها ومقارنتها بعضها ببعض
بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية والكشف عن أسلم الوقائع وأصولها

واعتمدنا في هذه المصادر على روايات وريدت على لسان شهود العيان ممن عاشروا أحداث ذلك الزمان، وروايات منقولة عن أصول منها ما فقد، ومنها ما هو متقدم عنها زمنياً وتأتي المصادر الأجنبية في المقام الأول من حيث الأهمية. وذلك بسبب انقراض عدد كبير من المؤرخين الغربيين في تلك الحملة على تونس فكانت معاصرهم للأحداث من بدايتها إلى نهايتها وتسجيلهم لها ذات أثر كبير في الكشف عن القموص الذي أحاط ببعض قضايا الحملة ومشاكلها . بالإضافة إلى الصديق والواقعية الذي تميزت به المصادر الأجنبية باستثناء بعض الأحداث التي تجلت فيها العصبية والترتب ، وهو ما كشفت لنا المصادر العربية . لقد كانت المصادر الأوربية بمثابة القموص الذي تسلط على أحداث الحملة ببقائنها وتفاسيلها . ولكن هذا لا يعني اغفال المصادر الإسلامية التي كانت بمثابة ينبوع ملي بالأحداث السياسية التي أحاطت ببلاد المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص وهو ما عجزت المصادر الأجنبية عن السير وراءه وسير أحواله . حقيقة أن تلك المصادر لم تكن تجهل تماماً أحوال العالم الإسلامي ولكن ما ورد بها لا يقاس بما رويته به الأصول العربية

وعلى الرغم من أن مؤلف جوامعيل عن «تاريخ القديس لويس» هو من أهم المصادر الأوربية من عصر لويس التاسع وحمليته على مصر والشام . إلا أن عدم مرافقة جوامعيل للويس في حملته الثالثة على تونس، انعكس بصورة أو بآخر على كتاباته التي نلقها من ألبعض ممن رفقوا بـ لويس، مما أضاع علينا فرصة الوقوف على اختبار هذه الحملة بصديق وواقعية جوامعيل مثلب فعل في الحملتين السابقتين التي قام بهما سيده . ولهذا كان اعتمادنا على مؤلف آخر من «سيرة القديس لويس وابنه فيليب» للمؤرخ العربي المعاصر للأحداث ولهم دي بانجي^(١)، وقد أعد مؤلفه باللغة اللاتينية ثم نقله إلى اللغة الفرنسية القديمة. واستلهمه بالتعرض لأهم الأسباب والأحداث التي صاحبت حملات لويس على مصر وبلاد الشام . وقد اعتمد نانجي فيما يتعلق بأبناء هاتين الحملتين على كل من جوفروا دي بيلييه وجيلون دي ريمز^(٢) Gilon de Reims .

أما ما ذكره عن حملة لويس على تونس . فله طابع خاص وأهمية كبيرة، حيث أنه رحل بالفعل مع لويس وكان شاهد عيان لوفائات الحملة منذ بدايتها وحتى رحيلها عن تونس. وقد

Michaud, Cross, VI, pp. 198-9, Mefinier, t. III, p. 102

-١-

٢- لقد فقد مؤلف جيلون ولكن صديق نانجي فيما نقله عن جوفروا دي بيلييه يؤكد صفة فيما نقله عن جيلون أيضاً وهذا يعني أنه حفظ لنا الكثير من مادة كتاب جيلون المفقود.

اكتسبت كتاباته بالصنق والواقعية حيث زودنا بالعديد من صور الصراع بين المسيحيين والتوسيين بشكل تفصيلي تحقيق مجز كافة المؤرخين المسلمين عن التعرض لها مثلما فعل نانجي ولكن يؤخذ عليه الفرقة العصبية والقفمية في كثير من الأحيان، ولقد أسهل نانجي منزله عن حملة لويس على تونس من ذكر أهم الأسباب التي دفعت للدعوة لهذه الحملة والقيام بها. وأكد أن قوة المسلمين المتزايدة بمصر وبلاد الشام باتت تهدد مصالح فرنسا وتول غرب أوروبا بأجمعها، وكان لابد من انتفاضة قوية لقمع هذه القوى، ولم يخف نانجي أن لويس كان مليئا بالحمق على المسلمين بعد أسره وهزيمته في مصر. وأن من أهم أسباب حملته على تونس هو سبب شخصي نفسه يتعلق به شخصيا إذ كان يسعى لرد اعتباره بعد أن امتهت كرامته بعد إزاله على خلاف السبل فكان يريد الانتقام من المسلمين والثار لهزيمته الفاشحة في مصر.

وأكد نانجي أنه من ضمن الأسباب أيضا رغبة لويس في وضع كتور تونس من الذهب والفضة والثروات الأخرى بي يديه . كما تعرض بالتفصيل لوقف البابوية من لويس وكيف وجد كل التأييد منها ونوه أن هذا كان في الظاهر فقط، أما في الحفاء فقد حققت البابوية على لويس لتسلطه على مجريات الأحداث في أوروبا وأورد أسماء الملوك الذين شاركوا لويس في الحملة والسلميات التي واجهها من عدد منهم. ومن رجاله بفرنسا ممن تقاعصوا عن المشاركة في حملته ، وتحدث نانجي بأسهاب عن أهم الترتيبات التي أقرها لويس في فرنسا قبل رحيله واعتماده على الكويت فيسكوسين Viscontino كريت مدينة سان نيس لإقرار شئون الحكم أثناء غيابة. كما استعرض بتركيز موضوع المراسلات السرية التي كانت تتم بين لويس والمستنصر بشأن تحول الأخير في الديانة المسيحية ووضح أنه غلبت عليه العاطفة في هذه الرواية، وقد أيضا بشدة رغم أنه كان يناقش نفسه في مرات كثيرة ويقر بصحبة المستنصر لهم بشأن هذا الموضوع. وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل والتحليل في متى الكتاب.

وقد ابرر نانجي في روايته بالوصف الدقيق الذي أعطى صورة حية عن حالة الجيوش الصليبية في مياء اجمورت الفرنسي وكان مبالغا في وصف تعدد القوات الصليبية، صعب يقال أنه بلغ من كثرتها أنها غطت أرض المينا، ولم يكن يوجد شبر واحد من الأرض ليس عليه موقع لجندي، كما أنه كشف صراحة عن أساء الصراع الدائر بين أبناء الصليب من أمالي اجمورت وحنود الحملة ، والأحداث المؤسفة التي نجمت عن ذلك . وأرجع نانجي سبب هذه الأحداث إلى أن كهولة لويس لم تمكنه من الإمساك بزمام الموقف بيد من حديد . وقد

تملكه اليأس لدرجة أنه فكر في الرحيل إلى مكان آخر انتظارا لوصول ماقي الامدادات. كذلك استعرض نانجي أخبار العاصفة التي أصابت الجيوش الفرنجية في الطريق من سربديا إلى تونس وزينا يوسف دقيق لقوة الحملة وأثرها على الأسطول والقناصلين ، وبداية انتشار الأمراض بينهم وهم داخل سفنهم وكان نانجي الوحيد من بين المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذي أقر أن سبب انتشار الأمراض بين الجند ليس نتيجة انتقال العدوى من التونسيين بل نتيجة المجاعة وقلة الأكلات واشتداد الواسف وهم في الطريق إلى تونس. كما تعرض نانجي للمحنة الكبرى التي ألقت بهم وهي مرض قاندهم نفسه واضطراب معسكر الفرنج بسبب موته وتعرض بالتفصيل لاحتى الوصية التي تركها لويس لابنه فيليب ولم يأت بجديد فيها عما ذكره غيره من المؤرخين . كذلك أوضح حالة المعسكر الصليبي وقت وصول شارل كوتن أنجو شقيق لويس التاسع ومعاينته لجمع الشمل من جديد ولم يفعل أبناء الصراع بين شارل والمسلمين، أو تعرض بأسباب المعارك التي دارت بين الطرفين ويكر أنها اثنتى عشرة معركة إلى أن انتهى الأمر بالصلح بين الطرفين في أكتوبر ١٢٦٠م / صفر ٦٦٩هـ.

وقد امتاز كتاب نانجي بالصديق وعدم التصوف من ذكر الحقيقة حتى لو لم تكن لصالح الفرنج. فقد أشار إلى خسر الروح الصليبية وقت الدعوة للحملة ، وأعطى صراحة أن الصليبيين كانوا يتسمون بالكسل والتراخي منهم مثل صليبي الشرق اللاتيني. كما أكد رأيه هذا أثناء الصراع في اجسورت الذي يرجع إلى عدم اقتناعهم بجنوى القيام بحملة جديدة، وأن تحرير الصليب المقدس لم يعد ذا قيمة في نفوسهم ، كما أن وجوده بين صفوف الحملة أثناء هبوب العاصفة في طريقهم إلى تونس سمح له ليصف لنا بدقة كيف أن كبار القادة لم يفكروا إلا في أنفسهم . ولأنهم كانوا يتصارعون من أجل التجارة ، ولم يفكروا في رعاياهم ولارضاعهم بل كان كل منهم اعداد روارق المجاة الخاصة بهم، ولم يلتفت أحدهم إلى من في مسئولياته لانقاده وظل نانجي هذا يلقح إلى فقار الترابط بين هذه الجماعات وتفصيل الدات على المصلحة العامة كما اتفق ماضي وصفه للحالة الاقتصادية المتردية التي آلت إليها الحملة قبل وصولها تونس ومسور لنا تمهيط لويس في قراراته وأرتجاله في حل هذه الأزمة الأمر الذي ترتب عليه أسوأ الدواب . ولكنه كان سالفا حين أكد أن لويس عرض بيع أشياء ثمينة خاصة به للتوسيين لم يكن يفكر قط في بيعها ليشترى بها طعاما ووسائل علاج لمرضاه، وذلك لأن هذا الحدث كان في اللحظة الأولى من اقتراب الحملة من تونس ولم تكن الأمور قد تارمت بعد

بالصورة التي ذكرها نانجي وقد أظهر نتائج إعجابه بالمسلمين هي كثير من الواضع، فقد صور لنا أصرارهم على عدم التعامل مع المسيحيين، أو بيع أى شئ لهم، كما أقر بأن المستنصر قد خدمهم وأرقعهم في شركته، وأنه لم يكن سابقا في وعوده لهم بالقبول في المسيحية.

كما أورد بتفصيل وأسهاب المجالس التي كان يعقدها لويس مع قائمته، وذكر العبارات التي كان يريدها القبلاء، والتي تتم عن كراهيتهم وحقدهم على التونسيين ورغبتهم في القتل بهم، فقد سجل ما قاله أحد الفرسان صيدى اسمح لنا بالهجوم وستكتل بهم من جراء ما فعلوه معنا، ولايجد خصامه في مدح الجيش التونسي واستعداداته العسكرية لجبايتهم، ولكنه لايجل دمهته عن تقاضى التونسيين في الدفاع عن قرطاجنة وكان دقيقا في وصفه للمطوح العسكرية التي وضعها لويس لاحتلال قرطاجنة، وبي كيف تم احتلال المدينة على ثلاث مراحل أولها القلعة ثم البرج فالميناء، وعبر عن فرجة لويس لسقوط القلعة لاحبا منه في لتوسع على حساب تونس في هذه الظروف الصعبة ولكن لأنها لمحت الأمل في دلفله لانتقال مرضاه الموجودين داخل السفن في عرض البحر دون أى وسائل علاجية. وكان وصف نانجي لمعركة البرج صورة نابضة بالحياة، إذ ذكر فيها أنواع الأسلحة التي استخدمت وعند أسماء الفرسان المسيحيين وطريقة بداية الهجوم، ولحظات الحصار، والمراسلات التي تمت طوال الليل بين القادة الصليبيين والملك لويس وهو داخل سفينته، ولكنه كان مبالغا في تعداد القتلى من المسلمين وأغفاله من سقط من المسيحيين في ساحة القتال بالإضافة إلى مبالغته في ذكر حجم الفدائم التي سلبها المسيحيون بعد معركة البرج لأن قرطاجنة كانت خربة ومهذمة ولايعقل أن يترك بها التونسيون أشياء ثمينة وهم على علم بهذه العلة منذ فترة غير قصيرة قبل مقدمها

كما أبدى نانجي تحجبه من تقصير التونسيين في الدفاع عن بلدهم، وإهمالهم لحماية سواحل تونس وهي بلد بحرى من الطراز الأول، وذكر أسماء الفرسان الذين كانوا يتجاولون داخل قرطاجنة طوال ليلة حصار المروج وذلك للتجسس على رد الفعل لدى التونسيين، ثم عودتهم ليلا بزوارقهم إلى عرض البحر دون أى اهتمام أو اعراض من رجال حرس السواحل التونسيين.

وأورد نانجي برفقة مضمون الرسالة التي بعث بها المستنصر قلويس بهذه بدع جنوده إن

لم يرحل عن تونس كما ذكر رد الفعل لدى لويس وتخوفه ، بل عقد مجلسا استشاريا عاجلا واصله ناجي بلن لويس كان يهمس في آذن المقربين منه طوال فترة انعقاد المجلس للدرجة أن ناجي عجز عن سماع أى شئ من هذا الحديث ولكنه وصف لويس بأنه كان قلدا وفي حيرة من أمره ولم يكن ثابتا في خطواته وقراراته بعد أول تهديد تونسي مباشر شدد

ويؤخذ على مانحي اختلافه لقصة تقدم عبد كبير من طلبة القوم في تونس، بطلب التحول في المسيحية، ويألغ في تصوير مثلتهم أمام المسيحيين واستعطاف لويس لقبولهم في ديانته وقد أوضحنا أنها قصة من وحي خيال المؤلف كتبها بدافع العصبية والقومية، وأن هؤلاء هم أسرى لديهم واضطروا إلى هذا أملا في فك أسرهم وليس من صدق بنة القسول في المسيحية وعلى هذا، فإنه أورد لنا وصفا دقيقا عن حالة الملك لويس بعد مرض ابنه وتحبطه بعد إحساسه هو الآخر بالمرض، ولم يخف أبناء خوف الملك على نفسه ولولاه من حصار المسلمين لخيمته ، بل أوضح أن لويس اتهم حراسه بالتقريط في واجبات الحراسة الخاصة به ، وأغرد ناجي بذكر وقائع آخر المعارك التي دارت بين لويس والمسلمين قبل اشتداد المرض عليه وترجع أهمية روايته أنه كان على متن سفينة حاصنة بالقرب من الشاطئ، وشاهد عن كثب الأحداث حين أمر الملك بالاستعداد لمعركة حاسمة طويلة مع المسلمين بسبب ترايد مضايقاتهم له ولأسرته ، وخوفه على عدد من الملكات والأميرات اللاتي قمن معه فيصف كيف قام لويس على الفور بنرحيل الملكات إلى بلادهم بينما تقدم كل من بيبر شاملنج وعموري دي لا روش لقيادة الجند في هذه المعركة . وقد كان ناجي صادقا في وصفه لها حيث أطن دون تمييز أن الدائرة دارت في البداية على المسيحيين وقتل عشرة من أشهر البلاء الفريج، وتم للمسلمين الاستيلاء على جيلدهم، ويشير إلى أنه رعم مشاهدته للمعركة من بدايتها إلى نهايتها فلم يصبه أي خطر لأنها كانت معركة برية فقط.

ويذكر ناجي قائمة مفصلة بأسماء من قتل فيها ، ومن أشهرهم الدبل يوحنا دي بورسليه والمارس كاستيليان دي بيوكيرييه .

ثم تعرض بالتفصيل للحظات وفاة لويس والوصية التي أملاها على ولده ومن الملاحظ أنه رعم حضور ناجي لحظة املاء لويس وصيته لاسه قليل إلا أنه لم يأت مجددا فيها عما ذكره غيره من شهود العيان. ومن المرجح أن اهتمام ناجي كان أوسع من التعرض لسيرة لويس الشخصية ، وأنه وضع نصب عينيه الأحداث العسكرية بتونس .

أما عن مؤلفه عن حياة الملك فيليب ابن لويس فلم يفرد له كتاباً مستقلاً بل ذكره في أعقاب سيرة أبيه لويس واستهله بوصف دقيق لرد الفعل الصليبي على وفاة لويس ومدى تعاون الصليبيين مع القائد الجديد، كما أورد نص الكلمة التي ألقاها فيليب على جنوده وكيف تمكن من حثوا شعبه ولم يحدث اضطراباً أو مؤامرات من جراء فقدان قائدهم .

كما أعلن مانجى صراحة رأيه في شارل كونه أمجو حين وصل تونس وأن مجيئه كان لتحقيق مطامع شخصية وليس لتصمة جنود الحملة، بل إنه ذكر أن شارل تظاهر بالحزن على أخيه ولم يكن صادقاً في ذلك، لأن حزنه الحقيقي كان على عدم وجود قوة عسكرية صليبية كافية في تونس تحقق له مأربه الخاصة ولم يجد مانجى عضاضة في التعرض لاستعداد المسلمين عسكرياً لمواجهة شارل بل أورد لنا صورة نابضة نابضة بالحياة عن العزائم البحرية البري المفلق الذي أعده المسلمون بتونس للتصدي لشارل وفيليب وذكر كيف استغل المسلمون فرصة موت لويس استغلالاً كبيراً لدرجة أنه صور لما حالة اليأس التي شعر بها شارل رغم جبروته وشراسته العسكرية بين ملوك غرب أوروبا، وأورد من العبارة التي قالها شارل للأمير إدوارد الإنجليزي مما يستعداد المسلمون لفتح كل شيء وغال في سبيل الفلاحين من الصليبيين،

ويرجع المؤلف مانجى الفضل في كشف النقاب عن دقائق الصراع بين شارل والمسلمين ، وبوعبة المعارك التي دارت بينهما إذا كانت معارك برية أم بحرية ، وأسمااء القادة في كل معركة، وعدد المعارك مع وصف دقيق للمعركة الثالثة والرابعة والعاشره والثانية عشرة، بل كان أبق من المؤرخين المسلمين في وصفه لمعطى التونسيين أنفسهم في القتال وأماكن معسكراتهم، وعدد المعسكرات التي بالجهال وبوعبة الهجوم، واستفادة المسلمون من طبيعة بلادهم، ولكنه كان يبدى دهشة في التغير المفاجئ الذي طرأ على الجيوش الإسلامية، ففي وصفه لمعركة من المعارك الاثنى عشرة لوصح كيف كان المسلمون في البداية مستعدين للهجوم مثل الرهوش الصارية، ولكن لمحات تقاعسوا ولم يلتحموا بالصليبيين، وكان دقيقاً للغاية في وصفه لمعركة جاي دي بوروا مع المسلمين ووصف أماكن المعركة ومفتحها وأسهب في إلقاء الضوء على رد الفعل لدى الصليبيين عندما أسر جاي بوروا ومدى حزنهم عليه لدرجة أن شارل كونه أمجو وهو القائد الأعلى للجيش قد ترك مقره الرئيسي وسار يطارد رد فلول المسلمين الذين أسروا بوروا ليطلق سراحه وألح إلى عدم خطئه حين أورد من العبارة التي قالها أحد النبلاء لشارل «سيدي لا بد من العودة فريما يكون هناك كمين قد أعده المسلمون لك»

وبالغ نانجي في وصفه لعند القتلى في هذه المعركة ، وجف ظمء في التعرض لقساثر الصليبيين ووجد ارتياحا في وصف حالة المسلمين بالضعف رغم أسرهم ليوزوا أعتى الفرسان الفرنج، ويصفهم أنهم فجأة وبغون مبررات هجموا خيامهم وفروا هاربين أمام الزحف الصليبي ضدهم. بل أكد أن العشل أصاب المسلمين في جميع خططهم، وأن التوسيعين اعتلوا الجبال هربا منهم، وأن البعض الآخر ركب سفنه للفرار من ميدان المعركة ، وقد تجلت هنا ثرعتة القومية وتميزه لبني جنسه لأن الأمور لم تتقلب رأسا على عقب فجأة وأن الحرب كانت سجالا بين الفريقين، وأن المسلمين كانوا حقيقة يحدثون تغيرات مفاجئة في خططهم ويصيبهم النقائص دون مبرر، ولكن ليس بالصورة القاتنة التي أوردها نانجي.

واسطر نانجي يذكر العديد من الوقائع والأحداث الأخرى التي لم يشر إليها غيره من المؤرخين الغربيين أو المسلمين . فقد أورد لنا القطة النقيطة التي وصعها كل من فيليب وشارل بنعيجن شارجيبيشر Chaurjinner وهو أحد كبار القادة البحريين ليكن على رأس مهمة قطع المئن عن تونس بممارسة أعمال القرصنة في البحر ضد جميع السفن المحملة بالأطعمة حتى يوم حصارها اقتصاديا. وصرح نانجي أن هذا لم يأت نتيجة إيجابية ضد المسلمين وأن المسلمين بقيادة ملكهم نفسه تمكنوا من فك الحصار عن طريق استخدام المئن المفرونة لديهم. وصور لنا قيادة المستنصر لاحدى المعارك انتقاما من الصليبيين ونوع الطبول التي دقت بإعلان قيادة تلك نفسه للمعركة . وكان وصفه رائعا لها ولوضح كيف أنها امتدت إلى الحقول والأراضي الحرية، كما صور لنا انتفاضة شارل والكوت اليسرى وملك نافار وعدد ضخم من النبلاء اللاتين للمواجهة العسكرية مع المستنصر ، ورغم اعتراف نانجي برجحان كفة المسلمين في تلك المعركة التي اشترك فيها القادة من الطرفين بأنفسهم إلا أنه سرعان ما يميل إلى بنى جنسه من اللاتين ويعلن رجحان كفة شارل وبيالغ في عدد من قتل من المسلمين في هذه المعركة، كما أورد نس العديد من المراسلات بين شارل والمستنصر في نهاية الأمر لعقد الصلح الذي كتبه بالغة اللاتينية ولم يأت بتطبيق على شروطه سوى أن شارل أثبت للجميع أنه كان يعمل لحسابه بعد حصوله على مكاسب عديدة من جراء هذا الصلح

وعلى هذا تبدو لنا أهمية كتاب نانجي في الكشف وبيقة عن تفاصيل هذه الحملة التي أوردها شئتة شأن غيره من مؤرخي العصور الوسطى في العرب والشرق على السواء. ويؤخذ عليه المبالغة في بعض الإحصائيات ولكن هذا لا يقلل من قيمة مؤلفه فقد كان مرآة انعكست

عليها أحداث ووقائع الحملة من منبعها الأصلي بفرنسا إلى تونس وحتى عودتها مرة أخرى إلى موطنها بفرنسا فكان يتفحص بعينه كل صغيرة وكبيرة ما يتعلق منها بالمسلمين أو المسيحيين سواء في تونس أو فرنسا أو خارجها مما أعطى لمؤلفه قيمة كبيرة تجعله في مصاف مؤلف جوفانيل عن حياة الملك لويس التاسع وخاصة أحداث حملته على مصر والشام. فقد نهج ناتجى نهجه في الاهتمام بعقيدة لويس السياسية والعسكرية إلى جانب الانشغال بفضائله وسجاياه .

ورغم ما ظهر وانفصا من تحيز ناتجى لبيى جلته، ومبالفته في بعض الإحصائيات كما أسلفنا وتناقضه في بعض الروايات ليطسفي على المسيحيين صفة البطولة ، إلا أن هذا لا يعطينا تحكم عليه بعدم الصديق، أو أن هذا هو طابع كتابه كله بل هي حالات فردية لا تمثل وجهة نظر عامة ولا تتكل من قيمة مؤلفه الأمر الذي يجعلنا معتبره موجدًا تاريخيًا نادرًا يبي مصاف المؤلفات العملية الأخرى فقد ابتعد عن السرد والروايات وبدون ما شاهدته بعينه وما نقله عن الغير رغم عدم ذكر اسم من نقل عنهم، إلا أن واقعيته في ذكر الأحداث التي شاهدها بنفسه جعلتنا نركن إلى صدق رواياته المنقولة عن الغير حول بعض التفاصيل من الصراع العسكري ودخل تونس. وقد أفدنا أيضًا من كتابه المصون "Chronique" وهو تاريخ زمني من عام ١٢٢٦ إلى عام ١٢٠٠م وكذلك كتابا مختصرًا أخر تحت اسم Croisade Ahergée وإن كانت المعلومات بهما لا تزيد عما جاء بكتابه الكبير عن سيرة لويس ولسته فلييب

وإذا كنا قد أفصنا في تحليل مؤلف وليم دي ناسجى لأهميته الكبيرة بالنسبة لموضوع بحثنا، فإن هذا لا يمنع من وجود مصادر أخرى لها قيمتها فيما نحن بصددته فهناك مصدر آخر له قيمة كبيرة بالنسبة لموضوع البحث وأهميته تعود فلفظ إلى مرافقة مؤلفه للويس في حملته على تونس وهو المارغ وليم دي شسارتر Guillaume de Chartres أحد الرهبان الدومينكان، وكان يعمل كاهنًا حاصلاً للويس^(١). وبطرا لمرافقته له في حملته الثلاث على مصر والشام وتونس فقد كنا منتظر منه المزيد من التفاصيل والوقائع عن أحداث الحملة على تونس. ولكن للأسف لقد انصب اهتمام شارتر على حياة سيده لويس وفضائله وسجاياه، وأغفل عيبه عن تفاصيل الصراع الدامي بين المسلمين والمسيحيين بقرطاجنة رغم أنه كان

شاهد عيان لكل هذه الأحداث. ولعل له في ذلك عنده . فقد كان معظم كتاب العصر الوسيط يهتمون بتمجيد سائتهم من أباطرة وملوك ونبوات أكثر من تسليط الضوء على الأحداث في عصرهم.

وكان كل ما جاء به لوصاية يوحنا الحزين بالمرض ثم موته وحزن لويس عليه ثم مرضه والساعات الطويلة التي أمضاها لويس بين الحياة والموت والعبارة التي كان يرددتها قبل وفاته «هيا إلى القدس» ولم يزد على هذا كثيرا سوى مقتطفات مختصرة عن أحوال المعسكر الصليبي بعد موت لويس وحتى عقد الصلح بين طرفي الصراع ثم الرحيل، وأبرز في ذكر الأحداث التي سبقت تولية فيليب قيادة الحملة وحتى وصول شارل كونه أسجو ، ولم يعط للصراع الدائر بينهم وبين المسلمين أي أهمية رغم أنه ظل موجودا يتونس حتى تم عقد الصلح بين الطرفين ورحل في صحبة الجميع . ولكن هذا ليس جديدا على كتابات شارتر فقد اتبع نفس الأسلوب في بداية كتابه حين تحدث عن حملتي لويس على مصر والشام فأغفل الجانب العسكري والسياسي ، واهتم بسيرة لويس وفضائله وسجاياه ، ويلاحظ عامة أن شارتر وغيره ممن كانوا مقرئين من الملك كان يروون لهم الاهتمام بالجوانب الشخصية في حياة لويس أكثر من عبقريته السياسية والعسكرية ومن هؤلاء أيضا جان دي جوفروا نفسه .

أما جوفروا دي بلييه Geoffroi de Beaulieu فهو أحد المؤرخين الغربيين الذين اهتموا بالكتابة حول الموضوع . وهو راهب دومينيكاني وأبو الاعتراف الشخصي للويس. فقد وضع تاريخه تقليداً لذكرى لويس بناء على وثائق البابا حريجوري العاشر في مارس ١٢٧٢م^(١)، ورغم اهتمام جوفروا بحياة لويس وفضائله وسجاياه خاصة أثناء حملته على مصر والشام حيث كان مصاحبا له فيهما، إلا أنه حين كتب عن حملته على تونس اختلف أسلوبه تمام، واتضح لنا اعتماده على وليم دي ناسجي في هذا الخصوص . خاصة أنه تعرض لتفاصيل سقوط قلعة قرطاجنة بنفس أسلوب ناسجي وأورد أن العقدة النفسية التي أصابت لويس بعد مرضه في مصر من أهم أسباب حملته على تونس. وكان ناسجي أول من روينا بهذا التحليل النفسي عن لويس وسار جوفروا على تربيته في التعرض للطوف الحرجة التي مر بها المعسكر الصليبي بسبب المرض الذي تقضى بين أفراداه وأسهب في وصف اللحظات التي كان لويس

ياقت فيها أنفاسه الأحيوية والعبارات التي كان يرددتها وكتب سطورا عديدة أعرب فيها عن مشاعره الأليمة لوفاة سيده، وأوجز في التعرض لحالة الجيش بعد وفاة لويس ، وأورد اشارات مقتضبة عن شارل وأطماعه في تونس وتعرض في النهاية لشروط الصلح المبرمة بين الطرفين ولم يلت بجيئد فيها بل عاد في نهاية مؤلفه وتحدث عن فضائل لويس وعبقريته الطيبة منه في ذلك مثل جوانغيل وشارتر ويبدأ مؤلف ماسحي والحلاصة أن جواروا هو الدعامة الأولى لخلاف وليم دى شارتر عن حياة لويس إذا جاءت مؤلفاتهما معا ذات طابع واحد ، باستثناء الأحداث القليلة التي نقلها جواروا عن نانجي فيما يتعلق بحملة لويس على تونس

يضاف إلى ما تقدم القوائم العاصمة بأسماء الفرسان الذين شاركوا في الحملة بمواء بالثغاسهم أو بمساعدات مالية وهي بعنوان *Liste de Chevaliers Croisés avec Saint Louis*

لمؤلف مجهول وقد كتبت باللغة الفرنسية القديمة ولها أهمية عاتقة بالنسبة لموضوع البحث إذ ألقت الضوء ليس فقط على أسماء الفرسان الذين شاركوا في الحملة بل تضمنت قوائم أخرى بالمبالغ وعدد الفرسان الذين ساهم بهم القبلاء في فرنسا ممن لم يشتركوا في الحملة بلثغاسهم وقد كشفت هذه القوائم عن تطور الروح الصليبية لدى هؤلاء بدليل مهاجمة لويس لهم في مواقف كثيرة ومطالبة لهم بالمزيد من المساعدات بل إنه كان يقول لبعضهم أنه ينتظر منهم الكثير، واتهم للبعض الآخر بالخذل والتقصير ومن بين شائيا سطورها يعرف كيف أن الملك لويس قدم لهم العديد من التسهيلات والمفريات بهدف تشجيع القبلاء لكي يتغنحوا بمساعداتهم ، وذلك بأن تكلل هو شخصيا بمعيشة بعض الفرسان من مأكول ومشرب وإقامة على نفقته العاصمة منذ رحيل الحملة من فرنسا وحتى عودتها الأمر الذي جعل هذه القوائم تتميز بأهمية كبيرة وبخاصة من الباحية الاقتصادية كما كشفت النقاب عن ضحايا الأمور بين الملك والقبلاء . وألقت الضوء على أحوال فرنسا اقتصاديا وضعف تأثير لويس على شعبه لأحياء الفكرة الصليبية من جديد والتي كانت أجدته في التقلص والإنكماش

ولايفوتنا في هذا المقام أن نذكر الكتاب المعروف بتاريخ الامبراطور هرقل^(١)

١- بعد كتاب تاريخ الامبراطور هرقل، ولعنقل أرمني ما وراء البحار، تبليلا لكتاب وليم الصوري صاحب كتاب تاريخ الأعمال التي ايجرت فيها وراء البحار

"A History of the deeds done Beyond the Sea"

وتاريخ هرقل لايزال بلغته الأصلية وهي الفرنسية القديمة ، أما مؤلفه فهو مجهول الاسم لأن أول صفحة من هذا الكتاب تبدأ بكلمة الامبراطور هرقل ..

وتتلو تاريخ الفترة من عام ١١٨٤ إلى عام ١٢٧٧م (٥٨٠-٦٧٦ هـ) أي أنه عاصر سنوات وأحداث الحملة على تونس .

وعلى هذا يمتاز بقيمة كبيرة فيما نحن بصدده ، فقد تتناول أحداث الحملة بالتفصيل ، ولكن دون النجول في ضمار الصراع الحقيقي بين الطرفين ، فتحدث عن استعداد أوروبا لها ، وأسماء من شاركوا فيها ، والعتلة وصولهم تونس ، واعتمد في رواياته هذه على وليم دي نابجي وجوفروا دي بلييه ، ومارينو سانانو *Marino Sanuto* . إلا أنه انعد بنكر روايات لم تأت في مؤلفات نابجي رغم تخصصه في الكتابة عن حملة لويس ضد تونس ، ويلاحظ أنه اعتمد فيها على ساباتو وبخاصة قديم سفارة مكونة من اثنين وثلاثي مارسا صليبي من الشام وعلى رأسهم أحد قادة الاستتارية لغازنة لويس في حملته ضد الشمال الأفريقي ، وكان لهم ضلع كبير في اتمام الاستتلاء على قلعة قرطاجنة بنجاح ، وقد تتاول هرقل أحداث الحملة من بدايتها والاستعداد لها ، وأحداث سقوط قلعة قرطاجنة بالتفصيل ، معتمدا في ذلك على وصف ثانجي . بل أنه نكر رقم الصلصات التي رجع إليه فيها لكنه لوجر في باقي التفاصيل العسكرية التي تتعلق بسقوط باقي المدينة ، ولم يهض في تفاصيل الصراع أو خطط لويس العسكرية ، كما امتثل مريعا إلى انتشار الرص بين الجند وموت يوحنا العزيز ثم موت لويس ووصول الملك شارل وثقائه مع الأمير ابولارد ولم يلت بيجيد لو بنكثر مما ذكره نابجي بهذا الصدد ، وبخاصة في شروط الصلح المبرمة بين الطرفين الصليبي والتونسي كما ذكر أسماء من تبقى على قيد الحياة من الملوك والأميرات المسيحيين . وذكر أسماء من ذهب ضحية المصمعة التي هبت على الأسطول في رحلة العودة ، وأن كان قد أخطأ حين نكر أن تيدالو فيسكوتى *Tidalò Viscounty* رئيس اساقفة لبيج كان من بين الملقدين عرقا ، لأنه من المعروف أن تيدالو عاد إلى بلاده واختير بابا تحت اسم جريجوري العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) .

وعلى لعدم يد تاريخ هرقل من المؤلفات الهامة التي عاصرت هذه الفترة من الزمن وتقلت بصديق وأمانة من شعور العار ، وكانت المادتنا منه واضحة .

وليفوتنا أن نذكر المؤلف النجبول صاحب الكتاب المعروف باسم قصائل القديس لويس التاسع "*Gesta Sancti Ludovici boni*" الذي استعرض فيه وصايا لويس لابنه فيليب بالإضافة إلى ثروات مفككة عن أبناء الحملة ككل ولم يلت بأي تفاصيل عن علاقة فيليب بالتونسيين وكل

ما ذكره لا يتعدى صفحة أو صفحتين عن أُنباء هذه الحملة وأُنصب اهتمامه على حياة لويس وعشاقه ومنحه ، دون التعرض لجهوده في مصر أو الشام أو تونس بل تتلوه باقتضاب لحظات وصوله تونس ومرمته ووصاياها لجليب ثم موته. ويعرف من هذا المؤلف أنه كان راهبا مدير القديس دينيس بفرنسا^(١) ومن القضايا التي انخرط فيها أنه أورد أسماء عدد من الصليبيين الذين وقعوا الصلح مع المسلمين بتونس ولم يرد هذا في مؤلفات الفريبيين، ولكن دون التعرض لأي تفاصيل تتعلق بالصلح وغيره من الأحداث في تونس .

وهناك تأليف أخرى انفردت بذكر أُنباء حملة الأمير إدوارد التي كانت تعد صلباً رئيسياً للحملة الصليبية التاسعة على تونس، ومنها حوليات «مآثر القنصاة» *Grans des Chepries* التي سلطت الضوء على أحوال إنجلترا ابل قيام الحملة وصراع الأمير إدوارد مع النبلاء الإنجليز الذين تقاعسوا عن مشاركته في الحملة وأشارت إلى الظروف التي دفعت إدوارد ليعمد بعملته من الشام إلى تونس أولاً وإن كان يؤخذ عليها أنها أوردت أن رحيل إدوارد كان في صيف ١٢٧١م / ٦٧٠هـ. وهذا عكس ما اشتهر بأن رحيله كان في حريف ١٢٧٠م / ٦٦٩هـ . وعلى العموم فقد أفدنا من هذه الموليات فئحة كبرى فيما يتعلق بأخبار حملة الأمير إدوارد سواء في تونس أو حين عودته إدوارد مع باقي قلول الحملة إلى صقلية ، أو حين هاجم بلاد الشام وفشل في تحقيق أي مكاسب دبلوماسية لإنجلترا ، وعلاقة إدوارد بالصليبيين وبييرس في بلاد الشام وتعرض لمحاولة الاغتيال من قبل الشمشبية وعميته إلى إنجلترا بعد وفاة الملك هنري الثالث والاضطرابات السياسية داخل بلاده والتي كان عليه أن يتعاملها حتى يصيب ملكاً على البلاد .

كذلك أفدنا كثيراً من «حوليات الأراضي المقدسة» *Annales des Terrs Saint* التي نشرها رهرشت Rohricht وريو Reynaud وذلك فيما يتعلق بشيء الحملة على تونس هامة، وحملة الأمير إدوارد بصفة حاصدة وقد نشرها رهرشت تحت اسم حملة الأمير إدوارد الصليبية لها " Croisade de Prince Edward "

ولانتمى في هذا المقام مؤلف ولیم دي سان باتوس Guillaume de St. Pathus^(٢) في حياة

١- Hichard, Crois., VI, p. 302 ج .

١-

٢- لقد وضع سان باتوس تاريخه في لويس بناء على رقبة لسته ملاش وكان معلم اسراف لها ولاهما

ماجريت انظر Hichard, Op. cit.p. 198 وأيضاً جوزيف نسيم العنوان الصليبي على بلاد الشام ص ١١

القديس لويس وهو معلم اعتراف الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع ، حيث تناول فيه أحوال فرنسا وقت الحملة، والتزويجات التي أقربها لويس في بلاده قبل رحيله ، وعلاقته بزوجته مارجريت، ونفقه لصداتها وحلقها في الميراث ، وعلاقته بسات الغير متزوجات ولم يهتم سائ باثوس بالمواهب السياسية والعسكرية للمنطقة بلويس أثناء إقامته بقويس قدر اهتمامه بحياته الشخصية.

أضف إلى هذا وجود مجموعة أخرى من الكتاب العربيين ممن عاشوا هذه الفترة وكتبوا عنها ومنهم ويجلر Wiczygler ووليم دي باورا Guillaume de Prouba وتاريخيا رميا تحت اسم Chronicon Girardi de Chreni مؤلف مجهول وتاريخيا زمنيا تحت اسم "Chronicon Girardi de Chreni" مؤلف مجهول. فقد أمدنا بمعلومات قيمة على مدى صفحات هذا البحث.

كذلك أمدنا كثيرا من مؤلف متى لوف وستيفنستر -Mat of Westminster Flowers of Lis- وهو من المؤرخين القدامى، الذين سلطوا الأضواء على أحوال إنجلترا بصفة عامة وحملة الأمير إدوارد إلى شمال أفريقيا ثم بلاد الشام بصفة خاصة.

هذا عن المصادر الأصلية الأوربية من لاتينية وفرنسية قديمة، أما المصادر العربية من خطية ومطبوعة ، معاصرة وغير معاصرة ، فهي تكتفي في المقام الثاني من حيث الأهمية بالنسبة لدقائق وتفصيل الحملة. فرغم أهميتها بالنسبة للأخبار المتعلقة بأحوال العالم الإسلامي عامة وبلاد العرب على وجه الخصوص فقد أوضحت عن الصراع الدائر بين مختلف القوى السياسية ببلاد المغرب وتونس آباء الفترة الزمنية موضوع الدراسة ، ويرجع هذا إلى نظام التدوين التاريخي عند المؤرخين العرب في العصور الوسطى، حيث أنهم لم يتخصصوا في الكتابة في موضوع مستقل قائم بذاته بل اتبعوا طريقة السرد الحلوى في الوقت الذي تقدم فيه فن الكتابة التاريخية في أوروبا . وكتب المؤرخ العربي في موضوعات متكاملة مما يشغل عقل الباحث في موضوع يعينه بالإضافة إلى أن مؤرخينا اتبعوا عادة النقل عن غيرهم لذا لم تختلف المصادر عن بعضها كثيرا ، بل وجدنا الخبر الواحد قد ورد نكرو في أكثر من مصدر لوزن شحيح أو تنقيح ومنهم من كتب اسم من نقل عنه ، ومنهم من لم يذكر هذا عمدا أو عن غير عمد. هذا ، بالإضافة إلى وجود العديد من الروايات في بطون هذه المصادر نقلت عن أصول مفقودة ولم تصلنا فحفظها لنا الرمن من العبث والضياع

ولقد أمدنا تلك المصادر بمادة من الطراز الأول عن صراع القوى داخل تونس إلى أن

انتهى الأمر بتسلط الحفصيين على الحكم . وسلطت الصوة على سياسة المستنصر اللتوية ، وخبايا الأمور المتعلقة بلفادفه ومآزيره الخاصة، الأمر الذى وصع هذه الأحداث فى ميزان حساس، تأرجحت على أثره أحوال الحملة. كما تبين نتائج الصراع بين القوى الإسلامية والصليبية داخل قرطاجنة أما فغانق وتفاصيل الحملة لو ذكر أخبار جديدة منها لهذا ما لم تزويدنا به المصادر العربية.

وسوف نقسم المؤرخين العرب الذين تناولوا موضوع الحملة وأحوال العالم الإسلامى آنذاك إلى مؤرخين مغاربة وغير مغاربة ، وسوف يكون تحليلنا لمؤلفاتهم طبقا لأهميتهم بالنسبة للموضوع لأحسب تسلسلهم الزمنى.

ويأتى ابن خلدون^(١) على رأس المؤرخين العرب المغاربة الذين اهتموا بالكتابة عن الحملة بصفة خاصة، وأحوال المغرب وتونس عامة، حيث أفرد صفحات عديدة عنها فى مؤلفه «العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من نوى السلفان الأكبر» وقد استهل حديثه عنها بالتعرض لأحوال فرنسا، وشهرة لويس التاسع من ملوك هرب أوروبا، ومكانة فرنسا بين دول العرب وديورها فى الحركة الصليبية الموجهة ضد قوى الإسلام بصفة عامة، وحملتها على تونس بصفة خاصة، وتعرض ابن خلدون لأولى حملات لويس ضد المسلمين وهزيمة بمصر وقال إن تلك الهزيمة هى أولى الأسباب المباشرة للحملة على تونس انتقاما من المصريين ، على أمل الزحف من تونس برا ويمرا لمعاودة الكرة فى احتلال مصر وتحقيق باقى الأملامع الصليبية . وأوضح أن الأسباب النيشية لتلك الحملة هى أسباب واهية والحقيقة تكمن فى مطامع للصليبيين الاقتصادية فى معاهل شمال أفريقيا . وانفرد ابن خلدون بذكر سم

١- يتشعب عبد الرحمن محمد بن خلدون إلى بنى خلدون الذين قدموا من اليس واستقروا بمدينة أشبيلية بالأندلس وكان جد ابن خلدون يعمل فى ديوان بنى حفص، فكان للنشأة ابنه محمد فى بلاط السلطان العفصى أثر كبير فى تحميله العلم مما تركه أبىه على ابنه عبد الرحمن الذى انصب اهتمامه على دراسة الفقه العربية وطومها . وكان لاكتناظه بكبار الساسة والمعتن، والنفهاء سببا فى بروز توجهه فى دىا السياسة متوتس . وبعد كتابه «العبر» من أعمال ما كتب عن تاريخ العرب والعجم والبربر، وركنا أساسى فى دراسة تاريخ المغرب . وقد قام بأعداده فيما بين عامى ٧٧٦-٧٨٠هـ / ١٣٧٧-١٣٨١م . كما كان لرحلته من تونس إلى مصر فائدة عظيمة بالنسبة له . وفرصة لزيادة متاع أصول طقه وتراثاته وبهجته من مؤلفه الجرد السادس وقد رجعتا إليه من طبعة برلاق عام ١٩٨٤ . انظر عبد العزيز سالم : المغرب الكبير، ص ١٠٢.

الوزير النوبسي وهو القبالي الذي أعده المستنصر قبل أن يرد حقوق التجار الفرنسيين عليه، ورفض المستنصر هو الآخر أن يطيع خاطر هؤلاء التجار أو يرد إليهم أموالهم. واعتبر ابن خلدون أن هذه الرواية ضمن أسباب الحملة الغير مباشرة والتي تنزع بها الصليبيون لهاجمة تونس .

وأسهب ابن خلدون في الحديث عن الاستعداد للحملة وتأييد البابوية لها وأسماء من اشترك فيها من الملوك والأمراء. وصور لنا بوضوح الاستعداد العسكري داخل تونس وجزر مصر في شحذ همم المغاربة لمقاومة المستنصر . وألح إلى خبث ودهاء لويس في الاستيلاء على أموال دفعت له بطريق الرشوة كيلا بهاجم تونس وجانبه الصواب في تعرضه لحط سير الحملة حيث ذكر أنه بعد رحيلهم من مينا أجمرت تجمعوا مرة أخرى في صقلية . وهذا عكس ما أورده المؤرخون العربيون المعاصرون أمثال بانجى وغيره. من أن مكالم التجمع هو سريليبيا وتعرض بجرأة إلى سياسة المستنصر المتوترة وخبثه في معالجة الأوضاع المتعلقة بمصير تونس وقت وصول الحملة، وتربده في اتخاذ القرارات التي أجمع عليها أهل الشورى من الموحدين وأمراء الأساس. وزينا بصورة نابضة بالحياة عن تظاهر المستنصر بالموافقة على رأى الأغلبية في إخلاء في ترك العدو يهزل تونس لكي يتصيده بعد ذلك في الوقت الذي كان يعمل فيه في الحفاء لتحقيق أشياء أخرى في نفسه. ويعد ابن خلدون المؤرخ الوحيد الذي جسد لنا أحداث المعركة التي دارت بين التوسيين والمسلمين بقيادة يعقوب بن صالح، وحدد موقعها، والتحصينات التي أقامها الصليبيون بالمدينة ومعاولتهم في ترميم الصدع الذي كان واحدا في أسوار قرطاجنة كما تتبع بدقة أحداث هذه المعركة هي تقدم يحيى ومعه جمع ضخم من رعاء قبائل سنوكش ووينصة وهوارة حيث دارت رحى معركة قتل فيها عدد ضخم من الفريقين المسلم والمسيحي. وصور لنا أحداث تهديم الحسيق الذي بناه الصليبيون والذي كان ذا عمق كبير، وشاطئ القتلى المسيحيين فيه. ولم يبالغ في عدد قتلائهم ليظهر التوسيين بمظهر البطولة، بل أورده رقما معقولا وهو خمسمائة قتيل . كما اتهم ابن خلدون في رواية أخرى المستنصر لهروبه من ساحة القتال إلى القيروان تاركا شعبه في أمس الحاجة إليه . وكان بقيقا في تعرضه لأسماء القادة التوسيين الذين شاركوا في الجهاد والوحيد الذي اُسفر بهذا ولكنه أعلن دور الفقهاء ورجال الدين في شحذ همم الناس على القتال أثناء المعارك الدائرة أو قبل وصول الحملة، ولم يسهب ابن خلدون في التحديث عن المزيد من هذه المعارك التي تمت بين الطرفين قبل وفاة لويس، بل

تعرض فجأة لموته، وأورد أسباب أخرى لوفاته غير تلك التي فكرتها المصادر الاجتنبية . فقد انفرد يروية تقول «أن المستنصر قد أرسل إليه ابن جرام الدلامي وطعته بسيف مسموم . وفي رواية أخرى قال أن لويس أصابه سهم طائش فقتله . ويعود في رواية ثالثة وبنوه عن أصابته بوباء أدى إلى موته. ولأنه لم يكن أباه وأصما ومحمدا بشأن هذه القصصية . كذلك أغض ابن خلدون عييه عن المزيد من الأخبار المتعلقة بالعسكر الصليبي مثله في ذلك مثل باقي المؤرخين المسلمين، فلم يعمدنا عن انتشار المرض بين صفوف الفرنج أو عدد موتاهم مثلما فعل المؤرخ الغربي.

كما أنه أخطأ حين ذكر أن الذي تولى قيادة الصليبيين بعد موت لويس هو ابنه الذي ولد بمدينة لأن الذي ولد هناك هو يوحنا الحزين وقد مات قبل وفاة أبيه . ويرجح ذلك الخطأ إلى وجود بعض الروايات التي ربما يكنى ابن خلدون قد نقل عنها والتي ذكرت أن اسم الذي ولد بمدينة هو فيليب وليس يوحنا . كما أغفل ابن خلدون الفترة الهامة من تاريخ الحملة. منذ وصول شارل كويت أنجو رغم تراحم المواقف خلال هذه الفترة القصيرة ، وتزايد عدد المعارك بين الطرفين خلالها، ولكنه مر عليها جميعا مرور الكرام، بل أورد أن الصلح تم مباشرة في أعقاب موت لويس . وأغلظ نور شارل العسكري في الأحداث ، واعتبره فقط ممثلا عن جيوش الحملة لإبرام الصلح.

وقد انفرد ابن خلدون بون غيره من المؤرخين المعاصرين ، بذكر أسماء كل من حضر مع المستنصر في توقيع الصلح وهم ابن زيشون وأيو الصمن علي بن عمرو وأحمد ابن العماز وزيد بن محمد بن عبد القوى أمير بني توجين . كما موه عن أطماع شارل الفاضلة في تونس ، وكيف أنه اقتنص الفرصة وضمن لنفسه مزايا وصالحا خاصا ببلاده. وكان دقيقا في ذكره لتاريخ عقد الصلح ومبته ، وإن كان قد أخطأ في تحديد المدة الزمنية التي أمضتها الحملة في تونس فنذكر أنها ستة أشهر وهذا عكس ما أشتته في الفصل الخامس من أن مدة الحملة كانت فقط ثلاثة أشهر وانتهى هشة يوما .

وتتبع ابن خلدون الآثار التي ترويت على رحيل الحملة من تونس ، وهم قرطاجنة وتشيوتها بالأرض حتى لايعاود الصليبيين الكرة عليها من جديد. كما تلقى الصوره على أحوال الغرب الأروبي بصورة دقيقة ولكن مختصرة وأوضح كيف اضمحطت الفكرة الصليبية في نفوس الجميع، وألح إلى انتشار شارل بمصالح بلاده وانصرافه عن فكرة مناوئة المسلمين من جديد،

الأمر الذي يجعل لمؤلفه قيمة كبيرة قد لا نجد لها في المكتبة التي أرسلها أبو زكريا للصالح نجم الدين أيوب بهذا الشأن . واضرب هذا المؤرخ بالتعرض لاحتمال وجود أمراض معينة بتونس ، ونذكر أن هذا كان ممكنا قبل مقسم الحملة إلى تونس باثنتي عشر عاما حين سقطت بغداد في قبضة المغول، وتزايد عدد القتلى الأمر الذي أدى إلى انتشار الأوبئة التي انتقلت بدورها إلى تونس.

أما ابن القنفذ صاحب كتاب « الفارسية في مبادئ الدولة العنصرية » فهو الوحيد بين المؤرخين المعاربة الذي أتى برواية اتهم فيها المستنصر بالتعادل في النطاع عن بلاده حين قرر الهروب إلى قسنطينة أثناء معصية الصراخ مع الصليبيين واختطف في هذه الرواية مع ابن خلنون الذي فكر أنه قرر الهروب إلى القيروان .

وأعلن صراحة أن المستنصر كان يعد لهذه الخطوة من قبله وهو الرحيل إلى قسنطينة مع أهله وعاشيقه ، دليل شعبي بالحبوب والمؤن، ويميل تماما إلى الأحاد بهذه الرواية ، نظرا لأن قسنطينة هي موطن ابن القنفذ الأصلي . وما كتبه عنها جنير بالملاحظة والاهتمام، كما كان ابن القنفذ هو المؤرخ الوحيد الذي انفرد بذكر اسم الرسول الذي بعثه صاحب تونس إلى بيبرس، وهو محمد بن الراسي، ليبرر له فعلته الشنيعة في عقد الصلح مع الصليبيين، ولكن لم يأت بسبب الرسالة أو حتى مضمونها بل أرجع مهمة الحصول على نصها من الكتاب المتوكلي الكبير ولم يسن لنا معرفة شيء عنه أو عن مؤلفه . ولعله فقد ولم يصلنا .

ويؤخذ عليه أنه لم يأت بأي تفصيل حول الصراع الدائر بين الطرفين المسيحي والإسلامي بل مر على أحداث الحملة بصورة سريعة مختصرة ومع ذلك كان دقيقا للغاية في التعرض لتاريخ وصولها تونس، وتاريخ عقد الصلح، والمدة التي قطعتها الحملة وتاريخ وفاة المستنصر . هذا بالإضافة إلى أنه أغضض عينيه عن الحوادث الأليمة التي مرت بها تونس وقت الحملة والحقائق المشينة التي تتعلق بشخص المستنصر . والتي تشوه صورته أمام الحكام المسلمين. فقد أغفل ذكر هذه الحقائق، وأظهر تعصبه لسي جانيه المغاربة ، وغلبت العاطفة على بعض كتاباته ، ولو أنه تطرق إلى هذه الموضوعات في حيدة تامة خاصة ما يتعلق منها بزمان وأحداث الحملة بعد وفاة المستنصر، والصورة الحية التي أوضح فيها صراخ القوي في تونس مد عهد الوثائق يحيى بن المستنصر وتناوله عن الحكم لعمه أبي اسحاق ، إلى أن تنتهي مؤلفه بمرحى سريع لعصر الضعف الحفسي وسقوط الدولة الحفصية في النهاية . وليس ثمة أي جديد في روايته المتعلقة بعصر الضعف ، منه في ذلك مثل غيره من المؤرخين المقنعين به زميا .

وبعد الفيريني (٧٠٤ هـ - ١٢٠٤م) من أهم مؤرخي القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي)، وخاصة بالنسبة للفترة موضوع البحث، وكتابه «عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء» بجاية رغم أنه كتاب جامع لسيرة كبار العلماء والتاريخ والعقائد في عصره، إلا أنه أمثنا بمادة ممتازة عن أحوال تونس في عهد المستنصر الحفصي، وذلك من خلال تعرضه لسيرة كبار الشخصيات السياسية والعلمية ممن كان لهم دور بارز في نظام الحكم وسير الأمور في دولة المستنصر. واتسمت رواياته بالواقعية، خاصة حين كشف النقاب عن رد الفعل الحقيقي لدى الشعب التونسي تجاه الصلح مع الصليبيين، وأصبح عن سياسة المستنصر وتسلمته على شعبه مبينا أنه لم يكن يحترم رأي العامة أو الخاصة من النجوم، وذلك من خلال ترجمة الفيريني لسيرة الفقيه أبي القاسم أحمد بن عثمان بن مجلان القيسي. فقد أوضح في رواية مفصلة كيف حاول المستنصر إجبار أبا القاسم على شهادة الصلح دون تقديم أي مجبرات لهذا، واعتبر قراره مرسوم سلطاني نافذ لا يقبل للمناقشة. وقد كان لهذه الروايات وغيرها من الشواهد المثيرة في مؤلفه هنا وهناك عن سوء حكم المستنصر والتواء سياسته ولها أثر كبير في التعرف على أحوال البلاد في هذه الفترة الحرجة من تاريخها.

ولايفوتنا في هذا المجال أن نذكر أهمية مؤلف ابن أبي دينار^(١) «المؤنس في تاريخ أفريقيا وتونس»، وهو عبارة عن تاريخ جامع لأفريقيا عامة وتونس على وجه الخصوص. وقد اعتمد ابن

١- هو أبو عبدالله محمد بن أبي دينار القيرواني، ولايعرف عنه الكثير سوى أنه عاش بالقيروان فترة ثم رحل إلى تونس ويشير الفاضل إلى عدم معرفته بتاريخ مولد أبي دينار أو وفاته ولكن كل ما يذكره أنه كان على قيد الحياة في أولقرن القرن العاشر هجرى (أولقرن القرن السابع عشر الميلادي). ويؤكد أشيخ مخلوف في كتابه «شجرة النور الزكية» أن ابن أبي دينار كان موجودا على قيد الحياة عام ١١١١ هـ / ١٦٨٩م وقد اعتمد ابن أبي دينار على اليركشي في مؤلفه «تاريخ الموحدين والحمصية» وابن الضماح في مؤلفه «الأئمة البنية النورانية» على مفاهيم الدولة الحمصية، ويعرف عنه أنه تولى بعض المطبوعات الخدمية اسمية مثل قضية سوسة والقيروان وكان أميناً له العديد من المؤلفات منها «نظم لنوع الخيرة والصلح» بضم لولقرن الشفا» وأيضاً كتاب «رسالة العقيد في الغرور الأنيق في مجازاة التكرار وأحوال الصالحين والعقيد» وكتاب آخر في الإناب تحت اسم «هداية المنعم»، وللمزيد انظر ابن أبي دينار المؤنس، تحقيق محمد شعاع، ص ١٠٠.

أبي دينار في أغلب الموضوعات التي رواها في مؤلفه على ابن الشماخ والزرركشي وعدد من الشيوخ والفقهاء الذين عاشروه . وقد ألقينا منه كثيرا في التعرف على أحوال تونس إبان الحملة، حيث استهل كتابه بفترة حكم أبي زكريا الحفصى، وأهم إنجازاته الحضارية في تونس، والظروف السياسية التي صاحبها تولية المستعمر بعد وفاة أبيه، كما ألقى الضوء على أخبار الحملة بشكل موجز، ون التعرض لأى تفاصيل سياسية أو عسكرية وكل ما سجله والأسباب التي دفعت لويس للتوجه إلى تونس. وشيئة شلى غيره من المؤرخين أوجع سبب الصلة إلى عامل نفسى يعود للويس التاسع نفسه لكثرة من المسلمين بعدما أمين بمصر ولكنه انغرد بذكر رواية أخرى تعد من الأسباب الشخصية للحملة ضد تونس معادها ، أن المستعمر حين ذكر أمامه اسم لويس متهم عليه وقال هذا الذى أسره الأتراك فغضب لويس عندما علم بذلك وعزم على أخذ تونس . عموما لم يأت ابن أبي دينار بهديد فى هذا المضمار بل يتضح تأثيره برواية وأسلوب ابن الشماخ . وقد اشتمت روايته بالصدق خاصة فيما أورده عن زمن وصول الحملة ومماتها وتاريخ موت لويس وقد تعرض ابن أبي دينار لأسباب أخرى حول موت لويس غير الوا . وأيد رواية ابن خلدون فى احتمال تعرض لويس لمحاولة قتله بسهم مسموم .

وكى على صواب فى ذكر مدة وتاريخ الصلح وفيما عدا هذا من أخبار هامة عن تونس بصفة خاصة أو المغرب بوجه عام فقد ألقنا منه على امتداد صفحات البحث

أما ابن زرع (ت فى منتصف القرن الثالث الهجرى / أواسط القرن التاسع الميلادى) فقد أعدا مله بصورة كبيرة وذلك من خلال مؤلفه «الأنيس المطرب برويض القرطاس فى أخبار موك المغرب وتاريخ مدينة فاس»^(١) . لقد وجه عناية كبيرة لأحوال بلاد المغرب قبل الحملة على تونس بسنوات قليلة، مما ألقى المزيد من الضوء على طبيعة العصر الذى قامت فيه الحملة إذ تناول تاريخ الدول ابتداء من الدولة الإدريسية حتى عهد الخليفة عثمان بن يوسف يعقوب بن عبد الحق الإدريسي أى حتى عام ١٢٢٧م / ٦٢٧هـ . لذا فهو سجل دقيق لهذه الدولة التى

١- هو أبو الحسن بن علي بن عبد الله بن أبي زرع ، ولا تعرف الكثير من حياته سوى أنه من أسرة هريفة فى فاس وكتابه جامع لأخبار الدول المغربية سياسيا وحضاريا منذ الدولة الإدريسية وحتى عام ١٢٢٦هـ / ١٢٢٧م . وقد عني بنشره نور جرج Torroberg عام ١٨٦٠ ثم نقله الأستاذ أسروسو لويش إلى الإسبانية فى ١٩١٨م إلى أن تم طبعه فى الرويل عام ١٩٢٦ وهو طبعة غير كاملة . انظر عبد العزيز سائق المغرب الكبير، ص ١١٤- ١١٥

عاصرت مجرى العملة وهي الدولة المفضية . وقد اهتم بلندائها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . أما عن العملة على تونس، فمما يؤسف له أنه مر عليها سريعا وتناولها عرضا أثناء تناوله أحداث الفترة من عام ٦٦٥-٧٢٢هـ / ١٢٦٤-١٢٢٢م وقد جانيه الصواب في تحديد يوم وصول العملة، وذكر أنه في شهر ذي الحجة ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٦٧م والحقيقة أنه في ٢٣ ذي القعدة ٦٦٨هـ / ١٨ يولييه ١٢٧٠م من نفس العام، كما زودنا بصورة دقيقة عن استعادة الفرج من أعمال المستعمر في تحصين سواحله ضد العدو، ولكنه لم يكن دقيقا في تحديد وقت وفاة لويس حيث ذكر أنه توفي في ٢٥ ربيع آخر ٦٦٩هـ / ١٢ ديسمبر ١٢٧٠م وهذا عكس ما أورده المؤرخون الغربيون المعاصرون من أن وفاته في ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٤ محرم ٦٦٩هـ . وعلى هذا كانت افادتنا من هذا المؤلف قد اقتضت على الإطار السياسي لأحوال بلاد المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص ، ولم نستقد منه فيما يتعلق بتدصيل العملة أو أحداث معاركها .

يضاف إلى ما تقدم كتاب «الطل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية» لمؤلف مجهول^(١) حيث أفضنا منه كثيرا في التعرف على تاريخ المغرب في عصر الموحدين خاصة . كما أنه يمتاز بدقة أخباره ومصحتها وخاصة ما يتعلق بصراع القوى السياسية على الحكم قبيل مجيء العملة على تونس والتطاح بين العلفاء إلى أن انتهى الأمر بسقوط دولة الموحدين . وهو مصدر قيم عن أحوال المغرب . وأسلوب العرب والقتال المتبع آنذاك وموعية الأسلحة التي كان الموحدون وريثهم يستعملونها أمثال بنو حفص بحكام تونس وقت قدوم العملة . ومما يؤسف أنه لم يتعرض في ثنايا مؤلفه لأخبار العملة على تونس .

١- ذكر صاحب الطل أنه انتهى من تأليف هذا الكتاب عام ٧٨٣هـ / ١٢٧٠م في عصر محمد الفتي بالله سلطان غرناطة وأبي زيد بن أبي الحسن المريني سلطان المغرب واعتقد في مؤلفه على مصدر معاينة بها مؤلفات ابن الصيرفي وعبد الله الهكري وأبي بكر الصنهاجي الذي أفاد منه كثيرا في الكلام عن أخبار دولة الموحدين وقد عني بنشر هذا الكتاب المستشرق الأسباني امبروسيو اوميثي خيراندا، وذلك باللغة الانجليزية بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجبرال فرائكي، وذلك عام ١٩٥٢ . أما «الطبعتان اللتان ظهرتتا قبل ذلك في تونس عامي ١٩٦٠، ١٩٦٦م فهما مليئتان بالأخطاء والتعريف . وللمزيد انظر عبد العزيز سالم المغربي الكبير، ص ١١٠ .

أما الزركشي^(١)، فعلى الرغم من أنه تاريخ جامع للمغرب العربي من القرن السادس وحتى القرن التاسع الهجري من (١٢-١٥م) إلا أنه لم يتعرض لأحداث الحملة من قريب أو بعيد، بل تعرض لهذه الفترة من خلال ترجمته لسيرة المستنصر وبيعته وأهم أعماله وعلاقاته بخصومه وجيرانه، ثم وفاته وإثنا فهو أشبه ما يكون بكتب السير والتراجم ولكن لا تذكر أفادتنا منه في التعرف على أهم الأحداث السياسية التي عاصرت سقوط دولة الموحدين وتوطيد حكم الحفصيين في تونس، مما كان له قيمة في الكشف عن أحوال المغرب عامة وتونس على وجه الخصوص زمن الحملة

ولا يلوئتنا في هذا المكان أن نشير إلى أهمية مخطوط «المنهل الصافي» والمستوفي بعد التواهي لابن ثوري بردي (٨٧٤هـ / ١٤٥٤م)^(٢) أهم مؤرخي القرن التاسع الهجري (القرن الخامس عشر الميلادي) لقد تعرض بالتفصيل لأهم أسباب الحملة وذكر أن الأمم النفس داخل لويس من جراء ما حدث له بمصر كان من أهم أسباب حملته ضد تونس، كما علل سبب مقصده تونس أيضا بأنه يعود إلى هدف عسكري استراتيجي يتعلق بتطويق مصر برا، ويصرح أن نملك تونس، ولكنه لوجز عندما تعرض لأخبار نور الدين الفرنج بقرطاجنة، والتفصيل الصراع بين الطرفين، بل جانب الصواب في تحديد زمن وصول الحملة وأورده تحت عام

١- هو محمد بن إبراهيم بن التازي الزركشي عاش في القرن التاسع الهجري وقد سمي بالقلز نسبة إلى جده وهناك روايات تكيد بأنه ملوك مهندي الأصل بتونس وسلك في تكوين هاتكة وتسمية ابنائه على أسماء لتونس، وشهد فترة الضعف والتمزق الممضي وابع الزركشي في كتابة التاريخ في عصر الاضمحلال والتدهور الفكري في تونس ومن أهم مؤلفاته «تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» موضح التمامية، وهي قصيدة مدح أرسلها شاعر مصري يقال له بدر الدين محمد التمامي السكتري في مدح الحليفة أبي العباس أحمد الحفصي أما وفاة الزركشي فيرجع أنه لم يكن موجودا بعد عام ٨٩٤هـ / ١٤٧٤م وقد عني بنظر وتحقيق كتابه من الدولتين الموحدية والحفصية الكاتب محمد مامور عام ١٩٦٦ أمقر الزركشي تاريخ الدولتين ص ٢٠٥.

٢- هو جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن ثوري بردي توفي عام ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، وله العديد من المؤلفات، ومنها «المجزم الزاهرة» الذي تناول فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي (سنة القرن الأول وحتى القرن التاسع الهجري) وقد نشرت دار الكتب المصرية الأجزاء من ١-١٢ في الفترة من ١٩٢٩-١٩٥٦ أما المنهل الصافي، فهو مخطوط لم ينشر بعد.

١٦٦٠هـ / ١٦٦١م. وأخطأ أيضاً في تحديد تاريخ وفاة لويس وأوردتها تحت عام ١٦٦١هـ / ١٦٦٢م. وقد اعتمد على ابن مطروح في ذكر الأبيات الشعرية التي ذكرت وقت وصول العملة إلى كل من مصر وتونس كما أمدنا بعرض ممتاز لسيرة المستنصر العفصى كما أمدنا كثيراً من مخطوط «نثر الجمان» في تاريخ الأعيان «الفقيومي» (ت ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) (١)، حيث أمدنا بمادة قيمة عن أحوال بلاد المغرب وتونس قبل الحملة، وصراع القوي الثلاثة ورتبة المؤيدين وهم الحفصيين، وبنو مرين وبنو عبد الواد. وأثر ذلك على أحوال تونس داخلياً، كما أورد عرضاً قديماً حول سيرة المستنصر، وعدم التزامه بالكلمة مع خصومه وتقديره بقلقيته والمقربين منه في سبيل الانفراد بالحكم لنفسه واعتمد في هذه الأخبار على اليبوس في مخطوطه «نيل مرآة الرمان» وأمدنا بصورة رائعة عن علاقة المستنصر بالعربان وجماعات التملوط، وحمية الحفصيين والمجذور، وصراع أبي دبوس على الحكم ولكنه أفلح تماماً أخبار الحملة بل اشغل عندما تعرض لأحداث عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بالأحداث التي ترتبت على سقوط دولة الموحدين ومقتل أبي دبوس، مما أضاع علينا فرصة التعرف على المزيد من الأخبار المتعلقة بالعملة والاستفادة من أسلوبه التفصيلي الدقيق في سرد الأحداث المحيطة بتونس في تلك الفترة من الزمن.

وأمدنا أيضاً من مخطوط العيني «عقد الجمان» في تاريخ أهل الزمان» (ت ٨٥٠هـ / ١٤٥١م) فقد أسهب في الحديث عن أحوال مصر وقت الحملة على تونس ومدى استعجال الطاهر بيبرس لها سواء في مصر أو بلاد الشام، والمجد الذي قسمه لتونس كما أورد لنا قائمة بأسماء الملوك المسيحيين الذين اشتركوا في الحملة، وأثر الصراع الدائر بين بيبرس والمغول على سير الأحداث في تونس، ومدى ارتياح بيبرس لحجز وفاة المستنصر. وألقى الضوء على الصراع الدائر بين الصليبيين وابن الأحمر سلطان الأندلس، وغازات التتار على القسطنطينية وعلى الرغم من أنه لم يتعرض لتفاصيل العسكرية الخاصة بالصراع الدائر بين الصليبيين والتونسيين، أو التحديد الزمني للحملة إلا أننا لا ننكر اهتمامنا منه في مواضع عديدة من البحث وبخاصة في التعرف على أحوال العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه أيام الفترة الرمنية موضوع الدراسة.

١- هو أحمد بن محمد بن علي الفقيومي ومخطوطه «نثر السار» عبارة عن مجلدين المجلد الأول يبدأ من عام ١٢٢٣هـ / ١٢٢٤م وينتهي عام ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م، وهو لم ينشر بعد.

كما أتدنا من مخطوط «تاريخ الدول والملوك» لابن الفرات (٩٠٧هـ / ١٥٠١م) فبالرغم من عدم معاصرته للأحداث ، إلا أنه أمدنا بمادة قيمة عن الحملة . من حيث أسبابها واستعداد تونس لها عسكريا واقتصاديا وبعد الجيش الصليبي الذي تكونت منه والمراسلات التي تمت بين المستنصر وبينرس لابن الحملة، ويؤخذ عليه عدم ذكر مضمون الرسالة التي بعث بها السلطان بيبرس إلى المستنصر يعلمه بقوم الحملة على بلاده وإن كان قد تعرض لتور بيبرس في شحه فهم المغاربة فتصدى للصليبيين كما ألقى الضوء على علاقة الصداقة بين بيبرس وكبار حوك الفرنج أمثال الأمير لطور الألماني مانفرد Manfred وشارل الاتجوى صاحب صقلية . وأشار كذلك إلى رسالة أخرى لم يأت بمضمونها أرسلها المستنصر لبببرس ومعها هدية قيمة حتى يثنيه عن اتهامه بالتواطؤ والديانة . نظرا لأحاسسه بالتقصير في حق بلاده تونس وإن كان ابن الفرات قد ألمح إلى مضمونها بأنها حملت عبارات الذوبيع التي وجهها بيبرس إلى المستنصر . وقد نوه أيضا وفي مناسبات عديدة عن إحساسه بخيانة المستنصر واتقاء سياسته . والدير بالتكر أن ابن الفرات على الرغم من أنه لم يوقع في ذكر زمن قوم الحملة إلى تونس فوضعه خطأ تحت أحداث عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م وعلى الرغم من أنه لم يأت لنا بتفاصيل كافية عن أحداث الصراع بين المسلم والصليبي هناك إلا أن مؤلفه كان له أعظم الأثر في الكشف عن الجوانب العاطفة في سياسة المستنصر المقتوية ، ومكانة مصر بين باقي الدول الإسلامية وتزعم بيبرس لقيادة كلمة المسلمين . هذا بالإضافة إلى أنه المورخ الوحيد لدى انفراد بذكر المراسلات بين بيبرس والمستنصر ، ألمح في مرات عديدة إلى مشوارها دون الاتيان بتوصيها كاملة .

ومن بين الكتب التي رجعت إلينا من مؤلفات القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وأدنتنا منها بصورة عرضية غير متخصصة في أحداث الحملة كتاب «معراج الكروب» لابن

١ - هو جمال الدين أبو عبيد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن وأصل قاضي حماة . ولد عام ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م وقدم إلى القاهرة أكثر من مرة ، وبعث في مهمة دبلوماسية إلى صقلية في عهد الملك مانفرد Manfred ابن الأمير لطور فريدريك الثاني ، وكان موجوبا بالقاهرة وقت قوم حملة لوريس ضد مصر ١٢٤٨م / ٦٤٨هـ ومات بحماة عام ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م . ومن أهم مؤلفاته «معراج الكروب» و«التاريخ الصالح» انتظر لنيل وأصل «معراج الكروب» ، نشر وتحقيق د . جمال الدين الشيباني ج ١ ، ص ٨٠٤ . جوزيف سيميرسوف العنبر الصليبي على بلاد الشام ، ص ٢٨-٣٩ .

ولصل (ت٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) حيث يعد من أهم المصادر الحاصرة لأحداث حملة لويس على مصر، وشاهد عيان لكل وقائعها عام (٦٤٦-٦٤٨هـ / ١٢٤٨-١٢٥٠م) ، فكان مصدرا ممتازا لأخبار تلك الحلقة الهامة من سلسلة حملات لويس على ديار الإسلام . أما حليبية لويس على تونس فلم يتعرض لها ابن وأصل ، بل ألقى الضوء على أحوال مصر أبان هذه الفترة ، ويعد بويرس في تصفية وجود الفرنج ببلاد الشام.

وأفندنا أيضا من «تاريخ مختصر الدولة لابن العبري»^(١) (ت٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) حيث أمدنا بمادة قيمة عن التتار وعلاقتهم بالأرمن أبان الفترة موضوع البحث مما يعكس الاتجاهات السياسية على المسرح الدولي وقت الحملة .

ومن بين المصادر الإسلامية التي ترجع إلى القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي، والتي لها أهميتها أيضا مخطوط «نيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» للبرنيسي (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) حيث ألقى الضوء على الأحوال الاقتصادية لتونس وقت الحملة والنظم العسكرية التي أقراها المستنصر ببلاده ، ونظام التسليح لجيشه وقت السلم والحرب. كما أفندنا أيضا من مخطوط «كنز الدرر وجامع الغرر» لابن أبيك (ت٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) ورؤية الفكر في تاريخ الهجرة لبيرس الداودار (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) وهو من أهل الكتب عن عصر الظاهر بويرس ودرره في العملة على تونس وأيضا مخطوط «مختصر التواريخ» للسلافي (تاريخ الوفاة غير معروفه، و«عين التواريخ» للكتبي (ت ٧٤٦هـ / ١٢٦٢م) و«زهة العميون» لابن رسول (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) وجميع هذه الكتب بين مخطوطه ومصورة لم تتشر بعد. أما الكتب التي نشرت والتي أفندنا عنها بشكل أو بآخر كتاب «المختصر في أخبار البشر» لأبي الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) و«نقطة المختصر» لابن الوردي (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) و«دول الإسلام» للنهجي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) .

لقد أفندنا منها جميعا في لقاء نظرة موضوعية على أحوال المغرب وقت قدوم الحملة.

١- ولد ابن العبري عام ٦٢٢هـ - ١٢٢٦م في مملكة حاصرة أرمينية ، وبولي عام ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م، وكان راهبا منذ صغره، وتنقل في وظائف عديدة - وهي أسلفا على حلب وشغل مائة كتاب والتأليف في العديد من لغات - فنظر لويس شديدا ترجمة العلامة غريغوريوس أبي الفرج، ص ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، وأيضا بإشارة للمعارف الإسلامية عامة ابن العبري

ومن أهم مؤلفات القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي، والتي ألفتها منها أيضاً مكتاب السلوك وه الحطط للمقرئى (٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) . ويلاحظ أن المقرئى لم يتوخ الدقة فيما أورده من أسماء عن الحملة على تونس . فمارة يوردها في أعقاب حملة لويس على مصر ، أى عام ٦٦٨هـ / ١٢٥٠م وأخرى يذكرها تحت أحداث عام ٦٦١هـ / ١٢٦٣م ومرة ثالثة يوردها ضمن أحداث عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م مجارياً في ذلك أبا الفضائل في كتابه «السهج السعيد»^١ ولم يعطن الناشر إلى ذلك . وعلى أى الأحوال يعد كتاب السلوك من أهم مصادر العصر الأيوبي والمملوكي أما الحطط الذى ورد في روثيته عن الحملة فيعود إلى مادة النقل عن الغير من السابقين دون وقفه فاحصاً مع ما ينقله من أسماء .

ومن الكتب التى رجعنا إليها أيضاً والتي نرجع إلى المصور التالية «تاريخ مصر والمعروف ببذائع الزهور في وقائع البعور» (ت ٩٣٠هـ / ١٢٥٣م) وثلاثة السحر، لباحرمة (عاش في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي) وهو مخطوط لم يشتر بعد، «والنزهة الزمية» و«عين الأخبار» لابن أبي السرور (١٠٢٨هـ / ١٦١٩م) وهما مخطوطتان لم يشترأ بعد .

وإذا كنا قد استعرضنا أهم المصادر والأصول التاريخية ، من عربية وعبرية خطية ومطبوعة ، والمتعلقة بحملة لويس التاسع الصليبية على تونس - أقول أما إذا كنا قد تناولنا هذه المنابع بالبحث والتحليل، فقد لجئنا في ذات الوقت إلى الموازنات والمطابقات والمقارنات التاريخية بين هذه المنابع وبعضها البعض وتمكنا في كثير من الأحيان من حسم العديد من القضايا والمسائل التى كانت حتى تدوين هذه الرسالة مثار جدل وخلاف بين المؤرخين .

يضاف إلى كل ما تقدم أننا رجعنا إلى مجموعة كبيرة من كتب الجغرافيين والرحالة حيث أمدنا بمادة قيمة عن جغرافية تونس وطوغرافيتها . كما ألفت الضوء على الكثير من التواحي الاقتصادية والاجتماعية ويأتى على رأسها كتاب «سفة المغرب وأرض الأندلس» للإديسى (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٦م) حيث أمدنا من خلال رحلته إلى تونس بمادة مقارة عن جغرافيتها وألقى الضوء على قرطاجنة ومساحتها وأهميتها بالنسبة لتونس، وأيضاً «المسالك والممالك» لابن خردنبدة (ت في حدود ٣٠٠هـ / ٩٧٠م) و«مروج الذهب» للمسعودي (ت ٣٤٤هـ / ١٠١٦م)

١- انظر للمقرئى: السلوك ، ج ١ ، ق ٢٧ ، من ٥٨٧-٥٨٨ . حاشية *

وهصورة الأرضه لابن حوقل (عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) ومعجم البلدان لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) وغيرهم. هذه المؤلفات لها قيمتها التي لا تنكر في عرض المسرح الجغرافي لتونس بصفة عامة وقرطاجنة حيث دارت على سواحلها وفوق أرضها معارك الصلة على وجه الخصوص .

أما عن المراجع الثانوية فيمكن تقسيمها بالنسبة لموضوع البحث إلى أربعة أنواع :

أولا كتب عن تاريخ الحروب الصليبية ومن أهمها مؤلفات ستيفن راسيمان S. Rasmussen ورنيه جروسيه R. Grousset ، وهما من أهم وأعظم المؤلفات الأجنبية عن الحروب الصليبية المبكرة . كما أننا أيضا من مؤلفات آرثر وكينجزفورد Archer & Kingsford ، وفريدناند شالتون F. Chalodon وج. ف. ميشو J. F. Michaud وكاميل Camphell .

ثانيا . كتب متخصصة في تاريخ سيرة القديس لويس أمثال مؤلفات Guizot وهنري بوريو H. Bordenax وجاك بولانجيه J. Boulanger وسيجور Segur ، وميلر Miller ، وبيري Perry ، وريشارد Richard ووالسون Wallson .

ثالثا . كتب متخصصة في تاريخ الشرق اللاتيني ومن أهمها تأليف Raymond . وقد أفننا منهما في تتبع أخبار الصلة ضد تونس منذ الاعداد لها في أوروبا وحتى تقومها تونس كما جاء رينو بتماصيل المعاهدة التي عقدت بين والمستنصر وشارل الانجوى وجاء تأليفه مزيجا بين وجهتي النظر العربية والغربية ، حيث كان رينو جامعا لأراء المؤرخين العرب في هذا الصدد ، كما أننا أيضا من مؤلف Rohricht الذي ألفرد فيه فصولا كاملة عن حملة الأمير ابوارد ، وأيضا تأليف رى Roy ، وشلومبرجيه Schlumberger وماس لاترى Mas Latrie وغيرهم

رابعا . هذا بالإضافة إلى عدد ضخم من المراجع العربية الحديثة عن تاريخ الصراع بين الشرق والغرب ومن الحروب الصليبية ومنها «مخطا لويس علي مصر والشام» للكتور جويرف سميم يوسف ، و«خلاصة تاريخ تونس» لحسن عبد الوهاب و«لب التاريخ» لـ محمد الحبيب و«تاريخ الحركة الصليبية» للكتور سعيد عبد الفتاح عاشور و«المغرب الكبير» للكتور انسيد عبد العزيز سالم و«حاضرة العرب القرون و«تاريخ الأندلس» ليوسف اشباح و«الجبهة الإسلامية لمحمد سعيد غنيم وغيرها .

الفصل الأول

الغرب اللاتيني والمغرب الإسلامي

قبيل حملة لويس التاسع على تونس

أحوال العالم الإسلامي بصفة عامة وتونس بصفة خاصة -
لعوال الغرب الأوروبي قبيل مجيء الحملة بعامة وفرنسا
على وجه الخصوص - أمام حملة لويس التاسع الصليبية
على تونس - الصورة العامة والتشوير بها

اقتطع الصراع بين العالم الأوروبي المسيحي والعالم العربي الإسلامي، في جبهتيهما الشرقية والغربية، من العصور الوسطى عشرة قرون من الزمان أو يزيد، وذلك اعتباراً من ظهور الإسلام في بدايات القرن السابع الميلادي (القرن الأول الهجري) وحتى بدايات القرن السادس الميلادي (القرن العاشر الهجري). وتمثل الحروب الصليبية مرحلة رئيسية من مراحل هذا الصراع الدامي، وقد شكلت الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط، ومن أهمها حملة لويس التاسع على تونس عام ١٢٧٠م (٦٦٨-٦٦٩هـ) وهي الحملة التاسعة والأخيرة في عداد الحروب الصليبية المكرة.

على ذلك الوقت الذي استعنت فيه أوروبا لتوجيه صيرتها إلى المغرب الإسلامي، كان توازى القوى في الصراع بين المسلمين والصليبيين يميل لصالح الإسلام، وكانت مصر هي قلب هذا العالم النابض بالحركة والحياة، ومصدر أمداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح وكان يحكمها آنذاك السلطان الظاهر بيبرس هذا، بينما كان الكيان الصليبي في بلاد الشام يتداعى ويدهار في الوقت الذي أحدث فيه القوى الأوروبية تنفض يدها عن المروج الشرقي، وتتكرر لتلك الفكرة العقيمة في دعم الوجود الصليبي في الأراضي المقدسة. أما المغرب الإسلامي وتونس بصفة خاصة التي كانت تتمتع بحالة من الاستقرار السياسي والانتعاش الاقتصادي، وخاصة في مجال التجارة فقد أصبح مطعماً للصليبيين إذ فجروا مطامعهم في تلك الحملة على تونس

وقبل الفوضى في تفاصيل هذه الحملة، يحسن استعراض أحوال كل من المغرب الإسلامي والغرب الأندلسي بصفة عامة وتونس وفرنسا على وجه الخصوص في الفترة السابقة لقيامها، لفهم الظروف التي هيئت لاجراجها إلى حيز التنفيذ . لقد كانت تونس هي الأرض التي شهدت تداعى الفكرة الصليبية وموت أشد المتعصبين لها وهو لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد ثلاث حملات كبيرة كانت أولها ضد مصر ، وثانيها ضد بلاد الشام، وثالثها تلك التي نحن بصدها .

كان يحكم مراکش آنذاك بنو عبد المؤمن مؤسسو دولة الموحدين بالمغرب ، وكانت المغرب منذ أوائل القرن السابع الهجري/ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، تعاني من الفتى والمؤامرات والاضطرابات السياسية حامية بعد هزيمة المسلمين في موقعة العقاب سنة ١٠٩٠ هـ / ١٢١٢ م. فقد أجمع المؤرخون العرب أن هذه اللوحة كانت السبب الرئيسي في انهيار الكيان الإسلامي في بلاد الأندلس بصفة عامة^(١). فقد تمكن الصليبيون من الاستيلاء على أكثر من الأندلس، ولم تقم لدولة الموحدين قائمة بعد ذلك . حيث تعددت الأسباب التي أعادت على انهيارها. وكان من أهمها الصعق الحربي والسياسي الذي منيت به البلاد بعد هزيمة الموحدين في تلك الموقعة. هذا بالإضافة إلى انتشار الفوضى والاضطراب ، وكثرة المعارك الداخلية المتواصلة ، وازدياد التوسع المسيحي في بلاد الأندلس أضف إلى هذا ضعف الخلفاء الذين تولوا الحكم بعد الخليفة محمد الناصر. ويعتبر الخليفة المستنصر بالله يعقوب بن محمد الناصر أول الخلفاء الضعفاء (٦٢٢ هـ / ١٢٢٣ م) الذي كثرت في عهده الفتى والثورات والاضطرابات ، كما كثر الصارخون عليه . ولما تولى ازداد الأمر اضطرابا ، وجمتمع الناس على خلافة عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن. وفي عهده تفرق الموحدين وازدادت مطامعهم في الخلافة ، ولم يهنا الخليفة الواحد منهم على حكم مستقر دون تسلسل لمؤامرات وقد استقل أبو محمد عبدالله بن يعقوب المنصور بالأندلس وتلقب بالعادل. ورغم أن عددا كبيرا من أعيان الموحدين قد استؤوه، إلا أن العهد لم يطل به فقتل عيلة في ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م^(٢) وخلفه

١- القيريني (محمد بن محمد بن علي) نثر الجواهر في تاريخ الأعيان الجيد الثاني، مطبوع . ورقة

ب٦

٢- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) المغرب الكبير - المعصر الإسلامي الاسكتندرية، ١٩٦٦، ص٨٢٩

أخوه أبو العلاء ادريس بن المنصور. إذ انتهى الأمر بمهاجته بالحلافة في أشبيلية مقر ولايته ، وتلقب بأبي العلاء المسمون وبإبائه أهل الأندلس. وفي نفس الوقت بويج أبو زكريا يحيى بن الناصر بالحلافة في مراكش وتلقب بالمعتصم. واشتد الصراع بين خليفة الموحدين بالأندلس وخليفتهما بالمغرب ، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبي العلاء ادريس في ٦٦٢هـ / ١٢٢٣م^(١). وبذا أصبح المغرب مسرحاً لقتال بين خلفاء الموحدين وانتشرت الثورات في كل مكان. ومن أشهرها ثورة محمد بن يوسف بن هود الجذامي بمدينة مرسية. فقد تمكن من التغلب على شرق الأندلس كله وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وأشبيلية وغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء وأيقن أهل الأندلس أن أمارته ستكون مخرجاً لهم من حالة الفوضى والاضطراب ، ولكنه اصطدم بحركات مضادة من قبل القشتالي والأفريقي وبعض خصومه من زعماء الأندلس، وكانت كل هذه الصراعات فرصة كبيرة لصبياح معظم بلدان الأندلس فاستقلت قرطبة وأشبيلية وغيرها في يد المسيحيين ، كما تمكن ادريس من هناك وحيدته السياسية من التخلص من إشاع ابن هود واستنصال شائفتهم نهائياً حتى كن يطلق عليه «عجاج المغرب» . وبعد فترة تقارب العشرين عاماً نحل مراكش أبو العلاء ادريس انشأ المعروف بأبي ديوس ولقب بأثير المؤمني، وبالواثق^(٢). ويعرف عنه أنه كان داهية في السياسة وأنه دخل مراكش غزواً ، وذلك في عهد الخليفة المرتضى أبي حفص بن إسحاق الذي تولى بعد وفاة المعتضد بن المنون

وقد ترك المرتضى الحكم^(٣)، وبويج أبو ديوس بالحلافة بجامع المنصور يوم الأحد ٢٢ محرم ٦٦٥هـ / ١ يناير ١٢٠٨م أي في اليوم الثاني من دخوله مراكش^(٤) أما سبب شهره

١- كان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصارى المرتقة أنسطهم في جيشه وأقاموا في مراكش بعد أن بنى لهم فيها كنيسة ، وبينما كان الناس منشغلاً بحمارة المعتصم انقض عليه أخوه أبو موسى في سجنه وتغلب من ولقب نفسه بالوزير. أنظر عبد العزيز سالم المرجع السابق، ص ٨٢٩

٢- اختلفت المصادر المعاصرة في سببه ، فمنهم من يقول أنه أبو موسى ابن ادريس المسمون ، ومنهم من يقول أن اسمه ادريس بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد الواحد. أنظر الفيومي، نشر التمام ، ج ٢، ورقة (١٨)

٣- ابن أبي روع (علي بن محمد الفاسي) الأندلس للطرب، بويج القوطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، نشره نورفريج ، أسبال ١٨٤٢، ص ١٧٢-١٧٥ .

٤- اختلفت المصادر المعاصرة حول يوم دخول أبي ديوس مراكش، وهل هو ٢٦ محرم أم ٢٧. ويرجح =

أبى دبوس المرتضى فذلك لأن الأخير كان يريد أن يفك به أشتاء أقامه بمراكش ولما أحس أبو دبوس ذلك قر هاريا إلى أمير المؤمنين أبى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق من بنى مرين، وطلب منه المساعدة ضد المرتضى. وتشير المصادر المعاصرة أنه على الرغم من الحفولة الزائدة التي قوبل بها أبو دبوس من قبل أبى يوسف إلا أنه أنكر ذلك الجميل وتمرد عليه في نهاية الأمر، رغم أن أبى يوسف قد وافق في هذه المقابلة على استدعاء دبوس بكل ما يحتاج إليه من أموال وعتاد حتى يتصرفه على المرتضى ويحكمه من حكم البلاد. ففعل أمده بجيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من قبائل بني مرين^(١) وأعطاه خيولا وعشرين ألف دينار، ولكنه اشترط عليه أن يعطيه نصف ما يحصل عليه من البلاد. ووافق أبو دبوس على ذلك، وانصرف من عنده بعد أن تمكن من ضم عدد كبير من عربان إفريقيا ممن كانوا في طاعة لحليفة المرتضى إليه، وطلب منهم أن يبايعوه ووافقوا على ذلك وساروا معه حتى بلدة مكسور.

وقد مكث أبو دبوس بهذه البلدة بضعة أيام، وتمكن من إجراء مراسلات سرية مع بعض اتباع المرتضى الذين أجابوه قائلين «اقبل ولا تحط فنحن نؤيدك والعند فرقناها في البلاد»^(٢) وفعلوا ساعدوه على دخول مراكش ليلا في غفلة من أهلها الذين لم يستسلموا له. ودارت معركة حاسمة صباح يوم ٢٢ محرم بين قوات كل من المرتضى وأبى دبوس الذي رجعت كلفته وأدرك المرتضى هذا فهرب من باب سرى بقصره. ودخل أبو دبوس القصر وأقر الأمور ووصل إلى مدينة أزموور التي كانت تزخر بأتباع ابن عطوش، وهو صديق حميم للمرتضى، حيث كان قد أسر ذات مرة فطخ له المرتضى مئلفا كبيرا من المال وذلك أسره وزوجه ابنته وولاه تلك المدينة

١ - أن دخول كان يوم ٢٦ محرم لئلا اليوم التالي لدخوله حقل بالأحداث السياسية السريعة والتجاسة من قبل أبى دبوس ضد المرتضى. فمن النطق أن أبى دبوس أخصى يوما على الأكل داخل البلاد لاتقرار الأمور فدوما ثم «تزعزع الملائمة من المرتضى» لأن لايعقل أن تكون تلك الخطوة قد حدثت دون إعداد لها على الأكل لعلها يوم واحد. وحتى هذا اليوم يختار غير كاف لكل هذه الأحداث، وربما قد تم الإعداد لتلك الخطوة قبل ذلك باعتدأ أنظر مجهول الطل الموشى في ذكر الأخبار المراكشية، ص ١٢٦، المربوم نشر الجمار، ج ٢، ورقة (٥٧) أبى أبى دوع - الأبيس المطرب، ص ١٧٢.

٢ - من أبى دوع - الأبيس المطرب، ص ١٧٢، مجهول الطل الموشى، ص ١٢٦.

فكان ابن عيوش مصور ثقة المرتضى ومثله، فهرب إليه طالبا منه الحماية. لما كان من ابن عيوش إلا أن ثوبته بالحديد وكتب إلى أبي دبوس قائلا: «اعلم يا أمير المؤمنين أنني قد قبضت على الشقي وأني سأرسله إليك». فعلا أرسله ولكنه قتل في الطريق وبعد أن تخلص أبو دبوس من المرتضى وأتباعه، بدأ يعمل جاهدا على استئجاب الأمور داخل البلاد والاهتمام بالموال مراکش السياسية والاقتصادية... وصلت هذه الأخبار إلى أبي يوسف الذي سبق وقدم له كل العون في بداية صراعه مع المرتضى. وكتب إلى أبي دبوس يطلب منه الوفاء بوعده، وأن يمكنه بما اشترط عليه من قبل. ولكن رد أبي يوسف «قل له أن يقتحم السلامة ويقع بما في يده من البلاد» إلا أنيته بجنود وعناد لا قبل له بهاء^(١). فلما علم أبو يوسف بذلك، صمم على قتال أبي دبوس، وأصدر أوامره بالقبض عليه حيث حمل إلى مدينة فاس فظفوا يطوفون به في أسواق المدينة إلى أن طلق على أحد أتباعها، وقتل في شهر ذي الحجة ٦٦٧هـ / أغسطس ١٢٦٩م، وقيل في محرم ٦٦٨هـ / أغسطس ١٢٦٩م^(٢). وفي رواية أخرى أنه لم يقبس عليه، ولكن دارت بينه وبين قوات بني مرين بقيادة أبي يوسف معركة ضارية عضد فيها أبا دبوس عدد من العربان والفرنج، وأن الدائرة دارت عليه وهزم في المعركة وظفت رأسه على سور المدينة.

وبناء على ما تقدم، فإنه يموت أبي دبوس امقرضت دولة الموحدين وانتشرت الفتن والفوضى التي دبت في بلاد المغرب والأندلس وانقسم ملك الموحدين إلى ثلاث دول مستقلة، فقد استغل بنو حفص المصامدة دولة أفريقيا في عصر الموحدين فرصة لاحتضار هذه الدولة وأعلنوا استقلالهم عنها، ودامت لهم السيطرة على طليجة وسبته وبعض مدن الأندلس بينما

١- ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن علي) تاريخ الدول والوفاء ١٨ مجلدًا، مطبوع دار الكتب المصرية، ج ١٢، لوحة ٦٠.

٢- اختلفت المصادر حول السنة التي قتل فيها أبو دبوس وهي هل ٦٦٧هـ أم ٦٦٨هـ وقد أجمع عدد من المصادر على أن أبا دبوس ظل في الحكم ثلاث سنوات (٦٦٥هـ / ٦٦٨هـ) في حين يؤكد البعض الآخر أنه قتل سنة ٦٦٧هـ. وعلى أي الأحوال فالخلافا بين هذين التاريخين هو اختلاف بسيط لا ينبغي أن يكون يوما واحدا ما بين نهاية عام ٦٦٧هـ وبداية أول يوم من ٦٦٨هـ. وبناء على هذا، على مدة حكم أبي دبوس التي تقرب من ثلاث سنوات تعد أمرا بالغ الأهمية حيث أن مثله كان النهاية القصية لدولة الموحدية. أنشأ ابن أبي درع الأندلس المطرب، ص ١٧٢-١٧٥، مجهول العقل للوشية، ص ١٢٨، الفيومي، نشر الجمان، ج ٢، ورقة ٧ ب، ابن الفرات: تاريخ الدولة، ج ١٢، لوحة ٦٠.

انقسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزياتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم، فاحتص بنو مرين بالمغرب الأقصى، بينما استقل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط، في حين تمكن بنو حفص من توليد نفوذهم في المغرب الأدنى. وقد تكثرنا كثيرا بكل هذه الاصطراعات والقوى التي أصابت المغرب وتمكنوا بداهة من إغلاء كلمتهم على معظم أنحاء شمال أفريقيا إلى أن استقر بهم الحال في تونس. والحفصيون هم أمراء ينتسبون لأبي حفص يحيى بن عمر الهبتلاني^(١) الذي تمكن في عهد الموحدين من أن يبلغ مكانته سامية نظرا لسبقه في الجهاد إلى جابهم وكان أبو حفص من تكبر أصحاب ابن تومرت بن عبد المؤمن ففي عام ٥٧١هـ / ١١٧٥م تداول أبناء أبي حفص المناصب المرموقة في المغرب والأندلس إلى أن تمكن أبو زكريا يحيى بن أبي حفص في عام ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م من الهيمنة على شؤون تونس الداخلية مستغلا في ذلك ضعف وتفتت كلمة الموحدين والتمديد في ٢٦ رجب ٦٢٥هـ / ٢ يوليو ١٢٢٧م تمكن من السيطرة على البلاد بصورة رسمية ودامت له السيطرة على الحكم ثلثي وعشرين عاما ٢٦ رجب ٦٢٥هـ - ٢٢ جمادى آخر ٦٤٧ / ٢٨ يوليو ١٢٢٧هـ - ٤ أكتوبر ١٢٤٩م) وقد واجه بنو حفص صعابا عديدة في بسط سيطرتهم على البلاد فقد اصطدموا ببني عبد الواد ودارت بينهم معارك عديدة إلى أن تمكن الحفصيون من فرض سيطرتهم على الجزائر، كما اصطدموا ببني مرين، ودارت حروب كثيرة بينهم، هذا في الوقت الذي نمت فيه الفتنة بين أفراد البيت الحفصي نفسه. ففي قام أبو عبدالله بن محمد بن عبد الواحد بن أبي حفص في عام ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م بتولي الأمور في أفريقيا، وولى أخاه أبا زكريا قابس^(٢)، وولى أخاه أبا

١- منشأه قبيلة من برايرة لمساندة الساكنين بالمغرب الأقصى ويذكر أبو الفدا أن الهبتلاني المصوب بها بنو من من قبيلة من فوقها، ويرجع الهبتليين أنهم قرشيون من بني كعب رطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ٢. نظر أبو الفداء (الملك المؤيد محمد الدين أبو الفداء - إسماعيل أبو طي) المختصر في أخبار البشر، ٤ ج. ٢، ص ١٩٦، أبو المحاسن (جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تشرني بربري) المهدى الصافي ولسنوفي بعد الترابي، ٢ ج.، مطبوعة دار الكتب المصرية، ج ٢، ورقة ٣١٦، الفيومي بشر المصان، ج ٢، ورقة ١٩ (أ)

٢- قابس مدينة من طرابلس وسفاس ثم المدينة على ساحل البحر فيها مقب وسنان، - عربي طرابلس الغرب، ذات مياه جارية وبها حصن حصين ومنائق وحمام وبها مرعى للماش ولها ثلاثة أبواب يسكنها العرب والاندلسية وساحل مدينة قابس يشتهر بالتجارة. - نظر بالوثق المصوب معجم البلدان، ٤ ج.، ص ٢٨٩، وأيضا ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهذلي): كتاب البلدان، بريل ١٣٠٢هـ - ص ٢٩

إبراهيم اسحاق، بلاد الجديد، خرج أبو إبراهيم اسحاق على أخيه أبي عبد الله وطرده وبنى مكانه أخاه أبا زكريا فتم بنو عبد المؤمن على أبي زكريا. فقام الأخير باسقاط اسم عبد المؤمن من الخطبة وخلع طاعتهم وتمك أفريقيا وخطب لنفسه بالأمير وقد واجهته في بداية الأمر صعابا كثيرة وخاصة من قبيلة هواة^(١). وتمكن من لشهاد ثورتها عام ٦٢١هـ / ١٢٢٤م، كما تمكن من الاستيلاء على تلمسان وجزء كبير من أملاك بني عبد الواد وقد ساعده على ذلك عدم وجود القوة المتسقة الموحدة التي يمكن أن تقف أمامه وحبط له في الصلابة، ووجد عليه ابن مرينش صاحب بفسية يستجده به ضد الصعاري الأسبان بقيادة خافيي الأول ملك أراجون الذي ازدادت لطماعه في بلنسية وعبرها من مدن الأندلس^(٢) وقد أجهبهم أبو زكريا بأسطول ضخمة بالآفوات والأسلحة.

وشهدت تونس في عهد أبي زكريا نهضة طوعية، ولا زالت هناك العديد من مظاهر الحضارة والعمارة ممتدة آثارها حتى اليوم وترجع إلى هذا العهد، وتأثرت حضارة بني حفص كثيرا بالحضارة الأندلسية، وكان بلاط أبي زكريا يرخز بأهل الأندلس من العلماء والأدباء، وكان هو مولعا بمجلس الشعراء^(٣) وهذا يعنى أن الملوك في عهده كانت تنعم بحالة من الهدوء والرخاء والاستقرار، الأمر الذي لم تتمتع به القوى الإسلامية الأخرى في المغرب^(٤) حسبا يتضح من العرض الذي أسلفناه.

١- هواة قرية بالقرب من تونس المشهورة بانتشار اللعب الشبقي بها، ويسكنها يعرفون بالهوارير، انتشر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص ٩٩، طبعة ليبيرج ١٨٦٩

٢- بلنسية السبى، مهمة حكسورة وراء طيلة وهي كورة وعديدة مشهورة بالأندلس شرقا قرطبة وهي ملك قرية بقرية بها لشجار وأهوار وتتصل بها منى تعد في حملتها، ولاسطر، منها سهل ولاجل وأطليا حير أهل الأندلس، أسطر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٩.

٣- ابن القنفذ، الدارسة في تاريخ الدولة الطغصية، ص ١١٦، لإرفاد ذكر ابن مرينش مرة بعشرة أبي زكريا بعض الأبيات الشعرية التي كتبها الأديب أبو عبيد الله بن الأبار ليثبت جلسله لسهلته، ومنها أدرك بخلبك حوسل الله أنللسا أن السبيل إلى معجنتها درسا

أنتظر الغريبى جوان الغداية، فس عرف من العلماء في تلك السابعة السابعة بجماية، الجرائر ١٩٧٠، ص ٢٥٧، ص ٢٥٧. وأنتظر عبد العزيز سالم المغرب الكبير، ص ٨٧٦

٤- أبو الفدا: المختصر، ج ٣، ص ٦٩٦.

وتوفي أبو زكريا في ٢٢ جمادى الآخر عام ٦٤٧هـ / ٤ أكتوبر ١٢٤٩م^(١)، وذلك حين خرج معه ولده المستنصر وكان ولي عهده في رحلة إلى مدينة بونا ومرض فجأة وسقط ميتا بين يدي ولده فلما كان من المستنصر إلا أن تركه على حاله بين يدي الناس الذين اشتغلوا بجنازته وامتطي جوادا كان يسمى «البيش» وهرع نحو مدينة تونس، وذلك خوفا من أن يسبقه عماد الحميداني والمجنور ويضعوا أيديهما عليها^(٢) وبعد دعوته تونس وجد الخبر بموت أبيه قد سبق، والدواج في القصر فليطل المستنصر كل هذا وقال لهم «أشربوا من فمي خلف عن الناس»^(٣)، واحتفل المستنصر على الفور بمبايعة البلاد الإسلامية له، خاصة حين أرسل له أمير الصباز وأهلها مبايعتهم له بالخلافة عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م فاحتفل المستنصر بهذا وتلق نفسه يومئذ بأمر المؤمنين، وقد بايعته قبائل بني مرين وقدم إليه ملك برنو^(٤) بالسودان هديا نفيسة. كما كان يتلقى السفارات من المدن الإيطالية وبعض دول البحر المتوسط وعدد من دول أوروبا الدنية التي كان ملوكها يقدمون إليه الهدايا، ويعرف عن المستنصر أنه كان ملكا عظيمًا على بلوغ مقصده شهدت تونس في عصره حضارة عمرانية مزدهرة فقد اهتم بإنشاء المباني، وزعم العنابي الرومانية القديمة لطب ماء زغوان وأجرى بعضا من مائه

١- ابن القنفذ - الفارسية في تاريخ الدولة العفصية - ص ١١٤، أبو الفعاس - القيل الصافي، ج ٢، ورقة ١١٢، باسمر (أبو محمد بن عبد الله بن أحمد أبي طي) - خلاصة النهر في وفيات أعيان النهر، ج ٦، مصطوف ج ٥، ورقة ٣٢٨، البيهقي (موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين) - نيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ج ١٥ و ١٧، مصطوف، ج ١٧، ورقة ١٨٤، ب، البيهقي - نثر الصافي، ج ٢، ورقة ١٩٠، أ، ابن رسول (عباس بن طي بن داود بن يوسف بن عمر) - نزهة العيون في تاريخ طرائف الفروع، مجلدان، مصطوف، المجلد الأول ورقة ٤٦٤-٤٦٥، أبو الفدا المصنوع، ج ٣، ص ١٩٦، ابن أبي ديار القيرواني المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس، محمد - باهي السعدي - الخلاصة النقية في تاريخ أسماء إفريقية، ص ٦٢، الرركشي - تاريخ الدولتين المرينية والعفصية، ص ١٥٠.

٢- يسمي أحمد بن العباسي لكثرة لميته وكان يسمى محمد القباشي، والآخر سمي المجنور لكثرة الجنون برعبه وهو إبراهيم أبو عماد المجنور، أنظر البيهقي - نيل مرآة الزمان، ج ١٧، ورقة ٨٤ أ ب وأيضاً البيهقي - نثر الصافي، ج ١٧، ورقة ١٩٠-١.

٣- ابن أبي ديار المؤنس، ص ١٢٧، للسعدي - الخلاصة النقية، ص ٦٢، الرركشي - تاريخ الدولتين ص ١٥٠، وأيضاً حسن عبد الوهاب - خلاصة تاريخ تونس، ص ١١٢.

٤- برين - مملكة موارسط السودان قاهنتها مدينة كوكه، ويملكها روج مصطفى أنظر - محمد العجوب - لب التاريخ، ص ٢١٥، حسن عبد الوهاب - خلاصة تاريخ تونس، ص ١١٢.

البستان الذي اتخذه برأس الطابية والبعض الآخر البستان المعروف بلبي فهر قرب اريانه^(١). كما أجرى البعض الآخر إلى داخل المدينة وجامع الزينونة. وأضاف العديد من الانتشاءات الأخرى. وكثرت ثروات الناس ، وتفق أهل توبس في ملابسهم ومسكنهم ومبانيهم، حتى الآية التي كانوا يستعملونها كانت تتميز بقيمتها. كما اهتم ببنائى السفاية شرقى جامع الزينونة. وبالغ المستثمر فى اكمال الحاية التى يجرى ماؤها إلى مدينة قرطاجنة^(٢)، كما انشأ مسجد باب الغرب بالمستيز وكل أبيته تأثرت بالأسلوب الأندلسى وفى عهده توحدت العلاقات التجارية بين توبس وورشاون وهرسيليا وجنوه وبيزا، وصقلية والبنقية، وأشأ فى توبس الضامق الأجنبية الفخمة^(٣). كما تميز عهده بمشاهير الطماء الذين انتقلوا لنشر العلم مع من نزع من الأندلس وصقلية ومنهم أبو على بن موسى السورى المعروف بلبي صمصور الأشميلي وغيره. هذا ، وقد أفرد بعض المؤرخين للغرب العديد من صفحاتهم من حياة المستثمر ، وأن لقبه المنتصر وليس المستثمر ، وإن اتفقت الأغلبية على أنه المستثمر^(٤). وكان يعرف أنه محبا للشعر والأدب^(٥).

كما أشارت العديد من المصادر إلى اهتمامه بشهواته الفخاسة، وأنه كانت تزف إليه كل يوم جارية^(٦) وأنه كان محبا للمظاهر والعظمة واستمر يلقب نفسه بأمر المؤمنين، ولكن لم يتمتع طويلا بهذا اللقب إذ عمد السلطان الظاهر بيبرس إلى احياء الصلابة العباسية فى

١- اريانه ، يقال لها أيضا اريونة وهى على ملحق قرطبة تقع لخر بلاد الأندلس مما إلى بلاد المغرب ، انظر ابن الفقيه . كتاب البلدان ، ص ٨٢ . انظر أيضا ابن القنفذ الفارسية ، ص ١١٧ ، أبو العباس أحمد بن أحمد القيريني: حزان الدابة ، ص ٦٠٢ .

٢- محمد الحبيب : أب التاريخ ، ص ٢١٤ .

٣- عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص ٨٧٨ .

٤- زاملور : معجم الاسماء والاشرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ج ١ ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١١٥ .

٥- هذه بعض الآيات الشعرية على لسانه :

مالي عليك سوى التمتع معي إن كنت تشد فى اليأس وفسي
من متجنى غير التمتع فانها لمعينة جهما استشفحت حزين
الله يعلم أن ما حطقتسى صعب ولكن في رشاك يهوى

انظر أبو الحسن : القول المساقى ، ج ٢ ، ورقة ٣١٢ .

٦- أبو الحسن : النهل ، ج ٢ ، ورقة ٣١٢ ، وأسفرة: قلعة البحر ، ج ٥ ، ورقة ٣٢٨

القاهرة حين لحضر أحد الأمراء من بقايا العباسيين وكان يسمى «الحاكم بأمر الله» ولقبه بالخليفة العباسي وقام يدعو له على منابر مصر، الأمر الذي ترتب عليه أن منح لقب الخليفة أو أمير المؤمنين من المستنصر وأصبح لقبه السلطان وذلك منذ عام ١٢٦٦م / ٦٥٩هـ^(١).

وعلى الرغم من كل هذه المظاهر المشارية التي شهدتها تونس على عهد المستنصر قبل الحملة الصليبية التاسعة عليها، إلا أنه توجد إشارات مبعثرة هنا وهناك في بطون مصادر هذا العصر تدل على المجاعة والوباء كأنما منتشرين في تونس إلى الحد الذي شجع شارل الأنجوي حاكم صقلية على اقتناع أخيه لويس التاسع ملك فرنسا على التوجه إليها، مستغلا هذه الظروف السيئة التي كانت البلاد تمر بها. وثمة تساؤلات عديدة تطرح نفسها ملحة في طرب الاجابة فمنها « هي . كيف تتمتع تونس بهذا الرخاء والاستقرار ، وبعد ذلك ينتشر بها الوباء والمجاعة ؟ وهل من المقول أن تنظم حملة عسكرية من أوروبا لتكون وجهتها بلدا انتشر به الوباء، وما هو الدافع لذلك ؟ وهل الوباء يعتبر دافعا للقعود إلى مكان ينتشر فيه أم الفرار بعيدا عنه؟ وعلى هذا فلا بد لنا من وقفه مع رأي كل من ابن خلدون والمقريبي بهذا الشأن^(٢). فلا يمكن ليد مثل تونس تمتعت بكل هذا الازدهار العصري في شتى المجالات أن تكون عرضة لهذا المرض. حقيقة أن تونس قد عانت من قلة الأقوات، ولكن ذلك كان أشاء حصار حملة لويس لها، وليس قبل مجيئه إلى تونس . بدليل اقتناعه بالتوجه إليها حيث وجد فيها كل ما يشتبهه والمرص بالطبع لا يذبلح إلى الشهية^(٣).

ومع ذلك ، لم يكن عهد المستنصر كله رخاء في رخاء فلم يحل من العديد من الاضطرابات السياسية الداخلية ، وخاصة من قبل هميه الليباني والمجنور . فقد ذكرنا أنفا أنه من شدة خوفه على حكم تونس ترك أياه على حاله في بوزا ورحل إلى بلاده خشية من عميه ، لأن كلا منهما كان يطمع في الحكم، وكان عليه سرعة الصلاص بينهما بما لديه من دهاء وحكمة سياسية . فلمر في أعقاب توليه الحكم بأن تعدد الجيوش وأن يكون عمه الليباني في مقدمتها وعمه المجنور في مؤخرتها . وكان قصده من هذا أن يتعرف على أسرار جنده، ويكتشف من يشبهه ، ومن في بيته التمرد عليه. وفعلًا اجتمعت بين يديه الجيوش ما عدا عميه ومعهما سبعين

١- لغيري « دعوى الداريا » ص ١٠٠ ، ابن التتلا . الفارسية ، ص ١٢٧ - ١٢٨ محمد مرالي والشعر من سلاطة تاريخ أفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي حتى عام ٨٢٠ ، مغرب ، تونس ، ١٩٧٨ ، ص ١٧٩

٢ ابن خلدون ، المغر ، ج ٦ ، ص ٢٩٠ ، للمقريبي (تقي الدين أبو الصليبي أحمد) الملوكة لمعرفة دول الملوك ، ج ٢ ، نشره الدكتور محمد محسني وريادة القاهرة ، ١٩٤٢ . رجعت ج ١ ، ص ٢٦

٣- سوف أتناول لهذه القضية بالتفصيل في الفصل الرابع

أخرون ممن تعرفوا من الجند . وقام المستنصر بالاختفاء بجيشه ، وأقام لرجاله الولائم . كما قدم الهدايا والمساعدات لكل الرعية . كل هذا وهو في قلق من أمرهما . واستمر على هذه الحال ما يقرب من عام ونصف دون أن يبت في أمرهما . وبما ضاعف من قلق المستنصر انعدام ثلاثة من كبار القوم والأعيان في تونس إلى جانب القمياتي والجنوز . وهم ابن الزيمان وابن اسمحاق بن رحان وأبراهيم بن اسمحاق^(١) . وقد استعمل المستنصر معهم كل حيلة ، حيث تظاهر بالتوحد والرغبة في الصلح ، واستدركهم في بستان له وقطع رؤوسهم وعلق رجاله بها في ثلاث من الفضة ثم أمر بقتلهم .

وهناك رواية أخرى تقول بأن المستنصر إنما تخلف من عصبه وأتباعها حتى وضعهم مع جماعة من الفوارج داخل قبة عمرها بنو أساس ثم أرسل عليها الماء فاهتدت عليهم^(٢) ، انهم أنه بعد خلاصه منها ، تفرغ لترتيب أحوال بلاده وجيشه . وتمكن بشدته من التخلص من أية محاولة تمرد جديدة . ففي وقت السلم كان يجمع الأسلحة من الجند ويضعها في هرائته ، فإذا وقع أمر أخرجها وزرعها عليهم . ونظرا لأن تونس في عهده قد شهدت المزيد من مظاهر الرضاء الاقتصادي ، فقد اعتمد المستنصر على ربح حصيلة موارد السكان القادرين في تصريف الكثير من شؤون البلاد^(٣) .

ولهم ما أن فرغ المستنصر من صراعه مع عصبه حتى واجه عدوا أخطر يهدد سلامة وأمن البلاد . وهم عربان أفريقيقا الذين أظهروا عداوا سافرا له منذ توليه الحكم بقيادة قائدهم السبع بن يحيى . وقد أظهر المستنصر في عدائه معهم الدناء والحية عند الضرورة فم يثر في وجههم ، ولم يقم بأي خطوة عسكرية ضدهم بل عمل على مداهنتهم . وأحد في إرسال البعوث والسفارات المحملة بالهدايا إليهم حتى يستميلهم إليه وبالفعل أمن العريان له وحضر مقبضهم بنفسه ومعهم كبار الزعماء لكي يتشاوروا مع المستنصر في اقرار العلاقات السلمية بيه ويسبهم إلا أنه غدر بهم وحسب أعناقهم جميعا^(٤) . فكتب أحد الشعراء ، بعض الأبيات الشعرية بشأن تلك الحادثة^(٥) .

١- القيرمي: نشر البنان ج ٢ ، ورقة ١٩٦

٢- ابن الحسن : المهمل الصلبي ج ٢ ، ورقة ٣١٢

٣- القيرمي: نشر البنان ج ٢ ، ورقة ١٩٠

٤- القيرمي: المصدر السابق ، ورقة ١٩٢

٥- ومن هذه الأبيات : فحسب سباح السباح وبعده
وحسب بعداد وسائله قوسه

أنظر القيرمي: المصدر السابق ، نفس الصفحة .

يسطر به أسد من الأسد
وهم أنت من موطئ القصاد

وقد بلغ ذلك الخبر جماعة تدعى الخلوط^(١)، الأمر الذي نثار صفتهم ضد المستنصر . فتجمع هؤلاء يؤيدهم بعض الوجوديين الذين توارثوا نثار المقد ضد الخصمين الذين سلبوهم السلطة والحكم رغم الصداقة الوطيدة التي كانت تجمع بينهما . وإذا وجدوا فرصتهم في الانتقام بانضمامهم مع الخلوط ، وتشاوروا في أفضل السبل التي يجب اتباعها للتخلص من المستنصر الذي اتهموه بأنه قد ضيق عليهم سبل العيش وسلبهم أمجاد آبائهم . وقرر الجميع الخروج للقاء بحرا ويرا . أما خطة المستنصر لاجابة ذلك الخطر المزيج فكانت أيضا ملاطفتهم ومدهنتهم . فبدأ بأن منحهم ملكية خمس مدن صغيرة ، هذا في الوقت الذي أخذ يعد العدة لواجهتهم . وأمر باستعمال السيوف والرماح التي أخرجها من خزانته ، وأحضر الخياطين وصانك الذرايع الملونة والملابس الملوحة وصلها هدايا إلى عربان الخلوط ، وذلك بصحبة رجل يدعى يحيى بن صالح وكان صديقا للعربان ، وموضع ثقة المستنصر وثقتهم . وأقسم يحيى للمستنصر بأن تكليفه بهذه المهمة لن يخرجها عن طاعته . ومعدا حمل رسالة منه إليهم ، ولما رآه العربان فرحوا ببقائه وقدموا له هدايا قيمة للمستنصر . وقد أقام يحيى لديهم ما يقرب من ثلاثة أشهر لحسنوا فيها ضيافته . وفي تلك الأثناء تجلت من جديد مهارة ونكاية المستنصر في احتواء أعدائه . فكتب إلى أبي يحيى يرغبته في أن يعطوهوا إليه إحدى بنات العربان وقبلا زوجه ثلاثة مهن . وكانت نية المستنصر في هذا هو بذل كل الجهد للتقرب منهم وأن يجعل من نفسه أحد أفراد عشيرتهم ، ولكن في باطن الأمر كان يكن لهم كل الشر . وبالفعل أقيمت الأفراح وتنامى للمستنصر والخلوط ما كان بينهم من هذاء . بعد أن أصبح المستنصر صهرهم . واستولى على عقولهم ، وأرسلوا إليه قائلين : « احضر إلينا لتزأ إليك النيات ونعاهدك بذلك أن قدمت إلينا ومث وتولي ابنك الحكم مكانك فسوف سايعه ويكون له مؤيدين^(٢) » . ورد عليهم المستنصر برسالة الهدايا والعيول والجوارى ، والأموال الكثيرة وتقدم الخراس وأهملهم أعلامهم البيضاء لأمر المؤمني صاحب تونس . وفعل لما رآه العربان فرحوا به وسكنوا إليه وأمن هو شرهم إلى حبه . واستمر الوضع على هذا مدة طويلة إلى أن

١- الخلوط هم جماعة من العرب المنقرضين في أفريقيا ويبلغ عددهم ثلثا ما يقرب من ٦٠ ألف نسمة .

أنظر الفيومي : نثر الجمان ، ج٢ ، ورقة ١٦٢

٢- الفيومي : نثر الجمان ، ج٢ ، ورقة ١٦٢ .

انتهر فرصة استتباب الأمور داخل دولته ، وقرر التخلص من هذا العيب الثقيل الذي كلفه الكثير ، فدعا إلى قصره بتونس سبعين رجلا من لكثير القوم لدى الطوط واستضافهم أربعين يوما ، هذا ، في الوقت الذي أحضر فيه أحد القباكين وأمره بأن يبنى له قبة عظيمة يكون أساسها من الملح لاستضافة المستنصر الرجال فيها وجعلهم يشربون حتى ثملوا تماما ، ثم أمر بإطلاق النار على أساس القبة ، فذاب الملح وتهدمت على من فيها ومات زعماء العريان ثم سير إليهم جيوشه بعد أن استكمل شلقتهم وفرق كلمتهم وأخذ يسترد منهم كل ما أخدوه في شكل هدايا ومجاملات . فكانت تلك الخطوة الجريئة مه لكمة على وجهه كل خصومه ، الذين اتهموه بعدم الشرف في الحصومة والغدر بالأصدقاء^(١) الذين أحسنوا إليه ووطئوا علاقته به وجددوا البيعة له ولوريثه من بعده^(٢) ولم يعض المستنصر عينيه من أي مدو مستقر يصدر له فقد تمكن في أعقاب هذا من استئصال شقة أولاد صبيه اللحياني والمجنور حين تجددت خطورتهم في محاولة يائسة للانتقام منه وبكل بهم جميعا^(٣)

ولعلنا نحلم مما تقدم أن تونس كانت تتمتع بصفة عامة بالاستقرار والرخاء في عهد المستنصر فيما عدا تلك الفت والاضطرابات التي استهبطته والتي كانت تثور بين وقت وآخر ، والتي تمكن من القضاء عليها بالحيلة ثارة وبالفطنة والحرب تارة أخرى . وعلى هذا فقد أصبحت تونس في عصره عاصمة مثاقفة للمغرب كله بلا منازع ، وشطت بها حركة التجارة ، وازدهرت الأسواق ، وكان التجار يتوافدون عليها من كل جهة . وأبرم المستنصر العديد من المعاهد التجارية مع بيزة وجنوة وميرهما من دول الغرب ، وعلى أي الأحوال ، فقد تأثرت الحصار الحفصية - إن جار هذا التعبير - بالحصار الموحدية التي تركت بصماتها على شتى المدين . فالحفصيون هم ورثة الموحدين ، وإذا فقد سموا جامعين للحفاظ على طابع مدينة تونس الذي كان للموحدين ضلع كبير في تشييده^(٤)

١- أبو المالحين ، المجلد السابع ، ج ٢ ، ورقة ٢١٢

٢- القبريني ، للسدر السابق ، ج ٢ ، ورقة ١٩٥ .

٣- محسن عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس من ٩١٢ .

٤- محمد مرالي : تاريخ إفريقيا الشمالية ، ص ١٩٦ .

هذا، وهناك اشارات صريحة عن العديد من الصداقات التي كان يعقدها المستنصر مع ملوك الفرنج، ومنهم امبراطور ألمانيا، فيروي أنه بعد أن تخلف من عمه «صعد على منبر من العاج مصفح بالذهب كان أحد هدايا الامبراطور الألماني إليه»^(١)، وقد شكك بعض المؤرخين العرب في نوايا المستنصر نتيجة هذه الصداقات لدرجة أن بعضهم وجه إليه عبارة بأنه «لا يحق أن يلي أمور المسلمين نتيجة صداقاته الوطيدة مع لويس التاسع ملك فرنسا أيضاً ويتهمونه بأن هذه الصداقة كانت سعيًا في قنوم حملته على تونس، ولي حقيقة الأمر، فإن المستنصر إنما عقد هذه الصداقات دون تقديم أي تنازلات تضر بمصلحته في الامساك بزمام الموقف داخل تونس قبل أي شيء».

لقد ساعد المستنصر على نجاح سياسته هذه حاشيته المقربة منه، وعلى رأسها ابن عمه أبو يميم زكريا بن أحمد ووالده وولي عهد^(٢) المؤيد بالله أبو زكريا يحيى بن المستنصر فكان هذا الاستقرار الذي نعمت به تونس من أهم العوامل التي اطمعت فيها الفرنج في الوقت الذي كان فيه بقية المغرب الإسلامي مسرحا للقوضى والفتن والاضطرابات التي لا أول لها ولا آخر.

أما عن أحوال مصر قلب العروبة والإسلام آنذاك ففي الواقع أن تونس استمدت سلطتها من الاستقرار الذي تمتعت به مصر على عهد الظاهر بيبرس الذي أُرهب غرب أوروبا بتلك الهريمة التي أنزلها بالمنفل في موقعة عين جالوت الشهيرة عام ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م فقد أزعج المنفل العالم بشقيه المسيحي والإسلامي، وأعتبر بيبرس عداؤه معهم أمراً يجب أن يقدم فيه كل ما يستطيع، فقد نالوا من الإسلام وحضارة المسلمين، ولذا قدم بدوره في مجابهتهم والتصدي لهم وهما لصر من جديد دور الزعامة الديني والسياسي في المشرق الإسلامي^(٣)، هذا، في الوقت الذي كان يوجه فيه أشد الضربات إلى باقي المعاقل الصليبية في بلاد الشام، ولم يتورع بيبرس عن عقد صداقات عديدة جعلها جميعاً لصالح المسببة

١- المقريزي، السلوك، ج ١، ق ٩، ص ٢٢٧.

٢- ابن رسول، نزهة المسير، ج ١، ورقة ٤٦٤.

٣- ابن عبد الظاهر، الرؤس الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ورقة ١٢٥٢- ١٢٦، القفطشلي (أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله) صبح الأمل في صناعة الانتشا ٦٤، ج. القاهرة ١٩٦٣- ١٩٦٢م، ج ١، ص ١٢٩.

الإسلامية^(١)، واستعرض من خلالها قوة السياسية والعسكرية على أصدقائه من الفرنج . فينكر ابن الفرات أنه قدم إليه ذات مرة شارل^(٢) لثو لويس التاسع يطلب منه الشفاعة في الفرنج عكا الساحلية . وكان بيبرس موجوداً بجزيرة الروضة ، جالسا فوق الأحشاب . فدخل رسول شارل له رأى من صناعة السفن والشوانى وأدرك خطورة مصير العسكرية آنذاك . وكان شارل قد راسل بيبرس من قبل بيشره بفرحه بالانتصار على مانفرد Masfred ابن الامبراطور الألماني فردريك الثاني صاحب صقلية وأنه تمكن فعلا من الاستيلاء على صقلية^(٣)، وترجع قصة الصراع بين مانفرد وشارل حتى قام مانفرد الابن المير شرعى للامبراطور فردريك بعزل الطفل كترلينج الملك الاسمي لصقلية وبيت المقدس من الحكم وحل هو مكانه . وقد حاز مانفرد لئذئذ قنرا كبيرا بما اشتهر به أبوه من الفطوسة ، ولقى من البابوية كراهية كبيرة متعلقا لقي أبوه . وأحد البابوات يسمعون للبحث عن أمير جديد لعرش صقلية التي خضعت عرفا وتقليدا لسيادتهم . وعثر البابوات على ضالتهم في شارل كوث أجو وقد اقتنع أحبه لويس التاسع ملك فرنسا بهذه الخطوة ، ورحب باستئصال شائفة آل الهوهشتاوفن الآن من صقلية كخطوة تمهيدية لضممان مجاح أى خطوة عسكرية يقوم بها مستقبلا . فعلا في عام ١٢٦٥م / ٦٦٣هـ تقدم شارل بمساعدة لويس الى ايطالية وأنزل الهزيمة بمانفرد وقتله . وأصبحت صقلية وجنوب ايطالية في حوزة شارل . الذي سعد كثيرا بهذا الخطوة . فبادر بالاسراع لابلاغ بيبرس بها مما يدل على التقارب بينهما

وعلى أى الأحوال فقد تمكن بيبرس من جلاء هذه الصداقات أن يكون على بيته دائما بتحبار أهل الغرب اللاتينى، مما هيا له فرصة الاستعداد والتيقظ ، بالإضافة إلى أن هذه الصداقات كانت فرصة لاستعراض قوة العسكرية . الأمر الذى جعلهم يفكرون مرارا قبل أن يقصدوا مصر . ولم تسمع هذه الصداقات أبدا من توجيه الضربات القاسية ضدهم فى ذلك

١- ابن الفرات ، تاريخ الدول والفرق ، ج ١٧ ، ص ٣٠ .

٢- كما يقال له رأى حار وجارلا وأسيانا شارل . وللقصود . هناك شارل صاحب انجو أنظر

Reinaud , M . , extraits des Historiens Arabes Relatifs aux Guerres des Croisades , Paris , 1829 : p. 516 .

Matthew of Westminster , the flowers of History , 2 vols , London , 1853 , vol II , p. -٢

الشام، وتمكن من استرجاع انطاكية وقيسارية ويافا وأرمصوف^(١)، ولم يفعل في خضم هذه الأحداث نور الأرم في مساندة الفرنج، وموقفهم الخطير من المسلمين لصالح المقلول قيدا بارسال سفارة إلى ملكهم هيثوم Herthom يطلب منه دفع الجزية للمسلمين، فلما رفض هيثوم ذلك دارت معركة ضارية بينهم وبين بيمبرس، تمكن فيها من الانتصار عليهم وأسر أماليو Asaleo ابن هيثوم، وأعمل المسلمون في بلادهم الخراب والتدمير ما يقرب من عشرين يوما. وهدت مملكة أرمينيا نهيا مباحا أمام المسلمين الذين هاجموا المنيصة وأندة وأباس وطرسوس كما أصاب مخينة سيس العاصمة للكثير من الهدم والتفريب كذلك همت بعض القلاع التابعة للدلاوية إلى أن اضطر هيثوم في النهاية بعد فشله في الحصول على حليف له، إلى طلب الصنيع من بيمبرس في ولده أماليو مقابل الهدية، وتسليم عند من المدن والقلاع إليه فرد عليه بيمبرس قائلا «إن نحن مانا رغبة في الأموال والمدن وغيرها وأما لنا شخص صدق أسير عند المقلول يسمى سقر الأشقر تظلمه وتسيره وتخذ ولدك» وفعلا فعل هيثوم ذلك وتسلم أبه عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م^(٢). وبهذا تفرغ بيمبرس للمسؤوليات التي لقيت على كاهل المسلمي بحملة لؤيس على تونس وحتى يكون قائرا على إظهار نور مصر، باعتبارها قلب اعروية والإسلام، تجاه تونس فإنه لم يحل بأي جهد أو مساعدات مادية أو عسكرية لتونس لما في ذلك من تقوية للجهة الإسلامية كلها سواء في المشرق أو المغرب^(٣).

ويجدر بنا بعد أن تعرضنا لأحوال العالم الإسلامي وبلاد المغرب بصفة عامة وتونس خاصة، أن نلقي الضوء على أحوال غرب أوروبا بعامة وفرنسا على وجه الخصوص لأهمية ذلك بالنسبة لموضوع البحث.

إن فكرة فرق اللاتين لتونس ليست في حقيقة الأمر بالفكرة الجديدة على أوروبا. فقد مرت هذه لفكرة بمراحل عديدة إلى أن تبلورت أهدافها وترجمت في شكل العديد من الحملات كان لفرنسا منها نصيب الأسد فقد كان الاعتقاد السائد لدى غرب أوروبا آنذاك أن امتلاك بيت المقدس من جديد لن يتأتى إلا بعد استئصال شائفة مصر رأس الأفعى، تلك العبارة التي

١- ابن عبد الظاهر الرويش الزاهر، ص ١١٢٢، المرقري السواه، ج ٢، ص ٦٧

٢- ابن العبري: تاريخ مصر الدول، ص ٤٩٨-٤٩٩.

٣- مسائل حول بالتفصيل مواقف بيمبرس من حملة لؤيس على تونس في الفصل الثالث

قالها روبرت كوث ارتوا أثناء حملة لويس التاسع الصليبية في مصر . ولكن المسيرة نحو مصر أصبحت أشبه بذكرى أليمة كال الغرب يقتنى أن ينساها

لذا كان لابد من البحث عن طريق غير مباشر يؤدي إلى نفس النتيجة، فكتبت توتس في الشمال الأفريقي ولم يكن ثرعم فرنسا لفكرة العملة الجديدة نحو تونس أمرا جديدا بالنسبة للأوروبيين ، بل كان عاديا أن تكون فرنسا هي أكثر الدول تحمعا لهذا الغرض. فمن فرنسا خرجت أول صرخة ضد المسلمين عام ١٠٩٥م من كليرمونت أيام البابا اريان الثاني ، وكليرمونت مدينة فرنسية والبابا فرنسي الأصل، وكان أول راعب اضطر في سلك الحملة الصليبية الأولى هو بطرس التاسع الفرغسي . نصف إلى هذا دور جد لويس التاسع فيليب أغسطس أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة .وإن سينا فلا ينبغي أن تنسى حملات لويس التاسع الثالث ضد العالم العربي الإسلامي. ومع ذلك يجب الايديب عن البال أن الحركة الصليبية من صميمها عبارة عن حملات جامعة قام بها الغرب الأوروبي من القضاء إلى القضاء ضد العالم العربي الإسلامي بلجمعه . وإن مساهمة أي دولة من دول الغرب في أي حملة من الحملات كان يتوقف على ظروفها من سياسية واقتصادية واجتماعية السائدة وقت قيام حملة ما . ولما كانت فرنسا تتمتع بظروف أكثر استقرارا، ومهاسة اعتبارا من القرن الثالث عشر الميلادي/ القرن السابع الهجري ، ولذا كان أسهامها في الحركة الصليبية واضعا ومميزا ، بل أن بعض الحملات مثل حملة لويس التاسع كانت فرنسية الصبغة والطابع ، لقد أعطى هذا لفرنسا دور الزعامة على ما عداها من دول الغرب لتبني الفكرة الصليبية. واستمر هذا الوضع قائما حتى نهاية الحروب الصليبية المتأخرة في ثريات القرن الرابع عشر الميلادي (أواخر القرن الثامن الهجري) .

ويروى ابن خلدون حقائق هامة عن فرنسا تؤكد زعامتها في الحركة الصليبية ، منها «أن افرنسة أمة عظيمة من أعظم دولهم يعني دول الغرب وقد استقل أمرهم بعد الروم وصنرا من دولة الإسلام العربية فجمعوا إلى ملك بلاد الشرق من ناحيتها وتقلوا على حذر البحر الرومي. ثم سمعوا إلى ملك ما وراء البحر من أفريقيا وبلاد الشام والاستيلاء على بيت

المقدس، وطال ترددهم في ذلك ... وكان ملكها يقصد لويس التاسع من أعظم ملوكهم لذلك العصر ويسمونه رى الافرنسى^(١) ومعنى رى في لغتهم ملك افرنس^(٢).

أما ابن وأصل فيتعرض الفريس قائلا هو كان هذا ريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجة وأشدّهم بأسا، وفرنس هي لغة من الفرنج^(٣). وجاء في ذى الحسان «أن لويس كان من أجل ملوك الفرنج وأعظمهم قدرا وأكثرهم عسakra، وأوسعهم بلادا وأكثرهم أموالا^(٤)» وكتب العمري يقول «إنه من أجل ملوك الفرنج قدرا .. وهو هريق النسب في الملك القديم والملكة المأهولة عن السلف .. وله مدن كثيرة عامرة وعساكر كثيرة وافرة» كما جاء في موضع آخر من كتابه أن لويس «ملك جليل». لويس في ملوك الفرنجة أهرق منه نسبا ولا أرسخ في العليا (إصلاح^(٥))

ورغم كل هذه الأدلة القوية التي تظهر أهمية فرنسا السياسية والعسكرية بين بقية بلدان الغرب، ورعايتها للحركة الصليبية على ما عداها من الدول، وسعيها الدائب لتتاجر أي دعوة صليبية ضد الإسلام، إلا أن هذا لا يمنع أن لكل جواد كبوة، والكبوة التي مرت بها فرنسا أبان الحملة كانت ممثلة في العديد من المشاكل السياسية والاقتصادية والمذهبية داخل فرنسا نفسها ففي إنشاء غياب لويس التاسع عن بلاده في حملته ضد مصر كانت القائمة يشقون الحكم هي أمه الملكة بلاش القشتالية^(٦). وقد وصلت الأنباء إلى لويس بعد فك أسرهم من مصر ورحيله إلى بلاد الشام بوفاته والله وكان ذلك في أوائل عام ١٢٥٤م / ٦٥٢هـ. ويقول

١- رى الافرنس هي إحدى التسميات التي أطلقت على لويس، ومنها أيضا بولش، وريد افرنس، والعمري من هذه التسميات أنظر جزييف سيم الدوان الصليبي على مصر. الاسكندرية ١٩٨٤، ص ٧٧، ٢٠٠

٢- ابن حنبل: المعبر ولويان الميثاق والمعبر، ج ٥، ص ١٨٢، ٢٥٩

٣- ابن وأصل (جمال الدين لبيب عبدالله محمد بن سالم) - مفرج الكروب في سبب لبيب، ج ٢، تصدير خمس (مخطوطة)، لوحة ٢٥٠ (ب)

٤- ذى الحسان: الملوك الصليبي، ج ١، ورقة ٢٥٨ أ.

٥- العمري (شهاب الدين، أبي العباس المعروف بابن مشرقي) - مشاهير ملوك الفرنج، ص ٢٠٦

٦- Jourdain, Jean de, Histoire de Saint Louis, texte original du XI^e siècle accompli d'une traduction en français moderne par M. Natalis de Wailly, Paris, 1874, p. 331.

جوانفيل أن لويس قد تفرغ كثيرا بهذا الحبر، وأن ذلك أثر على معنوياته وعلى جميع خططه بالأراضي المقدسة^(١). فقد كان أمن فرنسا وسلامتها أمام جميع المخاطر لا يمس شيئا بالنسبة لـ لويس ، طالما زمام الموقف بيد أمه ، ولكن بعد وفاتها شعر بالأخطار التي أصبحت تهدد البلاد، وحاصلة من قبل جارته إنجلترا والبيلا الإقطاعيين ، وأدرك أن بقاءه بعيدا عن بلاده سيكون له أسوأ العواقب على سلامة فرنسا وأمنها ، فقد وصلته الأنباء بتفجير المروءب الأعلى داخل البلاد، وأزدياد مطامع الشخصيات الكبرى في الحكم ، وأضحت فرنسا تنهب للصراع والتنافس بين شقيقى لويس شارل كونت أمجو والعونس كونت بواتييه ، هذا ، بالإضافة إلى تجر الأزمات السياسية الخارجية القديمة بين إنجلترا وفرنسا ، فقد انتهز ملك إنجلترا هنري الثالث هذه الفرصة ، وقدم إلى فرنسا محاولا إثارة المظاهرات والاضطرابات ضد ملكها الغائب عنها، وذلك بتفجير الصراع من جديد داخل مقاطعات نورماندي وجاسكونيا وبواتييه ، مستغلا في ذلك المرض الشديد الذي ألم بالفونس كونت بواتييه وقتل سيمون دى مونفراوت حاكم جاسكونيا في قمع الاضطرابات داخل بلاده، ولم تكن بويا همدى حافية على كبار القادة الفرنسيين آنذاك ، فالكى يعلم أن اتفاقية السلم المعلقة بين البلدين قد توشكت على الانتهاء ، مما زرع من ثقة فرنسا بنفسها في كبح جماح إنجلترا والتصدى لتزعزعتها العدائية المتصلة ضد فرنسا منذ أيام أجداد لويس التاسع^(٢) ، أضف إلى ذلك السياسة العدائية المتصلة بين كل من البابا انوسنت الرابع Innocent IV (١٢٤١م - ١٢٥٢م) والإمبراطورية البيزنطية ، والتي أثرت بصورة فو منفرة على ازدياد الأحوال سوءا داخل فرنسا^(٣) ، وإذا لم يكن أمام لويس خيار في أمر البقاء ببلاد الشام أو الرحيل، فقد رجعت كافة رحيله عنها ومات أمام عيبيه الذكريات الالهية التي مر بها في مصر^(٤)، والآمال العريضة التي نضجت هناك دون

١- جوزيف شبيب العنوان السليمى على بلاد الشام، ص ٢٤١ .

٢- Nangis , Guillaume de, Vita Sancti Ludovici regis Franciae , Ed. R. H. G F , t. ١٢٠ , -٢ p. 389 , cf also : Kitchin, A History of France , vol. I, Oxford, 1968 , p. 347

٣- Bray A. The Good St. Louis and his times, London , 1870, p. 292 -٣

٤- المقريزى السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨٧ ، أبو الحسن الميهل الصقلي ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، ابن رستم : مرآة الصبور ، ج ٢ ، ص ١٩٨-١٩٩ .

أن يتمكن من تحقيق ثمرتها^(١) لا في مصر ولا في بلاد الشام، خاصة بعد أن أصبحت بلاد الشام في الأخرى مرتعا خصباً للمشاعلات والفتن بين الصليبيين وبعضهم البعض. وضاعت الكلمة الموحدة وضاع الأمل في جمع الشمل من جديد، وتكوين جبهة قوية بين المشرق والشرق. هذا، في الوقت الذي بدأت فيه أوروبا تنصرف تدريجياً عن مساعدة الكيان اللاتيني المتداعي في المشرق بسبب انغماسها في مشاغلها الخاصة، يضاف إلى ما تقدم أن من بين الأسباب التي جعلت برحيل لويس إلى فرنسا ذلك الحظر الجاثم أملهه والمقصود به التنازل، خاصة بعد أن فشلت كل محاولاته السلمية لعمل على استمالتهم للمسيحية على المذهب الكاثوليكي الروماني، والقيام بعمل مشترك ضد المسلمين. وكانت تلك هي سياسة البابوية بصفة عامة منذ أيام البابا انوسنت الرابع اعتباراً من أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (تواسط القرن السابع الهجري). لقد أضفى التنازل عليها بهند العالم بشقيه المسيحي والإسلامي، وتعامل حان التنازل مع لويس والبابوية بمنتهى الحكمة والذكاء، وترك لهم العمار في مصر، حتى تتشغل مصر عن الخلافة العباسية في بغداد التي كانت في طور الانهيار إلى أن أتى عليها التنازل. وقد ظل التنازل مصدر رعب بالنسبة للويس التاسع فترة من الزمن. وعلى الرغم من اضطرية القاصية التي وجهها بيبرس إليهم في حين جالوت، إلا أن النتائج التي تترتب على ذلك تركت آثارها على أوروبا بصفة عامة وفرنسا بوجه خاص. فبشكل المزدوج يبدو أنه على الرغم من زعزعة وإسهاق قوة التنازل على يد بيبرس، إلا أنه قامت صداقة بينهما بعد ذلك، وقام بيبرس بالاشتراك مع يوركيه خان كاستشاك، بعمل موحد ضد مغول بلاد فارس، وأرسل لهم فعلاً أسطولاً ضخماً وشاركهم في هذه المهمة العنيد من أمراء أوروبا إما طوعاً أو كرهاً. وقد وجهت هذا الأسطول عاصفة قوية أثنت على معظم سافره، وما تبقى منه رسا في ميناء عكا^(٢).

Archer, T. A. & Kingsford, the Crusades, London, 1919, p. 401

١٠٦

٢- كاستشاك مدينة تقع على البحر الأسود أنظر Reinoud, p. 516

٣- لم يتسن لنا معرفة تاريخ هذا التحالف الذي سمى بين بيبرس ومغول كاستشاك ضد مغول فارس

٤- كانت امبراطورية التنازل حاكمية ومسيحية وظلت هكذا حتى عام ١٢٧٠م/٦٦٨هـ. فكان حينئذ التنازل في كاستشاك بديهي بالولاء لسيد بحر غير ذلك القارس في تسمية الصليبيون ببلاد ما بين النهرين، وكان العصر الآخر من التنازل لارتباطهم بعلاقات محنة مع حاكم آسيا الصغرى الفارسي خاصة بعد موقعة عين جالوت الشهيرة. أنظر عن ذلك، والمزيد من التفاصيل عن التنازل في هذه الفترة

وعلى الرغم مما في هذه الرواية من مبالغة ، إلا أننا لا نستبعد أي محاولة يقوم بها انتشار للتقريب من بيبرس بعد تلك الشورى القاصمة التي وجهها إليهم في وقت كانت حصر في أوج قوتها ومركز الثقل في الصراعات القائمة يميل موضوع إلى جانبها . وليس من الغريب أن يلي بيبرس نداء انتار . فكما سبق القول لم يكن بيبرس مستأنا من عقد صداقات مع أعدائه طالما أن ذلك لن يكون على حساب الجبهة الإسلامية بل لحصلتها وقد ضربنا أمثلة على ذلك . ولذا فربما لجأ إلى نفس الأسلوب مع حاش الانتار حتى يقربه من الإسلام ويحببه فيه ، خاصة وأن المناظرات كانت قائمة على قدم وساق في بلاط خان التتار بين المسلمين والسيطرة ، والكاثوليك واليهود وقد أنت جهود بيبرس ثمارها واعتنق الانتار الإسلام في نهاية الأمر^(١) ، وبذلك أمن شرهم وركز اهتمامه على استئصال شجرة الفرج من بلاد الشام أما سحرار العديد من أمراء وحكام أوروبا مع يوركيه خان كابتشاك فهذا مرجعه إلى حالة الرعب التي عاشوا في ظلها فترة غير قصيرة من الزمن عندما كان الانتار يهددون دول الغرب ، والتكريا الأليمة التي تركها التتار في نفوس الجميع فلم يمتنع أحد عن طلبه ندامهم .

أما العلاقات بين روما والقسطنطينية ، وكلمة أدق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، فقد كانت خلال الفترة التي وجهت فيها الحملة إلى تونس سببة للغاية إذ أراد العداء بين اللاتين والكاثوليك والأعريق الأرثوذكس ، واتخذ مظاهر عديدة من العنف ما جعله وصمة صار لكلا الكنيستين ، وقصة غير مشرفة للعالم المسيحي أجمع^(٢) . وكما نكد أحد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو ستيفان راسيمان في مؤلفه من «العضارة البيزنطية»^(٣) ، أن هذه العلاقات للمهنية المتفاقمة بين شقي العالم المسيحي قد حالت بين كل من روما والقسطنطينية وبين

Reinard , p. 516 , Deguignes, Histoire generale des Huns, des Turcs , des Mongols et = des autres tartares Paris, 1756-8 , vol . III, pp. 527; Howorth, H., History of Mongols, London, 1876-1927 , vol . IV., pp. 93-4 .

Atiya, A.S, Crusade in the Later Middle Ages, London 1934, p. 256 , Arnold, T W. , -١ Preaching of Islam, London, 1935, p. 219 , Conder, C.R, Latin kingdom of Jerusalem , London, 1897 , p. 366 .

٢- جوزيف نعيم يونسف العنوان المطبوع على بلاد الشام، ص ٢٠

Runciman, S., Byzantine Civilization , London 1948, pp. 124-8

تقديم أي عون إيجابي للملك لويس التاسع حين كان يستعد للقيام بحملته ضد تونس، فلم تكن بيزنطة إذن مستعدة للمساعدة في حملة صليبية جديدة لأن العلاقات بينها وبين مسيحيي غرب أوروبا كان يسودها الغشور والكراهية بوجه عام. ولم يسأل البيزنطيون ما فعله الصليبيون بهم في الحملة الصليبية الرابعة عام (١٢٠٤م / ٦٠١هـ) تلك الحملة التي فشلت في تحقيق أهدافها سوى طلب القسطنطينية ونهبها بعد أن تأسست أميرا طوربة لاتينية بها. وقد أدى ذلك إلى اتساع شقة الصراع والبغضاء بين شرقي العالم المسيحي وشرقي اللاتين في القسطنطينية الأمرين، خاصة بعد أن قامت حكومات بيزنطية في القسطنطينية في بيقية في آسيا الصغرى أو في طرابيزون على البحر الأسود أو في شبه جزيرة الباليونير في حل هذه الظروف التي كان يمر بها العالم الأوروبي لم يكن من السهل على لويس التاسع توجيه الاهتمام إلى مملكة اللاتين في القسطنطينية قبل استرداد البيزنطيين ملكهم الضائع ولكنه اعتبرها جزءا لا يتجزأ من كيانه في بلاد الشام. وقد واثته الفرصة حين اشتدت الخلافات بين حاكمي طرابيزون ونيقية المتناحسين إلى مناصرة كومنن العظيم Comnen على يوحنا فاتاس John Fias الذي كثيرا ما أزعج اللاتين بالقسطنطينية. وعلى الرغم من أن تلك الخطوة قد شنت أنز طرابيزون ضد بيقية. إلا أن الصراع استمر طويلا بينهما إلى أن تمكن الامبراطور ميخائيل باليوولوجس Michael Palaeologos من وضع حد نهاية لهذا الصراع في عام ١٢٦١م / ٦٥٩هـ^(١). وهكذا فقد لويس الأمل نهائيا في مساعدة بيزنطة له وهو يستعد لتوجيه حملته ضد تونس.

أما أحوال الكيان الصليبي المتداعي ببلاد الشام أثناء إقامة لويس في الشرق فلم تكن أحسن مما كانت عليه في غرب أوروبا. فقد استشرى الفساد والفسور والتمزق من كافة طبقات المسيحية هناك لدرجة أنه فقد حماسه في البقاء في الأرض المقدسة وفكر في العودة إلى بلاده وقد شجعه على ذلك وفاة أمه بلاش حسبما أسلفنا^(٢) فاجتمع مجلسه

١- Jonville, pp. 272-274, Cf. also Guizot, M., St. Louis, London 1809, p. 135

وأما جورييف بسم العرب والروم واللاتين، الإسكندرية، ١٩٨٣، ص ١١١، ToA، ص ١٠٠، العرب
القسمة، ج ٢، ص ٢٤٥

٢- Nungis, Vie de Saint Louis, p. 139, Cf. also, Archer and Kugiford, p. 410

الاستشاري وعرض عليه الأمر، ويذكر أن الواجب يحتم عليه العودة إلى بلاده بعد أن قدم للقضية الصليبية كل ما أملاه عليه ضميره وأخلاصه لها. ومن الغريب أنه وسط هذا الضياع والتمزق، وفي معمعة هذه الحالة المتردية التي وصلت إليها الفكرة الصليبية، يذكر رينو أنه أثناء اجتماع لويس بمستشاريه في ميثاء عكا قبل الرحيل أعلن عن نيته في القيام بحملة صليبية جديدة ضد تيار الإسلام، وأنه أبلغ فعلاً مندوب البابا بمدينة يافا عن رغبته تلك، وطلب منه أن يبلغ كل أمراء الغرب بانتظار صدور إعلان رسمي لأحراج هذه الفكرة إلى حيز الواقع، وأن تبلغ كل الكنائس بذلك^(١).

وهذا لابد لنا من توخي الحذر في قبول هذه الرواية فالواقع أن حالة أوروبا بشقيها وأفريقيا الشرق كانت تدعو إلى اليأس والتمسك. وأصبحت الفكرة الصليبية أشبه بمغامرة فاشلة وقصة خاسرة با لسبب لهم وكان صوت العقل لئلا لا يمكن أن يملأ عليهم بفكرة أفضل من محاولة راب الصمدع أولاً لا الدعوى للحرب الجديدة^(٢) فقد شاب الفكر التام الفكرة الصليبية آنذاك إلى أن تقلصت وانكمشت، وبدأ الناس في الغرب يعضون من حولها ويتشككون في جدواها وفائتها بعد أن هفت أوروبا زهرة شبابها فوق أرض المعركة بين قنيل وأسير وجريح وزاد الشعور بالمرارة والعدو ضد المبادئ ماحياء الفكرة الصليبية في الغرب، وأصبح الرأي العام المعاد للحرب ضد العرب أشبه بسريوات تيار قوى من الغرب، فكان هذا سندا قويا لموقف العرب في النضاع من قضيتهم^(٣). وما يزيد ذلك أن فكرة الأعداد للعملة التاسعة والأخيرة ظهرت بعد الاجتماع الذي عقده لويس بحوالي اثنين وعشرين عاماً، أي بعد أن راب لويس الصمدع الذي أحاط ببلاده، ويعد أن استردت أوروبا أنفاسها اللاهثة بعض الشيء؛ والحقيلة التي لا يمكن أن تغفلها أن رينو ربما قصد من روايته هذه أن لويس كانت تحدوه فقط الآمال المراض بحملة جديدة ضد المسلمين هو عار الهزيمة التي منى بها في الشرق الأدنى الإسلامي، ولكن رينو بائع في التوثيق الدعوة لهذه الحملة. وما يؤكد هذا الرأي أن لويس كما

Reinhold, p. 517.

-١-

٢- موريوك، العرب للقصة، ج٢، ص٢٤٩.

٣- العنوان الصليبي والرأي العام الغربي: مقال الدكتور جويرف سمم من سلسلة المحاضرات العامة.

الاستكشافية ١٩٦٨، ص٥٢.

يقول مويروند لم تزنه المحن إلا كرامية ورغبة في الانتقام من المسلمين ولم تقش أبدا على روح الجهاد ضيقهم. فقد كان لويس أشبه في عداك لهم بقطعة الذهب التي معها موت عليها الأيام قلن تتخبر وإن تضعف^(١). ولعل ذلك يرجع إلى تلك التشنج الدينية المتعمقة التي استلته عليها أمه بلانش منذ نعومة أظفاره ، حينما كانت تقول له أنه آمن عليها أن يموت من أن يتعرف أشيا يقضب الله^(٢). ولقد انعكست عليه هذه التربية وسيطرت على حواسه ومشاعره وتركت آثارها بشكل أو بآخر على مشاريعه وتصرفاته وما يهمنا في هذا الأمر أنه بعودة لويس إلى فرنسا في أوائل عام ١٢٥٤م/ ٦٥٢هـ تمكن من فرض سيطرته على البلاد ورفع الألام عن شعبه ، وأزال المحن وقضى على الاضطرابات والصراعات المذهبية التي تعاقم خطرهما عن فترة غيابه يقول جوفانيل «لقد عاد لويس إلى بلاده ، وحفظ العدل لشعبه، وكنت أشبهه مرات عديدة في فصل الصيف حين كان يسمع القداس وحين كان يتجول ليروح من نفسه ثم يمسح أحدا من شعبه مقلدا من أن يلتقي إليه، وعلى حاجته التي يعرضها عليه ، سواء كانت مساعدة أو حلا لمشكلة فكان يستمع لكل الشاكين ، وكان يتفق بسفاه على شعبه من المحتاجين ، سواء كانوا أرامل أو يتامى أو ممن تحتاج لتقود أزواجها^(٣). ولم يفعل لويس ذلك إلا من نقالة نفسه ورغبته الصادقة في أن يسهو عن فرنسا كل ما ألم بها من مرارة أثناء غيابه بها وهكذا بفصل حكمته وقدرته استقرت الأوضاع سريعا داخل بلاده^(٤). ولكن لم يلبث عن دعه ولا عن ملوك وأمرأ أوروبا تلك القوة الإسلامية الأخذة في النمو والتي باتت تهدد بقايا الوجود الصليبي المتداعي في بلاد الشام ، حاضرة ما فعله الظاهر بيبرس في أقالق وقيسارية وانطاكية وأرسوف وقبرها من المدن التي سقطت شأها وبسرعة في قمطته .

١- مويروند : الحروب المقدسة ، ج ٢، ص ٢١٤

٢- Jorville, pp.10-38, 49 ; Geoffroy de Beaulieu , Vita et Sancta conversatio Piae me -
moriae Ludovici noni regis Francorum, Cf Michaud, Cross, VI , partie, 1822, p. 302, Guil-
de Saint - Patrus : les Miracles de S. Louis , pp. 195-197 .

Chronique Anonyme des rois de France, R.H.G.F., t. xii, p. 83

-٢

وأبضا مويروند : الحروب المقدسة ، ج ٢، ص ٢١٢ .

٤- أبو الحسن : الفيل المصاني، ج ٢ ، ورقة ٢٥٩ (٦)

وأصبحت أحيالام لويس وأوروبا العلوية سهلة في أيدي ميريس والسطمعه لدرجة أن ميريس أرسل إلى لويس رسالة مألوفة الاستغفار؛ قال له فيها «أنا ملكنا اسطاكيا بالسيوف والجمود التي تركت قبيل رحيلك - ولو حصرمت وشاهدت قبور موتاك قد بقرت وقصورك وحصونتك قد حرقت وحوات إلى دمار ، فصعقت من هول ما رأيته»^(١). كان هذا الوصف لحال الصليبيين ببلاط الشام من العوامل الرئيسية التي جعلت من فرنسا المستقرة وقتها شيئاً أشبه بفوهة البركان التي تنفجرت من أجل القضاء للعملة الجديدة ضد ديار الإسلام ، وكانت وجهتها تونس هذه المرة وقيل الاستطراذ في موضوع الحملة والتماية والتبشير بها في أوروبا لايد من استخلاص الأسباب التي أدت إليها ، وهي أسباب عديدة متشابكة متداخلة في بعضها متقاربة التأثير ما بين رئيسية وثانوية مباشرة وغير مباشرة.

لم تكن حملة لويس على تونس ولادة قيسرية لمغامرة جديدة، بل هي فكرة قديمة مضجت ونمت على مر قرون من الزمان ، وجسدت أهدافها في العديد من الحملات كانت آخرها تلك الحملة ضد تونس. ولم تكن تونس هي بيت القصيدة، بل كانت مصر هي مكن الطور والقوة الإسلامية التي أصبح الغرب يعمل لها ألف حساب. ولقد أدرك لويس وكبار سياسة أوروبا أن قصد مصر مرة أخرى وبصورة مباشرة مثمما حدث في حملته الأولى عليها، من المؤكد أن نتائجها لن تكون أفضل من تجربته الأولى عام ١٢٤٨م / ٦٤٦ هـ . فقد تمكن المصريون وقتها من انزال هزيمة طاحنة به ويرجاله على ضفاف النيل^(٢)، حين تم القبض عليه وأسر بدار ابن لقمان في المنصورة ومعه جمع كبير من كبار قلائته وشقيقاه شارل كونت انجو ولفونس كونت بولتييه إلى أن تمكن من الهداء نفسه بأموال كثيرة ورحل عن مصر بعد أن سلم المصريون مدينة بعباط . وقد أهدرت بالفعل كرامة لويس، وتحطم كبرياؤه فسمى جاهدًا للرحيل إلى بلاد الشام لئلا في جمع الشمل من جديد فكان نهابه إليها حملة متكاملة رغم عدم انتمائها بالطابع العسكري. إلا أنها أخذت طابعًا سياسيًا اصلاحيًا بعد أن فشلت جهوده في قيام

١- ميريون د المرحم السابق ، ص ٢٤٥

٢- أشار ابن القنفذ إلى أن سلطان تونس آنذاك الأمير أبو زكريا الحفصي ، كان قد أرسل إلى صديقه صاحب مصر ، الصالح نجم الدين أيوب، يطلب بقدوم هذه الحملة ويطلب له أن أسست في تقديم المعونة العسكرية ولكنه لم يتمكن من ذلك خوفًا من عدوه صاحب مملكة الجايزة له وحولها من أمراء أفريقيا والمريد أنظر ابن القنفذ ، الفارسية في تاريخ الدولة المظمية- ص ١١٢

إلى هذا سبب سياسي آخر لا يمكن تجاهله ألا وهو الدور الذي لعبه شارل كوت أنجو آخر لويس التاسع في اقتاعه بالتوجه إلى تونس . فقد أصبح شارل بعد أن تلحق الهزيمة بمعفرد ابن الإمبراطور الألاتني فريدريك الثاني^(١) ، ملكا على جنوب إيطاليا وصقلية ، وكان بدو حطس يدفعون جزية سنوية لمعفرد مقابل حماية تجارتهم بالمزيرة من قرصنة الصقليين . فلما اعتلى شارل عرش صقلية رفض المستعصر الاعتراف بحقوق شارل السياسيين وأطنوا جميعا تمردهم على شارل^(٢) ، فكان ذلك سببا سياسيا حاسما في قيام الحملة وتوجهها ضد تونس ، يضاف إلى ما تقدم أن شارل مع في اقتناع أخيه بالتوجه إلى تونس تحقيقا لأماله العريضة بتوسيع أملاكه على حساب شمال أفريقيا ، وتوسيع مجال تجارته في حوض غربي البحر المتوسط . ولقرى هذا وذاك ، فإن لويس بعد أن استشار مجلسه عن أفضل الاتجاهات التي تفتح الطريق إلى مصر ، بكرروا أن تونس أفضلها ، لأن الطريق من سردينيا إلى تونس يستغرق ثلاثة أيام فقط ، في حين أن الطريق من سردينيا إلى مصر يستغرق ثلاثين يوما ، ولذا رغب الملك الفرنسي للرب بالمسافة بينها وبين مصر سواء بالبر أو بالبحر . وكان اختيار الفرج لسردينيا بالذات لأنها تقع ضمن أملاك أخيه شارل وكان لويس قد عقد آمالا كبيرة عليه في توطيد دعائم هذه الصلة .

وبناء على هذا ، فإن فكرة اختيار تونس قد صاحبها العديد من المناقشات إلى أن استقر الأمر أخيرا عليها لموقعها الاستراتيجي الممتاز الذي يعد من أهم الأسباب ، لاقتصادية لهذه الحملة . فحينما بذل شارل كوت أسحو جهوده لاقتناع أخيه بالتوجه إلى تونس ، كان هذا ناعا من مصالحه الخاصة وأطماعه التجارية على ساحل شمال أفريقيا حسما أسلفنا ، ورغبته في توجيه الضربات ضد المغاربة الذين برعوا في التجارة ، وركوب البحر لدرجة أنهم نافسوا ويشدة انتجار الفرج في صقلية ، واستفحل خطرهم على أملاك الصليبيين في إيطاليا ، منذ أن استقلوا عن جسد القوة الأموية ببلاد الشام وسعوا حامدين لتكون أسطول بحري عظيم بلغ ذروته في القرنين الثالث والرابع للهجرة (التاسع والعاشر الميلاديين)^(٣) . ويصيف بانجي قائلا

Nonges, p. 439 . Cf. also Guizot, St. Louis, p. 135

-١-

وأيشا حسن عبد القوياب: خلاصة تاريخ تونس ص ١١٢

-٢- مولرود: المرجع السابق، ج ٢، ص ٢٤٩

-٣- أسيد عبد العزيز سالم وأخرون . البحرية المصرية، ص ٤٦٦، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج ٢، ص ١٢٢٨ وأيشا
Sogor, Saint, Louis, pp. 155-157

«أن تجارة تونس أصبحت باستطاعتها الوقوف على قدم المساواة مع تجارة الصليبيين عامة»^(١). ولذا وجدنا شارل مليتا باللهفة نحو توسيع سلطته باحضار سواحلهم وقمع تجارتهم^(٢) وقد شجع العديد من القادة المسيحيين المضطربين في سلك الحملة الملك لويس قائلين له «أن أحد تونس سيغم الخير علينا جميعا» ، فهي مليئة بالنهب والعصاة والثروات الكثيرة^(٣) وهذه اشارة واضحة تدل على الاستقرار الاقتصادي الذي كانت تتمتع به تونس آنذاك ، حتى أن أحد المؤرخين ذكر «أن تلك الحملة إما جاءت لتكون سببا في اتلاف الأموال الكثيرة التي تركها أبو ركريا لابنه المستنصر الذي اضطر أمام هذه الصلحوة الصليبية إلى اخراج الأموال ونفاقها على الأجناد والحصون والأعراب استعدادا للقاء المغزاة»^(٤)، مما كان له أسوأ الأثر على ظروف تونس الاقتصادية فيما بعد. وفيما يتعلق بالأسباب الاقتصادية لهذه الحملة، تلك الدوافع التي لا يمكن تجاهلها ونحن في صدد تحليل عوامل قيامها . يقول ابن خلدون «إن لويس لم يلتزم بالمعاهدة التي عقدها مع المصريي بعد فك أسره في المنصورة»^(٥) ، فغرم على التوجه إلى تونس متجنباً عليها ، وتعلل بأن بعض تجار المغرب اشتركوا إياه بأنهم ذهبوا إلى المستنصر يشكون له أحد رجاله ويسمي «الليالي» وكان المستنصر قد قتل هذا الرجل^(٦)، شكوا إليه بأن لهم لديه مبلغ ثلاثمائة دينار . ولم يكن معهم ما يستوفون إياه، وطلبوا من المستنصر بأن يدفع لهم هذا المبلغ فرفض ، فشكوه إلى حاكمهم الذي امتنع من المستنصر وعزم على إغزوه^(٧)،

١- لقد نشطت تونس في تصدير العيوب والحرير وبيت الزيتون والشمع والعوت واللح والأكشمة والمرجان وبعض الأسلحة والجنود والصفوف وكانت تستورد بعض أنواع الطيور والطور والخشب المسوق والأسلحة والزرايب والخطوط والتكائن وغيرها، انظر محمد مزالي تاريخ افريقيا الشمالية، ص ٩٩

٢- مونروند : المغرب للقبلة ، ج ٢ ، ص ٢٤٩

٣-

Nangis, pp. 478-479 .

٤- ابن أبي دينار. الخراس في تاريخ افريقيا وتونس، ص ١٢٨ .

٥- حول التزام لويس بالمعاهدة من صمد انظر جيزيف سديم الامور الصليبي على مصر، ص ٢١٨-٢١٩ ، العدوان الصليبي على ملك الشاه، ص ٩٢

٦- نذكر أن هذا الرجل كان يعمل في رتبة وزير رمي المستنصر العفسي وقد أسند حكما بأعدائه ولم يشتر لنا معرفة سبب هذا، انظر محمد مزالي والمشير بن سلامة تاريخ افريقيا الشمالية، ص ١٨٠

٧- ابن خلدون : المعبر وديوان الشاه والحرير، ج ٦ ، ص ٢٩٠-٢٩١

وعلى الرغم من سطحية هذا الدافع وعدم إمكان التسليم به ، لأنه من غير المعقول أن حادثاً فردياً مثل هذا تعد له حملة كبيرة تشمل غرب أوروبا من أقصاه إلى أقصاه ، إلا أنه يلقي الضوء على طبيعة العلاقات الاقتصادية بين تونس والغرب ، والتي اتسعت بالطابع العدائي وشابها الفتور في بعض الأحيان. وكان هذا عاملاً مساعداً للانتقام من التوسيع.

وإلى جانب ما تقدم ، يوجد العديد من النوافع الدينية للحملة فقد أجمع عدد غير قليل من المصادر الأجنبية على موضوع العرض الذي قدمه المستنصر لويس بأعلان رغبته في ترك الإسلام ودخول المسيحية فينكر مانجي «أن ثمة مراسلات وسفارات متبادلة بين ملك تونس ولويس ، كان المستنصر يعرض فيها ميوله الصادقة تجاه المسيحية ، ورغبته في ترك الديانة المحمدية ، لدرجة أنه عندما توجه لويس إلى تونس لم يكن لديه أدنى شك في أن سيولف في ادخاله في المسيحية»^(١).

ولعلنا بدأ حلم لويس يكبر ، وأخذ يتعمق بنفسه وهو ينشر الدين المسيحي في شمال أفريقيا وبما زاد من تمسوره هذا تلك المعاملة الطيبة التي كان يستنصر تجاهه المسيحيين لدرجة أن لويس كان يحدث نفسه قائلاً «حتى لو لم أتمكن من نشر المسيحية في تونس ، فسأكون لي العطف في جمع محاصيل هذا البلد مع بداية شهر أغسطس القادم»^(٢) ولم يكف لويس عن التعمق والدعاء في كل صلواته لتحقيق هذه الأمنية التي كانت تهبش في صدره . وكان دائماً يبتهل إلى الرب قائلاً «أيها الرب أسي أعقد في هذه المرة حين دهابي إلى تونس سأكون الصديق والأخ والضيف وإنني سأقوم بهذا العمل تلك الإرادة العليا»^(٣).

١- Nangis , p. 478 , Michaud , Crous VI p. 202 , Cf also Hassall , France , p. 38 .
Archer and Kuggsford , p. 40 , Guizot , St Louis , pp. 135-136 , Miller , Hist . t. II
pp. 43-44.

٢- أغسطس ١٢٧٧ م / محرم ٦٦٩ هـ ، هو نفس الشهر الذي شهدت فيه الحملة أسوأ مراحليها على أرض تونس بعد تفشي الوباء في الجيش ، وهذا ما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد.

Nangis , p. 477 , Michaud , p. 202 .

وهكذا تمكن لويس من اقتناع الجميع بأن الذهاب إلى تونس فيه أرضاء للسيد المسيح بأخبال شعبها في المسيحية على المذهب الروماني الغربي. ولكن إن كان هذا صحيحا فلماذا طلب المستنصر من الظاهر بيبرس سرعة إرسال المساعدات ليقع قوات لويس^(١) ولماذا نُخرج المستنصر كل ما لديه من أموال ويتماد استعدادا للقاء هذا العدو^(٢) ولماذا تحرش المستنصر بالتجار المسيحيين في بلاده ورفض أن يرجع لهم أموالهم^(٣) ولماذا تحدث شارل كوث أنجو ورفض دفع الجزية له كما كان يفعلها لآل هوششتاوف^(٤) من قبل ؟ ولماذا ينهر الضعف والقرى وتونس تعيش عصرها الذهبي على عهده وفي ظل هذا الاستقرار يمكنها مواجهة العدو^(٥) وفي الواقع لو تمكنا من الإجابة بعيدة كاملة على هذه التساؤلات ، سجد أن كل هذه الأقاويل التي نسبت إلى المستنصر ما هي إلا أقاويل جانبها الصواب ، وأن هذه التساؤلات التي طرحناها تحمل بين طياتها الإجابة عليها .

حقيقة لقد أيعم في هذا الرأي أحد المؤرخين المسلمين القدامى وهو المقرئ، حين اتهم المستنصر بأنه لايقع له أن يلى أمور المسلمين. ولكن هذا لايعتبر سدا أو دليلا يؤكد ما ورد في المصادر اللاتينية بهذا الخصوص.

ولاشك أن هذه الادعاءات لاتتحدى مجرد صداقات عقدتها المستنصر مع لويس تحديقا للمصالح المشتركة. شكله في ذلك شأن الملك الكامل محمد ومن بعده الظاهر بيبرس. فهل اتهم أحد منهم بيبرس أو الكامل محمد بمثل هذا الأمر. أن مثل هذا الأمر لم يحدث لأن بيبرس والمستنصر لم يمثلا إلا لصالح الجبهة الإسلامية

ولكن يجب ألا نغفل عن دعاء ما تميز به المستنصر من دعاء وحيث مع أعدائه ، فصداقته ووعوده مع لويس كانت تحمل في طياتها معان أخرى وهي أنه كان يتمنى في قرارة نفسه أن

١- أير الفرات : تاريخ الدول والممالك ج١ ص ١٢ ، لوحة ٧٤ .

٢- أير أبي دينار : الخزن في تاريخ أفريقيا وتونس ص ١٢٨ .

٣- محمد الحبيب ، لب للتاريخ ص ٢١٤

٤-

Nangis, p. 439

وأنشأ محمد عزائي تاريخ لأفريقيا الشمالية ص ١٨٠ .

٥- ابن خلدون ، القبر ، ج ٦ ، ص ٢٩٠-٢٩١ .

يسمح في ممالكة عدوه بالشارج حتى لايفتح على نفسه جهة معادية جعيدة بالإضافة إلى خصومه بالداخل وهم ورثة الملوحدين من بني مرين وبني عبد الواد، وعربان إفريقيا بالإضافة إلى عدو آخر وهو شارل صاحب صقلية، فمن خلال هذه الصداقة نجح المستنصر في أن يمسك العسا من متصنفها وأظهر نفسه صديق للجميع في حين أنه لم يكن يعمل إلا لصلحته الذاتية في أن يحافظ على حكمه وسلطانه على تونس

وفي هذا الصدد يجب ألا ننسى المهادنة التي تمت بين لويس التاسع وبين مؤرخ سيرته جوفانيل أثناء حملته على مصر فيشير جوفانيل أنه بعد اعتيال سلطانهم تورانشاه^٩ اقترحوا في اجتماع لهم أن يهبوا عرش السلطنة المصرية للملك لويس التاسع، وأن هذا الاقتراح لم يحل دون الموافقة عليه إلا وثوق هؤلاء الأمراء من أن الملك الفرنسي لن يقبل ذلك العرض لأنه لن يرضى أن يرث من دينه، وأنهم إذا جعلوه سلطانا عليهم فلما أن يرغبهم على اعتناق المسيحية ولما أن يقبض عليهم، يقول جوفانيل في هذا الصدد : «سألى الملك ذات يوم عما إذا كان من رأيي ، إذا عرضت عليه مملكة مصر أن يقبلها ، فجلست أنه لو قبلها لأرتكب خطأ كبيرا بعدما رآهم يقتلون ولي نعمتهم بقصد المعظم تورانشاه وقال لي الملك أنهم لو هربوها على لقبيلتها دون تردد»^(١٠)، ويتضح من العبارة السابقة، على الرغم مما فيها من مبالغة، إذ لايعقل أن يقبل المصريون لحكمهم إلا رجلا مسلما مصريةا يتخضع منها أن الهدف الرئيسي الذي كان يحرك لويس في كل حملاته وفي أحلام يقظته هو نشر المسيحية العربية بين المسلمين، إلى جانب التوسع والاستعمار وجميعها أقاويل غير محقولة ولامقبولة تردت كثيرا في مجلس لويس .

وعلى هذا ، يمكن القول أن المستنصر كان داعية حريصا على دينه، نجح في خداع لويس إلى أبعد الحدود فهو لايمكن أن يكون قد فكر في التحول إلى المسيحية، ولايمكن أن تكون قد خطرت على باله هذه الفكرة، وسوف تكشف لنا أحداث الحملة في تتابعها الزمني صدق هذا القول. وقد ألح المؤرخ الفرنسي ميشو بأن لويس كانت لديه مجرد آمال في إحلال ملك تونس إلى المسيحية، ولم تكن هناك نوايا مبيتة وكبيرة على هذا الموضوع^(١١)، ويدعم هذا القول كل

٩- Fourville, p. 200 cf. also . Davis, E. J. The invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France, London 1897, p. 66 .

Michaud , Crois VI , p. 202 .

من ميلر وجيزو وأرثر هامبال الذين أشاروا أشارات صريحة في مؤلفاتهم مفادها أن موضوع المسيحية كان مجرد لثنية داخل لويس وليس اتفاقاً صريحاً ومبرهاً^(١)، وكلمة أمق كانت مجرد أحلام أو أوهامات لحلام .

وبالإضافة إلى كل هذه العوامل مجتمعة ، فهناك سبب شخصي آخر ذكره ابن أبي ديناثر إذ ظل قيام الصلة «بوجود عداة شخصي بين لويس والمستنصر حتى ذكر لويس ذات يوم بصخرة «لستنصر فهضم من جانبها وقال هذا ... الذي أسره الترك واعتدى نفسه فبلغ هذا اللول لويس فحقد عليه وهرم على عزو تونس» ، خاصة وقد وصلت إلى مصالح لويس بعض الآيات الشعرية التي ذكرها الشاعر جمال الدين بن مطروح ، ومثلها الطاهر بيبرس إلى لويس مع رسول من عنده يحمل علم ببواياها في مهاجمة ديار الإسلام من جديد ومنها .

قل للفرنسييس إذا جئتـه مثال صدق من قول فصيح

قد جئت مصر أتيتـي أهدا تصعب أن الرمر ياطبل ربح

د ر ابن لقمان على حالها واقصيد باق والطواشي هـبـيح^(٢)

كما قال فيه أحد الشعراء المفاريجة أيضاً يوم تزوله تونس.

يا فرنسييس هذه أفت مصر فتيتن لما إليه تصمير^(٣)

وعلى أي الأحوال ، ورغم تعدد الأسباب ، فالسبب الأكثر ترجيحاً هو رغبة مسيحيي غرب أوروبا في تطويق مصر بأي وسيلة باعتبارها معقل العالم العربي والإسلامي ومصدر أمداده بالنال والرجال والزن والسلاح ، ومنها كانت تفرج صيحة الجهاد للقتال ضد المعتدين ، فكان يمكن الذهاب إلى بلاد الشام للحالة المتردية للصليبيين هناك ، ولا يمكن التوجه أيضاً إلى مصر ، فذكريات الهزيمة والحزن والعار كانت لاتزال تملأ القلوب ، لذا احتاروا تونس ، وتعلوا بمختلف الحجج والمعاذير ، وأعمها جميعاً قوة تونس وتسليحها وقدرة التونسيين آنذاك على

١- Hassel, Op. cit., p. 38 , Archer and Kingsford, p. 40 , Guizot, p. 131 , Müller , p. 44 .

٢- ابن أبي ديناثر المؤس . ص ١٢٨ . ابن لفظت الفارسية في تاريخ الدولة المملوكية . ص ١١٠ ، ١١١ .

٣- لم يتسن لنا معرفة اسم الشاعر المغربي الذي ذكر هذه الآيات ، فنظر الكتيبي . فوات الوفيات . ج ١ .

ص ٨٧-٨٤ . ابن أبيه تاريخ مصر ، ج ١ . ص ٨٧-٨٨ ، ابن خلدون ، المغرب ، ج ٦ ، ص ٢٩١ .

أحدث القلق لدى أهل الغرب وسيطرتهم على زمام الموقف في موحد شمال أفريقيا، وقطع طرق المواصلات والإمدادات والإسعافات القادمة من غرب أوروبا إلى افرنج الشام. كل هذه الأسباب مجتمعة بالإضافة إلى الحماسة الدينية لدى لويس وحده وإخلاصه للقضية الصليبية ، وتصوره الدائم، وقد حصار أسبينا سلطان مسلم، كانت الدافع لتلك الحملة. وكثيرا ما كان يردد أنه نمتى لو أمضى بقية أيام حياته مكبلا بالسلاسل في سجن مظلم لاستنفذ إليه أشعة الشمس في سبيل أن ينال ثواب الآخرة^(١).

وهكذا تكاثفت الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والنفسية والشخصية من أجل استجاء الحملة. ولكن كان أخطرهما جميعا الأطماع السياسية والرغبة في التوسع وأن الدافع الديني لم يكن المحرك لهذه الحملة وهو ما نجى بوضوح عند بدايات الحركة الصليبية، وما أشار إليه العديد من المؤرخين العربيين الحديثين أمثال ريبه جروسيه ، ولويس هالفن، وبرنارد لويس وجورج شيفيليان وغيرهم^(٢).

فلو كان الدافع الديني قويا لديهم لكان الأجدر بهم التوجه مباشرة نحو بيت المقدس بدلا من التوجه إلى الشمال الأفريقي.

ويعد أن استعرضنا أحوال كل من العالم المسيحي والعالم الإسلامي قبيل الصلعة، وبالقسنا مختلف الأسباب والدوافع التي أدت إلى قيامها يجدر بها أن تتناول موقف سادة الغرب من رجل الدنيا والدين من تلك الصلعة المرمع القيام بها، ونورهم في سبيل إخراجها إلى هيئز الواقع والأشياء للمفوضة .

في الواقع بذل لويس جهدا كبيرا في سبيل اقناع ملوك وأمرأ الغرب بهذه الفكرة ، بالرغم من مشاكلها الخاصة والحظية. وأصبحت فرنسا هي القوة اللعمانية الوحيدة في أوروبا التي خرجت منها الدعات المتكررة لحمل الصليب ضد ديار الإسلام .وعلى الفور أرسل لويس مبعوثه السير سيمون Sir Simon لقابلة كارمينال الكتيسة للقسمة ليعرض عليه الأمر وأبلغه

١- برنارد لويس العرب للقسمة ، ج٢ ، ص٢٥٢-٢٥٤

٢- Grousset, R. The Sum of History , Oxford, 1951, p. 191 , Halphen , L. , L. Essor de -٢ L. Europe , Paris, 1941 , p. 63 ff , Lewis, B., The Arabes in History . London, 1958 , p. 150
Trevclynn , G.M., Ashortened history of England, Aglesbury . 1960 , p. 141

أنه إذا وافق على تلك الخطوة ، فعليه أن يتخذ زمام المبادرة ويطلع البابا برغبته في أن يجتمع ملوك الغرب وكبار الأمراء ورجال الدين بباريس، لإلقاء الخطب الحامسة وشرح الموقف كاملاً، متعلماً يحدث عادة عند الدعوة إلى حملة صليبية كبيرة، وعليه أن يصور لهم مدى الخراب والدمار الذي حل بمملكة اللاتين في بلاد الشام، ومدى غضب الرب عليهم في هذا الجانب الآخر من البحر، وأبلغه بضرورة حلف اليمين لتكريس كل الجهود لانقاذ هذا الوضع المتردى بالنسبة للقضية الصليبية وبشكل سريع ومكثف^(١).

وبهذا قام البابا كليمنت الرابع (١٢٦٥-١٢٦٨م) بتوجيه الدعايات إلى ملوك أوروبا وحكامها . كما أخذ في إلقاء الخطب الحامسة ضد المسلمين ، وشرح حالة الفريخ في الشرق الذين فقدوا أملاكهم ولؤلها بيت المقدس . وذكر كيف ذهب أعداد هائلة من صفوف شبابهم وغرسابهم في سبيل الصليب ، كما أخذ يصور لهم أعمال التدمير والعبث التي يعاني منها الفرنج الشام، ويسلط المسلمين عليهم . كما بدأ في حث الناس على الاشتراك في الحملة، بنى وعندهم بغفران خطاياهم والتكفير عن اثامهم، وغيرها من الامعاء التي كان الباباوات يمنحونها عادة للسماريين الصليبيين^(٢) . كما قام البابا بتقديم كل التسهيلات اللازمة للويس ، وأطلق يده في أموال الكنائس ليتخذ منها ما يشاء من أجل الاستعداد للحملة . وقد لبي دعوته عدد كبير من الملوك والأمراء في الغرب^(٣) . وفي حقيقة الأمر لم تكن البابوية آنذاك تهتم بتوفير الدافع الديني لدى لويس من عنده ، طالما أن اسقاطه في سلك الحملة سيكون فرصة طيبة للبابوية لتتدخل من مصايقة أمراء العرب لها ، في وقت كانت تسعى فيه لغرض نفوذها الروحي والديني على دول الغرب المسيحي^(٤) . لذا لا يستبعد أن يكون تمسك البابا كليمنت الرابع وتأييده للويس في حملته الجديدة بقولاً من أن يطلق على صفوه وسلطوته رجل ديني

١- Nangis, p. 439 , Matt. of West , vol , II, p. 450 , Reinand p. 516

٢- Campbell , O , The Crusades, London , 1935 , p. 421 Ludlow, J M, The age of the Crusades, Edinburgh, 1897 , p. 328

٣- المقيري: السلوك ، ج ١ ، ق ٦ ، ص ٣٦٤-٣٦٥ أنظر أيضاً

Richard, J St. Louis, p. 183 , Bailly , St. Louis p. 307 , Borelly, la vie de St. Louis, p. 239

٤- جوزيف نعيم العنوان الصليبي على مصر ، ص ٥٥ .

مثل لويس عرف بكميته وتقواه وكان يتمتع بمكانة كبيرة بين المسيحيين الغربيين، مما ترى فيه الكنيسة اللاتينية تهديدا لسلطانها . وهكذا يظل البابوية الجو لتحقيق مطامعها بتغيب ملك مثل لويس عن أوروبا عرف أيضا بمواقفه الصارمة حيال الكنيسة ورجال الدين وهو نفس الموقف الذي سبق وسلطه البابا انوسنت الرابع مع لويس من قبل ، أثناء الدعوة للحملة الصليبية على مصر. فقد كانت مطالع أنوسنت تتخلص في الخلاص من تقوى لويس، بل الأخطر من ذلك أنه كان يطمح أن يحول جهود هذه الحملة واستعداداتها لصالحه هو أثناء صراعه مع خصمه الامبراطور فردريك الثاني ، وهو ما عبر عنه جراحة الكاتب الفرنسي جيل ميشليه Jules Michelet من أن البابا لم يترك سلاحا دينيا كان أم دنيويا إلا واستعمله لاحتياط مشروع الحملة أملاً في الاستفادة بقواتها واهتمامها بمصالحها الخاصة

وبناء على ما تقدم، لبي نداء البابوية عدد كبير من أمراء وقادة أوروبا ، ووفد الجميع على باريس حيث عقد اجتماع كبير يوم الاحتفال بعيد القديس ديس St. Denis^(٦)، وفي ذلك الاجتماع شرح لويس للعاشرين الأمر بكل وقروح ، وذكر أنه يموى قمع قوات المسلمين بنفسه، لأنه سيتولى قيادة هذه الحملة، ويقال أنه دخل عليه في أثناء انعقاد المجلس وفد من قبل السلطان المستعصر العثماني، وكان الملك جالساً ويجاوره البابا كليمنت الرابع وكل الأمراء والسلافة . فقطع لويس حديثه عن الحملة وحاطبهم بصورة مليئة بالثأر والخصاسة «قوالوا لسيدكم ملك تونس نقلا عنى أنسى أربع في تنظيم أمر هذا البلد، وأننى قائم إنكم لاقتفاء أثر المسلمين ، وأنه في هذا النير حيث هذا الجمع الكبير أذكر هذا والجميع شاهد على ما أقوله أنسى قد قررت في هذه المرة أن أمتلك زمام الموقف وأجنى ثمار أفريقيا في شهر أغسطس القادم، ذلك أرضاء لسيدنا يسوع المسيح. وقد أزره كل العاضرين وأبدوا قوله لسفارة تونس»^(٧).

ويشوب هذه الرواية الكثير من المبالغة . إذ لايعقل أن يعمل سفراء من تونس على مجلس لويس وهو يحتل لغزو بلادهم دون حجابة بينه وبينهم والقصود منها اظهار التوسيع، بمظهر الحلف المتواطئ مع لويس ضد باقي القوى الإسلامية، وهي محاولة جديدة من مؤلف عربى

١- جوزيف نعيم، العرب والروم واللاتين ، ص ٧٦ .

٢- تاريخ العهد ٩ أكتوبر ١٢٦٨م وهي الفترة التي صاحبت استبعاد لويس للرحيل بالصلة وتجهيزها

مسيحي ليضفي صبغة حقيقية على موضوع تحول صاحب تونس في المسيحية، وأن الأمر كان معدا له بموافقة التونسيين أنفسهم، ويرفض أن يصرح بفتح كانوا مخدوعين من قبلهم. ويقول جوانفيل في هذا السند « أنه حين سمع هذا الكلام من سيده لويس أي عزمه على القيام بحملة جديدة، أصابه شعور بالحزن والاكتئاب . وفي إحدى الليالي كان جوانفيل محتجب إلى نفسه وتعامل عن الدافع القوي الذي يجعل سيده يشعل زمام الأمر بنفسه. وتستمر الرواية أن جوانفيل ظل مستغرقا في أفكاره إلى أن غلب النوم ورأى حلما مزعجا مفاده أن الملك والعديد من الأمراء والبارونات سيقتربون من مكان يسمى ريمر Roms ، وأن شمة أحداثا غير طيبة سوف تحدث لهم فزاده هذا قلقا على سيده وحزنا عليه، إلى أن تذكر رجلا يشتهر بحكمته ورجاحة عقله ، وكان يسمى ويليام ، قص عليه هذه الرؤيا ، ففهد جوانفيل في أحاسيسه قائلا له « فعلا سيترجمه الملك إلى قلعة ريمر وأن الرب سوف يهزم الفتح والعطايا وأنه سيكون معه في كل خطواته وقد توجه جوانفيل على فوره حيث كان الملك والأمراء مجتمعين وقص عليه الرؤيا ونكر أن الملك كان ممتعرا في الإعداد للحملة واتخاذ التدابير اللازمة لقيامها . ثم يستكمل حديثه قائلا « أن القسيس لويس أعلن فجأة السؤة على المجتمع وكان يجلس إلى جواره أباه الثلاثة وملك نامار ، والعديد من البارونات الآخرين، ويبدو أنهم تشاسحو حين سمعوا ذلك، يقول « جوفيل » أنهم لم يقتنعوا بحديثي وطلبوا مني تدعيم ما جاء في رؤيتي من أن نمارا شديد سوف يحدث القوم، وأن الرب سيكون بمثابة القلب والروح لمساعدة شعبه وإمقاده . وقد حزن لويس لهذا » وأقسم جوانفيل أنه لم يصف حرفا واحدا على الرؤيا التي تراءت له، وأنه لا يستحق غضب الرب لو القوم. ويستطرد قائلا أنه حدث ما توقع إذ ذهب الملك ورجاله إلى قلعة قرطاجنة وحل بهم مرض شديد ومات لويس نفسه متأثرا بهذا المرض^(١)

وليس مستغربا في مثل هذه الظروف والاستعدادات قائمة على قدم وساق للعدابة للحملة المقترحة والتبشير بها ، ظهور مثل هذه الرؤى والنبوءات التي هي أقرب إلى الأساطير والمزعومات منها للحقائق التاريخية إذ كان الهدف منها إثارة الحماسة النبوية لدى الناس للإحرام في سلك الحملة^(٢). ورغم كل هذا ، فقد كان تعمس لويس لهذه الفكرة شديدا بحيث أنه لم يبق كثيرا أمام نبوءة جوانفيل ، بل أسرع بالعمل الحاد من أجل إعداد القوات والأموال

Journville, Op. cit., p. 259 .

-١-

-٢- جوفيل سيم: العرب والروم والإلخ - ص ٥٥ . والنصون الصليبي على مصر، ص ٥٢

اللازمة للحملة. ويبدو أن تلك الصاعقة التي غمرته لم يكن يشعر بها غيره من الأمراء والملوك في أوروبا. فقد أحس لويس بصعوبة التأثير على عدد غير قليل منهم. ويؤكد نانسى قول جوفانجيل من أن الملك الفرنسي لما شعر بعدم صدق البابا من بعض النبلاء ورجال الدين ، غضب وانهمم بالتحائل والاصراف من القضية الصليبية ، وأصاب أنه لافرق بينهم وبين اللاتين الشرقيين الذين خرجوا عن واجبهم الدينى فى تحرير الأرض المقدسة وتركوا أنفسهم للأهواء الشخصية^(١). والواقع أن الفكرة الصليبية قد بدأت فى الاحتضار، فى وقت أصبح فيه رمام المبادرة فى قضية العرب بعد أن توحشت كلمتهم وانصتت جهتهم وانحطوا سياسة الهجوم دفعا للعنوان وتعرض دعاة الحرب الصليبية فى الغرب للسب والافتاء من الناس علنا وجهراء فى الوقت الذى بدأ فيه الناس يعضون من حول الكنيسة اللاتينية ويخرجون على أوارمها وأصبح النهار الكنسى فى طريقه هو الآخر نحو الداعي والانهيار ، وكان المسيحيون الغربيون يسخرون من مراحط الذين يحرطون فى حملة صليبية ضد العرب ، وكانوا يرددون هم للفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التى تكلف الكثير. بينما يترك المرء مصالحة العاصمة فى يده التى تدر عليه الريح الوفير، ليستريح فى حرب لا تنتهى وقد يخسر فيها كل شيء، وهم أيضا يقولون فى أسلوب لادع على لسان أحد الرهبان العربى فى حوار باللغة اللاتينية بينه وبين الله أنه لأحقق شئ هذا الذى يتبعك فى معركة جديدة ضد العرب^(٢). وكانت مثل هذه الأقوال والعبارات الثلاثة تتردد على ألسنة الناس فى الغرب أثناء الحملات الصليبية، وسهما يكن من أمره فقد أيد البابا هذه الحملة علانية فقط. وإسما فى حقيقة الأمر كنت ضد رعيته ، ورعية البروية^(٣). فقد عاد جوفانجيل يؤكد هذا الاحساس من جديد حين قال «إن القديس لويس سوف ينفذ هذه الحملة سواء كانوا مقتنعين بها أم لا، فالأمر أصبح يشكل خطورة بالغة لفرنسا ، ويات من الضروري بذل كل شئ فى سبيل الدفاع عن الوطن»^(٤).

Nangis, p. 439 .

-١-

٢- جويريف تسييم العنوان الصليبي والرأى العام الغربى: مقال من سلسلة المصاحفات العمة، ج٤٧-٤٦، ٤٦٠.

Michaud, Cross, VI, p. 202.

-٣-

٤- واضح هنا أن جوفانجيل كان ضد فكرة الحملة على تونس بعدما شاهده فى صلبى لويس التاسع على مصر والشام. كما أنه تصمم بعدم القيام بها ميمنا أن فرنسا أولى بجهوده وراحته. أنظر Jourville p.300.

لقد كان اصرار لويس على اتخاذ هذه العملة تابعة من الماضي البعيد والهرطقة المروية التي منى بها على ضفاف النيل فتعني وهو شيخ في السبعين من عمره أن يحو هذا العار عن نفسه، خاصة بعد فشل محاولاته أثناء إقامته في بلاد الشام عقب انتحاره في مصر. ولكن لا تلتئ الرياح بما تشتهي السفن فقد مات على أرض تونس دون أن يحقق أيًا من أهدافه.

وهناك قضية أخرى لابد أن نتوقف عندها. فمن الواضح من رواية جواميل أن تونس لم تكن في الحسبان على الإطلاق وقتذاك. فيقول أنه رأى أنهم يتجهون إلى مكان يسمى مريزة وليس قرطاجنة أو تليس أو تونس أو تافسي أو ترشيس أو غيرها من التسميات التي كانت تطلق على تونس في كتب المسالك والممالك ومزلفات الرحالة والجغرافيين. ومن المعروف أن مريز هذه هي بلدة في فرنسا^(١)، وربما قصد جواميل أنها ستكون مكان التقاء لويس بجيرش حملته، لأنه لم يشر إلى أن وجهة لويس ستكون تونس، ومن المحتمل أن لويس احتفظ بسرية اتجاه العملة إلى تونس لنفسه ولم يطلع عليها كل المقربين منه.

ويبدأ على ما تقدم، لم يكن أمام لويس سوى الامداد العسكري للعملة وتجهيز الأسطول، وتوليد الموارد المالية اللازمة لها^(٢)، ثم بعد ذلك التفرغ لترتيب أمور مملكته من جديد أثناء غيابها، وذهب إلى مدينة سان ديس حيث تقابل مع رجال الدين في كنيسة السيدة العذراء هناك، وتناقش معهم في الكثير من الأمور الخاصة بالحكم في فترة غيابهم فهذه المدينة تشتهر بأخلاصها المطلق للبابوية وهافتها المثيرة بلورس. لذلك من الكونت فكيوسيني Vicoigne كونت مدينة سان ديس ليكون مسؤولاً عن المؤن والعتاد الخاص بالعملة، وأن يكون له حق الاشراف على أمور فرنسا أثناء غيابهم^(٣)، بالاشتراك مع خمسة من كبار رجالات فرنسا هم ماثيوان Mabou، وبييل Nibe، والسير سيمون Sir Simon، ومثي دي ماتون Matthew de Maodon، وسيمون دي باخلا Simon de Nazla^(٤)، ثم بدأ لويس في

١- جويريف نصيب: العرب والروم واللاتين، ص ١٤٤.

٢- موريوت: أوروبا القروسية، ج ٢، ص ٢٤٠.

٣- لقد بلغت تلك المدينة مكانة مرموقة في فرنسا لدرجة أن شعار فرنسا آنذاك كلى العلم الخاص بجير القديس ديس. بحيث كان يرتد ككسوة الفاتح ليوه الأحمر المشقوق من جانب الطليق. وكان هو شعار رجال دير ديس الخاص بهم. وتم يصبح شعار ملوك فرنسا إلا بعد عهد هيبب أغسطس وأبيه لويس الثامن أنظر Jouanille (Johnes, tr), p. 390.

٤- كانت هذه التسميات من كبار الملوك المقربين من لويس وموضع ثقته. أنظر: Nengis, p. 439.

ترتيب الأمور الخاصة بسرته فوزع ميراثه على أبنائه الأربعة، وأعطى لكل من بناته الباقيات بلا زواج ما يخصهن من أرض ومال لجهنهن. ثم توجه إلى زوجته، الملكة مارجريت دي بروفانس^(١)، وأعطاهما ممتلكاتها وأرضها، ثم ورع أموالاً طائلة على الفقراء والمرضى والأيتام والمستشفيات، وكذلك على خدمه وحاشيته وكافة الذين وقفوا إلى جانبه بخلاص. وقد تألم شعبه كثيراً حين رأى أن القنطلات تقترب ليطارق رعيته من جديد، فقد كان وجوده بين شعبه يبعث على الاطمئنان رغم كل المتاعب والاضطرابات، وكان الشعب ينتظر ملكه وقد اعتصره الهم واشتكت به العسرة، فقد أصبح كهلاً ضعيف البنية^(٢) وكما يقول جوفانيل كان مير قادر على ضبط سيره، ولا يطيق ركوب القيل^(٢).

وعلى أي الأحوال فإن الملك لويس حين عقد النية على القيام بعملته الجديدة من أجل الاستيلاء على بيت المقدس وقمع مصر، فإنه بدأ يسير وفق خطة دقيقة منظمة محكمة مرث بعدة مراحل منذ أن كانت فكرة فداهب حيا له حتى قيام الحملة. ولم يبخل بأي شيء في سبيل انجازه، وبذل قصارى جهده في سبيل اقتناع السلطات الدينية والعلمانية بها متخذاً في ذلك كافة الأساليب والوسائل التي كانت تتأرجح بين الحق والعبث وبين الترغيب والترهيب. حقيقة أن الحماسة كانت تفسره، ولكن سوء الأحوال السياسية والاقتصادية في غرب أوروبا، واحتقار الفكرة الصليبية جعلت من هذه الحملة قوة هزيلة ضعيفة غير كافية، فلم يصح، تلك في حسبانها عامل الزمان والمكان والمستجدات التي طرأت على المسرح الدولي وقتها ولم يكن هذا هو نيت لويس، بل نيت العصر الذي عاش فيه. فقد ماتت المروءة البهيمية ضد المظلمين أشبه بكاينوس ثقيل تمنى المسيحيون الشرقيون والعربون الملام من بعض الآلهة وبكرياته عنهم، لقد بدأ العرب وقتها يمر بفترة تغير واستقال من مفاهيم العصور الوسطى المبكرة إلى أوضاع جديدة مفارقة، مما أثر على الفكرة الصليبية، ولم يكن لدى لويس بعد نظر كاف، فقام بعملته الصليبية الثالثة والأخيرة ضد تونس ليصيف فشلاً جديداً إلى هزيمته السابقة في مصر والشام، وسوف تكشف الفصول القادمة عن ذلك.

١- مارجريت هذه هي ابنة ريمون برنجيه Raymond Berenger كونت بروفانس، ولد تروج لويس التاسع منها عام ١١٧٤م، ورافقت في حملته على مصر والشام، انظر: Kitchen, Op. cit., p. 334.

٢- موروود. العرب للقصة، ج٢، ص ٢٥٠-٢٥١.

الفصل الثاني

الاستعداد للحملة وقيامها

لغات الجيش المسلمين ومناصرة الاستعدادات للمحكمة،
الموارد المالية- القوي والامدادات- الأسطول وتجهيزاته-
الأعداء التي صاحبت وجود القوات الصليبية مينا
اجمورت- أبحر السلطة من اجمورت إلى سردينيا،
والمصاعب التي واجهتها والنتائج المترتبة على ذلك- تفهيد
لويس في قراراته وتصرفاته، أسبانيا وامكاساتها على كل
من المسلمين والسلمين- رد فعل القوي الإسلامية داخل
تونس بصفة خاصة والعالم الإسلامي بصفة عامة، والآثار
للمترتبة عليه .

بعد أن استعرضنا أحوال العالم المسيحي والإسلامي بوجه عام، ونظرة تونس وفرنسا
على وجه الخصوص، يجدر بنا أن نتعرض بالتفصيل لاستراتيجية الحملة المزمع القيام بها،
والفئات التي اشتركت فيها، والاستعدادات لها من حيث التمويل اللام والمؤن ووسائل النقل ،
هذا ، بالإضافة إلى القاء الضوء على مختلف الظروف التي صاحبت قيامها من مينا
اجمورت^١، جنوب فرنسا ، إلى أن يعمت وجهها شطر تونس، وأثر ذلك على المعسكر الإسلامي
لقد سبق القول أن الملك الفرنسي لم يأل جهدا في الدعوة لحملة جديدة ضد العالم
الإسلامي وقد لقي تجاوبا من قبل البابوية التي أطلقت يده في أموال لكنائس لديهم بها
حملته. وبالفعل انخرط في صفوفه العديد من الأمراء والبارونات ، وتجمعت المصائر الأوربية
المعاصرة أنه لم تتوافر في كل من اشترك في الحملة النية الصادقة للمساهمة الفعلية ، بل

١- تعرف باللاتينية باسم *Ange Mortue* أي لثاء الزاكمة واجمورت الحالية هي اجمورت الإسلامية
أنظر.

Kitchen , Op. cit., p. 341 , Bordesaux, H., *Un Precursur Vie , isort et Survie de St. Louis*,
Paris 1949, p. 217

هناك من أعلن حضوره ثم ثابلاً ولم يتحرك في صفوفها في الموعد الذي حددته لويس التاسع لقاء الجميع في اجمورت^(١) ويلاحظ أن التقييد القوي للويس وحملته لم يصدر عن كبار ملوك أوروبا، بل تركز في عدد من الأمراء والبارونات فقط فقد كره هؤلاء الحكام أن يتسبب عليهم لويس لما في ذلك من إضاعة دور جديد إلى دور فرنسا الفعّال في تاريخ الحوكمة الصليبية، خاصة وأن الصراع بين فرنسا وإنجلترا لم يشهد بعد، وكانت هذه المسألة من الأمور التي شغلت بال لويس التاسع أثناء تقيبه من وطنه في حملته ضد مصر والشام (١٢٤٨-١٢٥٤م/ ٦٤٦-٦٥٢هـ) وقد أكد ابن خلدون ذلك حيث ذكر «أن كل من حضر مع لويس من قادة أوروبا قد تديروا في «ظهار قوتهم على حساب الآخرين. ولكن لويس بفضل قوة شخصيته وعظمته تمكن من التسيّد عليهم جميعاً وملك زمام الأمور»^(٢).

وقد أخذ القديس لويس على عاتقه مهمة انتاج العناية للحملة، الأمر الذي ترتب عليه انضمام عدد كبير من الأمراء والبارونات إليها وإرداد عدد المتطوعين فيها يوماً بعد يوم ، خاصة وأنه لجأ إلى خدعة ذبينة لطيفة لاكتساب أكبر عدد ممكن من رعاياه فيها، وذلك عن طريق تقديم المعونات المالية العاجلة لكل محتاج من رعاياه حتى لو لم يكن فقيراً. فقد ذكرنا من قبل أنه كان يعطى الأموال للأزامل واليتامى ومن يرغب في الزواج وليس لديه الامكانيات تمام مثلاً كان يعمل أثناء استعداداته لغزو مصر فينكر د. جوزيف نسيم «أنه كان يقدم الهدايا القيمة بمناسبة عيد الميلاد من كل عام إلى كبار رجال المملكة من النبلاء والبارونات ، وكانت عبارة عن وشاح طبع عليه علامة المطيب فذهب الجميع حيلته وأنهم لابد من الاتصياح لرغبته بالانحراط في ملك الصلة.

وقد كان أبناء واخوة لويس من فوائل من شاركوا في الحملة. فقد انضم إليه أنطاذه الشهيرة يوحنا الحزين John Tison وكان قد ولد في دمياط أثناء أسر لويس بدار ابن القمان في المصورة^(٣)، وثولفي في تونس بسبب الكولاء الذي انتشر بسر بين صيغوف

١- الميرزى السلوك ، ج ١ ، ق ٣٠٦ ، ص ٣٦٤-٣٦٥ . لنظر أيضاً - Nangis, Op. cit., p. 439

٢- ابن خلدون : المر ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

٣- جوزيف نسيم : العنوان الصليبي على مصر ، ص ٢٤

الحملة^(١)، واشترك فيها أيضا ابنه فيليب الثالث Philippe III ، وهو الذي تولى بعد وفاة لويس قيادة الحملة إلى أن حضر عمه شارل كونت أنجو . أما الابن الثالث فهو الكونت ايسون Elsenon^(٢) . وشارك في الحملة أيضا أخوه شارل كونت أنجو . وقد اختلفت المصادر المعاصرة من عربية وغير عربية ، حول مشكلة مصالحة شارل لأخيه لويس ، فمنهم من قال أنه ظل بجوار أخيه حتى وصولهم تونس ، ومنهم من قال أنه تركهم بسربدينيا ورحل إلى صقلية بسبب مصالحة الماسة هناك . وهذا هو الرأي الأرجح الذي أجمع عليه عدد كبير من المؤرخين المعاصرين والصقبيين وبخاصته أن شارل عندما وصل إلى تونس كان أخوه لويس يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فجلس على الأرض بالكنيا حريتا على ظهره عن أعقاب جيوش الحملة ومساعدة لويس^(٣) ، يضاف إلى ما تقدم ما جاء في بعض المصادر من أن شارل كان ملكا على نابلس بالإضافة إلى صقلية وجنوب إيطاليا ، وقد انفرد بهذا الرأي المؤرخ الفرنسي ريموند غييه من المؤرخين الذين أجمعوا على أن أملاك شارل كانت شحص في صقلية وجنوب إيطاليا فقط . هذا بالإضافة إلى أحلامه الواسعة في الاستيلاء على شمال أفريقيا^(٤) ، لما يحلقه ذلك له من مصالح اقتصادية كبيرة .

أما ملك إنجلترا فقد تصاربت الأواء حول موضوع اشتراكه في الحملة ، إذ ذكر بعض المؤرخين أنه كان ضمن قادة الحملة وأن اسمه إدوارد^(٥) . وهذا غير صحيح لعدة أسباب أولاها أن ملك إنجلترا آنذاك كان هنري الثالث Henry III (١٢١٦ - ١٢٧٢) أما إدوارد فقد كان وليا للعهد ، والسبب الثاني أن العداء المزمع بين ملكي إنجلترا وفرنسا لم يكن يسمح بالمرّة باشتراكه فيها ، خاصة وأن موقفه المتردد في الانحراط في الحملات الصليبية كان واضحاً

Ercole, R.H.C. - H. Occ., t. II, p. 458 .

-١-

Reinoud, Op. cit., p. 517 .

-٢-

Ercole, p. 458 , Cf also, Wiegler , Infidel Emperor, p. 317

-٣-

Reinoud , p. 517 .

-٤-

• المقريضي الملوك ، ج ١ ، ص ٢٦٠ ، للمبني ، منه الجمال ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ ، ورقة ٥٥٨ . بين غلوس .
العبر وديوان الملكة والعبر ، ج ٦ ، ص ٢٦٠ - ٢٩١ .

مذا حملة لويس علي مصر . فعلى الرغم من أنه قيد اسمه في سجل العرب المقدمة متعهدا بحمل الصليب لخدمة اخوانه في ارض الميعاد، وحذا حذوه كثير من النبلاء والفرسان ورجال الدين الإنجليز^(١)، إلا أنه سرعان ما تكشفت نواياه عندما دفع للبابوية مبلغا ضخما من المال لتعفيه من العهد الذي ارتبط به . وعلى الحقيقة أن هنري الثالث كان يتخذ من تضييع الطاهري للحملة وسيلة لإيتراز الأموال من رعاياه ارضاء لجشعه^(٢) . والجميل الوحيد الذي قنعه لويس هو أنه وافق على مد أجل الهدنة المبرمة بينهما إلى حين انتهاء العملة وموعدة لويس إلى ممسكته . ويتضح من هذا أنه من المستبعد تماما أن يكون هنري قد انخرط في سلك حملة لويس ضد تونس في الوقت الذي بدأت فيه الفكرة الصليبية تلفظ أنفاسها

وعلى هذا ، فإنه قد سمح لابه انوارد بالمشاركة فيها . وأكثر من ذلك أنه جعل من انوارد قائدا مستقلا عن لويس وايس تابعا له ، بمن جعل وجهته بلاد الشام وايس على وعد أن يلتقي بالريس في تونس بعد ذلك ، وعلى أي الأحوال فقد كان انوارد مشهورا بالكفاية والنشاط ، وقد ظهرت مواهبه السياسية فعلا في معالجة موقف المتمردين على والده اذا استعد للقيام بعملته بعد أن سمع بسقوط اسطاكبة والعالة المتردية التي وصل إليها المجتمع الصليبي ببلاد الشام . على أنه من سوء حظ بعد أن أبدى نبلاء اسبانيا موافقتهم على أن يرافقوا انوارد ، أخذوا يعتنقون الواحد بعد الآخر عن التوجه معه في العملة ، الأمر الذي أخر من رحيل انوارد بعملته حتى عام ١٢٧٦م / ٦٦٨-٦٦٩هـ عكس ما كان متفقا مع لويس ولم يتحرك بفراته من انبعلترا إلا بعد فشل حملة لويس في تونس ووفاته هناك^(٣)

يضاف إلى ما تقدم ، أنه قد حدث خلط في بعض المصادر حول اسم الأمير توارد إذ ورد اسم ولي عهد اسبانيا الذي اشترك في عداد العملة هو دوارو Donno^(٤) ويرجع هذا الاختلاف إلى أن انوارد رغم الاتفاق على أنه يلتقي ساقى قوات العملة في بجمورت إلا أنه تأخر عن ذلك وقدم إلى هناك اسمه المسمى يوحنا لانير John Lanier ومعها زوجته الانجليزية . مما

١- Eincles, p. 44 ; Michaud, Crois., t. I, p. 545 .

٢-١

٢- جوزيف تيسم العنواص الصليبي على بلاد الشام - ص١٣٦ ، وأبنا العنواص على مصر ، ص٢٨

٣- سورف أكتريف بالتفصيل لرحيل حملة الأمير انوارد في الفصل الخامس من كتاب

٤-١

Reynaud, p. 517 .

أولهم هذا ليس بين المؤرخين. وقد أكد هذا أحد مؤرخي القرن الثالث عشر الميلادي وهو متى لوف وستمشتر قاتلا «أن الأمير انوارد لم يتجه صوب تونس إلا عندما وصلته أخبار أكيدة بموت لويس فذهب إلى هناك على أمل اقتطاف ثمرة النصر التي نزعها لويس، وقد هوجي بذلك الأحداث الأليمة التي كانت المنطقة ممرها لها والتي خيبت آماله»^(١). وفي حقيقة الأمر رغم انحسار لويس بتصل انوارد عن المشاركة في الحملة ضد تونس مباشرة ، إلا أنه لم يمنع في توجيهه صوب بلاد الشام لترميم الصدع الذي أصاب الكيان اللاتيني هناك ، وأحرار أي تقدم على القوى الإسلامية الأحدث في الأرياف . وما يدعو إلى الدهشة أن نفس المؤرخ عاد ونقض روايته الأولى بفصوص موقف الأمير انوارد من الحملة على تونس عندما قال «إن الملك لويس عندما قرر الذهاب إلى تونس للاستيلاء على ممتلكات وأموال هؤلاء الهاربة كان قد سبيله إلى هناك الأمير انوارد الذي وصل تونس بعد أن تعرض لرياح عاتية»^(٢). وهذه الرواية بعيدة عن الحقيقة تماما . لأن كافة المصادر الأخرى لجمعت على انوارد لم يتقابل قط مع لويس فوق أرض تونس، بل وصل إليها بعد موته مباشرة .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد شارك في الحملة عدد آخر من أمراء أوروبا من بينهم الفرنسي كونت بواتييه وتواوز وهو شقيق لفرانسوا^(٣) ، وايسوفى lesovy كونت اللاندرز^(٤) ، وهيدى Hitz كونت لوكسمبورج ، والسيد يوحنا بركيني John Birkini وهو من كبار سادة أوروبا^(٥) .

1- Matt. of West., Op. cit., vol II, p. 450 , Eracles, Op. cit., p. 458

2- Matt. of West., Op. cit., p. 540 .

3- من المعروف أن الملك لويس ثلاثة أخوة أولهم شارل كونت نيمور وكان من أوائل من شاركوا في هذه الحملة ونكر بأسماء متعددة في المصادر العربية المعاصرة . فغلبا كان يطلق عليه جبرلا وكارلوس وري جبار وهيمره . والأخ الثاني هو روبرت كونت أرثرا وهو الذي مات في حملة لويس التاسع على مصر ، والأخ الثالث هو افرانس كونت بواتييه وتواوز . ينظر أبو الحسن النجدي الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٩ ، جلجلة ١ ، وأيسا جويريف سيم . العنصر اللاتيني على بلاد الشام ، ص ١٠ ، موريدي الحروب القسرية ، ج ٢ ، ص ٢٤٨

4- اللاندرز هي بلاد القلمك ومصر أيضا باسم الأراسي الواقعة . انظر جويريف نسيم . معرب والروم واللاتين ص ٢١ .

5- Nangis, Op. cit., p. 445 .

وملك أرغوبه بشمال أسبانيا^(١) ، وملك اسكوسنا Astcons وثوروك Thonk^(٢) ، وشارك فيها أيضا ملك برشلونة ويدعى ريداركون Rudarcons وينكر العيني أن من بين من ساهم في الحملة ملك القوركب وهي تلك النافر^(٣) ، كما امهرط في سلك الحملة يوحنا كريت بريشاسي^(٤) ، وشيبيت Thorot ملك نافار ، والعويس دي بربايا^(٥) ، ودي مارشا De Marschal ودي سواسون De Sosen . هذا فضلا عن عدد كبير من نساء أوروبا الشهيرات ، ومنهن الأميرة أوسفور Osfor أميرة بواتييه وتولوزد زوجة الأمير العويس ، وملكة شامباديا^(٦) ، بالإضافة إلى زوجة ابن ولي عهد إنجلترا وهي انجليريية الأصل وجيلهان Giban ملكة الغلاتير والكونتيسة دي بريتاني وار^(٧) بيلا دي فرانس Isabella de Franco وأميلييا دي كورتناي Isabella de Cortenay وغيرها .

James of Aragon

١- اسم هذا الملك جيمس صاحب أراجون

Comb. Med Hist., vol. VI, p. 413.

أنظر :

٢- لم يستدل من المصادر والمراجع المتناولة ما يساعد على تعيين المقصود باسمي اسكوسنا وثوروك وللمزيد بهذا الشأن أنظر القريبي السلوك ، ج ٦ ، ق ٦ ، ص ٢٦٤ ، ج ٥

٣- القوركب ملك النافار . هي اسم مقاطعة تقع على أحد الأنهار بالكلابا ويسمى نهر نافار أو ثيغار Nîgar
com. Med Hist., vol II, p. 989

و عمر العيني عقد الحساب ، ج ٢ ، ق ٢ ، ورقة ٥٥٨ القريبي السلوك ج ٦ ، ق ٦ ، ص ٣٦٤ ، ابن حنبل ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٩٠-٢٩١ ، أبو العباس الموهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٢٠ ، أ ، ابن الفندك الفارسية في مبادئ الدولة العباسية ، ص ١٣٦ .

٤- هو أحد كبار رجال الانقلاب في فرنسا ، وقد شهدت هذه الكونتية انحراط عدد كبير من كبار مملكتها في حملة لويس على مصر ، مما اضطر لويس الفرصة للتخلي عن ثرواته مملكتها التي كانت أن تطيح بعرشه ونها ، وللمزيد أنظر جورييف شيم العذوان المكي على مصر ، ص ٢٤

Nangia, p. 439.

٥-

وأيقنا من برونه العروبي للقبلة ، ج ٢ ، ص ٢١٧

٦- هي جين دي نافار Jeanne de Navarre ملكة شامباديا وزوجة فيليب الرابع الذي يعرف بهمايب الجميل ، تولدت في ٢ أبريل ١٢٠٥ م ، وهي ثم لويس العاشر ملك فرنسا بعد وفاة والده فيليب الجميل أنظر Joinville, pp. 2-4, ٥2.

وأيقنا : جورييف شيم العذوان على مصر ، ص ٤٥

٧- Richard, Orient et Occident au moyenage a la contacts et re-
lions, pp. 185-188; Bilby, Op. cit., p. 22.

ويضيف المؤرخ هرقل مجموعة أخرى من الفرنج الشرقي الذين شاركوا في الحملة، فيذكر أنه عندما وصل لويس إلى تونس قدمت إليه من عكا أعداد كبيرة منهم ومعها امدادات ضخمة وكذلك عدد كبير من السفن وقراية اثني وثلاثين فارساً. وقد قدموا جميعاً أرضاً للويس وما يناله رغم شيخوخته في سبيل قضية الصليب المقدس^(١)، وحينئذ بالشر أن لويس حاول اصطحاب جوافيل معه دون جنوى، إذ اعتذر جوافيل وتعلل بضرورة بقائه في فرنسا نظراً لما حل بالبلاد من متاعب في فترة تغييب لويس عنها^(٢)، ويبدو أن اعتذار جوافيل يرجع إلى تشاومه من أمر هذه الحملة كما سبق القول. أما المؤرخ وليم دي نابي فقد استخدم إلى صغرفها وتتميز روايته بصنقها ونقته إلى حد بعيد حيث كان شاهد عيان لأحداث ذلك الزمان^(٣).

ومهما يكن، لقد كان أمر تجميع هذه القوات صعباً للغاية. وقد عانى لويس الأمرين بسبب تردد البعض في الانضمام إلى الحملة وتلحق إعداد الملق. وعقد مجلساً عسكرياً في باريس^(٤) شروح فيه خطته ووجه داء أن يكون تجميع القوات في ميناء لجمورت^(٥) وقد أثبتت الأحداث عدم صدق النية لدى الحننيين. هذا، في الوقت الذي كان فيه لويس يرداد حماسة ورغبة في القتال مما جعل البعض يتظاهر بخلق بمشاركته في أماله من أجل القضية الصليبية، ولكنهم في أنفسهم لم يكونوا يفكرون في الاشتراك في الحملة وهذا دليل على طغي فتور الروح الصليبية بشكل واضح لدى أهل الغرب.

أما عن الموارد المالية لها فقد احتلكت نسبة الأموال والعتاد التي ساهمت بها دول الغرب، وكذلك نسبة المصنعي التي اتفق على أن يسهم بها الأفراد القنادريون. وكان قد اتفق على أن تسهم كنائس فرنسا في الحملة بمواردها المتعددة^(٦). كما دفع كبار رجالات فرنسا

Eracles, p. 458.

-١-

Archer and Kingsford, p. 40.

-٢-

Eracles, Op. cit., p. 458.

-٣-

Nangis, p. 445.

-٤-

Liste de Chevaliers Croisés avec St. Louis, p. 305

-٥-

٦- ابن بطون العبر، ج١، ص ٢٩١، المقيري الصلوك، ج١، ص ٢٦٠.

من رجال الدين والنسب الذين لم يشتركوا في الحملة بشخصهم المبالغ للالزمة من الضرائب والعشور. فكان التكدس يدفعون العشور، أما الأمراء والنبلاء وكبار التجار فكان عليهم توفير الأموال الخاصة بمصاريف الحملة لمدة طويلة . وهناك اشارات واضحة تقيد أن السيد دي فاليري De Vallery قد دفع مبلغاً ضخماً ، كما قدم عدداً كبيراً من العرسان التابعين له. وعلى الرغم من ذلك فقد كان لويس يتوقع منه المزيد، بل اتهمه بالتبجح في تقديم هذه المساهمات . وقد دفع السيد راول دي سينري Raoul de Seny ، وكان رجلاً ثرياً ويحمل رتبة مارشال ١٦/ من سنة ما أسهمت به فرنسا من نفقات الحملة. ودفع المارشال لانكلوت دي سان مارك Lancelotti ١٤/ من النفقات، أما السيد بيير دي بولييه Pierre de Dolan فقد دفع ١٢/ من مصاريف الحملة ، وقد تم هذا بشكل رسمي . هذا ، بالإضافة إلى ٤٠٠ جنيه دفعها سرا على شكل تبرع للحملة ^(١) أما السيد دي كولار De Collet فقد دفع ١٢/ من النفقات ، ودفع كل من السيد دي روى De Roy ومانفراي Manfroi ٤ آلاف جنيه، ودفع السيد دي ميولانك De Mo- clanc والسيد أنوت دي فسانت Annot de Fessant وقبضهم حصصهم كاملة من هذه المساهمات ^(٢)

وقد وردت اشارات عديدة تقيد أن بعض الملوك والأميرات والسيدات الشريفات بغرب أوروبا قد ساهمن - أيضاً - في نفقات هذه الحملة وكانت نسبة حصصهن كبيرة أعلنت على تعطية نفقات الحملة ومتطلباتها دعاءاً وعودة ^(٣) . أما العرسان المسيحيون الذين قدموا من بلاد الشام للمساهمة فيها، فقد حملوا معهم ، هم أيضاً ، كميات ضخمة من الأموال والمز والأطعمة والأمتعة التي تلبى احتياجات الحد ^(٤)

١- المصدر السابق هنا هو التورنوا الفرنسي، فمن المعروف أنه كان العملة المتداولة في فرنسا في ذلك العصر ويرجع اسم تورنوا إلى مدينة تورز Tours . وقد استحدث لويس إبان حكمه عملة ذهبية جديدة أسماها التورنوا الكبير Gros Tournou تمييزاً لها عن التورنوا المادي المعروف ، وتبلغتها توارى ١٢ وحدة من أنظر

Grand Eneye; Art France, Numismatique , XVII, 1141 and Art Tournou, XXX 1, p. 247

٢- أنظر الملحق رقم ١ وآخر الكتاب للملخص بهذه الإحصاءات .

٣- Liste des Chevaliers , p. 305 .

٤- Eneye, p. 458 .

هكذا تم إعداد القوات والمصاريف اللازمة للحملة. ويذكر نابجي رواية غريبة مفادها أنه من بين الموارد المالية للحملة تلك التي بعث بها المستنصر صاحب تونس إلى لويس، إذ يقول: «أن أرضي تونس قدمت مساعداً كثيرة إلى ملك فرنسا من فرسان وجنود وأسلمة، مما كان له أكبر الأثر على عائد الحملة. ولكن من العريب أن جميع الأمراء والبارونات قد أصابهم لتشلهم من هذه المساعداً، وشعروا أن أمرا ليس فيه أي خير ولا مصلحة للفرنج سوف يحدث لهم نظير هذه الأعداءات»^(١). وقد أكد المقرئ في نفس الرواية قائلا: «إن المستنصر أرسل لهم مبلغ ثمانين ألف دينار، وذلك عندما علم بجوايا لويس في غزو تونس، وأن لويس أخذ هذه الأموال قائلا لسفارة المستنصر أنها لن تشبه من عزمه في أخذ تونس»^(٢).

وهاتان الروايتان فيهما الكثير من المبالغة، فرواية نابجي ترجع إلى تصويره بأن المراسلات المتبادلة بين المستنصر ولويس قبيل الحملة والفلسفة بالديانة المسيحية إنما تعمل في طياتها لتقديم الرشوة إلى لويس بهدف ممالأته، وقد أثبتنا من قبل أن مسألة تحول المستنصر في المسيحية كانت من وحي خيال المؤرخ وليس لها أي مصيب من الصحة، ولكن من غير المستبعد أن يستعمل المستنصر معهم كل الحيل والوسائل التي لتثيرهم صده، وكان كل هدف انتقاء شر لويس وأخيه شارل، في الوقت الذي تعهد فيه حصوم المستنصر بالداخل وكانوا (نشه بالبركان الذي يمكن أن يظهر فجأة في وجهه)^(٣).

وقد أكد موروند هذا الرأي قائلا: «إن القديس لويس لما وصل تونس لم يهرج المستنصر لمقاومة المعسكر الفرنسي كوعده، بل أظهر إشارات واصحة تبذل على هدم نيته في تحول المسيحية وأنه أوقفنا في شراكه». والأكثر من ذلك أن السلطان المملوكي هدد لويس بأنه سيقبض كل المسيحيين الموجودين على أرضه إن لم يتعد فوراً بقواته عن تونس.

فإذا كان هذا هو موقف المستنصر ورد قطعه خيال تطوير الأحداث، فكيف يمكن أن تتقبل هذه الرواية بإرسائه المصبات لأعدائه، وأما عن رواية المقرئ، فقد سبق القول أنه كس متعاملا على المستنصر، وإتهمه في مرات عديدة بالحياة لأن الصداقة بين حاكم مسيحي

Nanguis, p. 478.

—١—

٢- المقرئ في السطر ١٠، ج ٢، ص ٢٦٤-٢٦٥.

٣- موروند: العريب للفلسفة، ج ٢، ص ٢٥٤.

وملك مسلم من وجهة نظره لا يمكن أن يكون فيها خير المسلمين وذلك راجعا إلى التواء سياسة المستنصر وعدم وضوح خطته .

وبخلاصة القول أن فكرة تقييم المستنصر المساعدة لعدوه بهدف الدخول في ديارته والتنازل عن عرشه أمر مستبعد تماما لا يقبله العقل ولا يزيد الأحداث التي وقعت بعد ذلك، شكله شأن ما أثر حول الاتصالات التي تمت قبل الحملة بين العاطلين المسلم والمسيحي بشأن دخول المستنصر في المسيحية ، وكل ما هنا أن المستنصر نصح في التغلب بهم ، وظهر أمام الجميع بمظهر المتحالف مع بيتنا كان يعمل لنفسه أولا وأخيرا

وعيدا يتعلق بعدد القوات التي شاركت في الحملة من مشاة وفرسان ورماء فهناك ثمة تباين بين المصادر بهذا الخصوص . فقد اتفقت غالبية المصادر على أن الفرسان بلغوا قرابة ستة آلاف فارس ، بينما ينكر البعض الآخر أن عددهم بلغ خمسة آلاف . أما ابن أبي ذرع فقد ذهب بعيدا عن هذه السمة وذكر أنهم قرابة أربعين ألف فارس.

أما المشاة فكانوا قرابة ثلاثين ألفا، وبلغ عدد الرماة حوالي عشرة آلاف^(١) . وأصاف ابن الفرات «أنه من بين هئاد الأسطول كان الفرسان التركيبية والجرخية»^(٢) . وأورد ابن خلدون اشارات دقيقة حول عدد السفن التي تكوّن منها الأسطول المسيحي قائلا أنها كانت قرابة ثلاثين سفينة كبيرة وسبع سفن أخرى خاصة بالفرسيسي^(٣) . وأما السفينة الملكية التي كان لويس على ظهرها فكانت تسمى مشجوا^(٤) Longue . وبالرغم من أن فرنسا ليست دولة بحرية، فإن مملكة صقلية وجنوب إيطاليا قد لعبت دورا كبيرا في تزويد الحملة بالسفن اللازمة كونهما دولة بحرية من الطراز الأول ولاهتمام شارل كوتس اسجو حاكمها بأمر هذه الحملة تحقيقا لمطامحه الخاصة بالإضافة إلى الدور التطوير التي لعبته مدينة جنوة في امداد هذه الحملة بالسفن والمؤن .

١- ابن أبي ذرع : الاتيس المطرب، ص٢٧٨ ، للقريري . السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص٢٦٤

٢- ابن الفرات : تاريخ الدول والفرقة ج ١٢ ، لوحة ٧٤ .

٣- ابن خلدون : المعير ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، راجع أيضا محمد الباجي السعوي . الخلاصة النقية، ص ٦٢ ، حسن عبد الوهاب . خلاصة تاريخ تونس، ص ١١٢ .

يتضح مما سبق أن تلك الحملة قد أعد لها اعدادا كافية في أوروبا نتيجة البعثة النرويجية التي قام بها لويس، وكللت معايشه بالنجاح في الوقت الذي كان يصعب فيه جمع كلمة المسيحيين من جنود للقيام بعمل عسكري موحد ضد المسلمين. ويعد أن اطمأن لويس إلى اكتمال الاستعدادات لصفته ، كانت الخطوة التالية هي إعلان الجميع بمكان وميعاد التجمع استعدادا للإبحار، وكان المكان هو ميناء أجمورت، وموعدا للتجمع هناك خلال شهر مارس من عام ١٢٧٠م / شعبان ٦٦٨هـ أي مع بداية فصل الربيع . وقد واجه لويس الأمرين أثناء انتظاره لقادة الحملة فيما يتعلق بالموعد الذي حددته فلم تكن البية في الحرب من أجل الصليب متوافرة تماما لدى الجميع^(١) وكان احساس لويس بذلك سببا في ازدياد شعوره بظروفه الصعبة والنفسية^(٢) وأيضا لدى ذلك إلى تحبط الجميع في قراراتهم من حيث خط سير الحملة ووجهتها وموعدا قيامها .

وعلى الرغم من اكتمال الاستعدادات داخل فرنسا ، لم يكن لويس قد قرر بعد هدف الحملة ووجهتها ، وهذا إذا كان سيته جنوب تونس ، أم جنوب مصر ، أم جنوب بلاد الشام . حقيقة لقد كان الرأي الأرجح هو تونس لأن الطريق من أجمورت إلى سرينيا كان قصيرا ، وأما المسافة من سرينيا إلى تونس فكانت ثلاثة أيام . وكان يعتقد أنه باستلائه على تونس سوف يتمكن من فرض حصار برى ويهزى على مصر . وعلى الرغم من أن هذا غير قليل من المؤرخين العرب كان يتوقع أن وجهة الحملة ستكون مصر ، إلا أن لويس ومن معه استبعدوا ذلك تماما لأن مصر كانت في عفوان قوتها ، وأن محاولة التوجه إليها مرة أخرى سيكون مصيرها الفشل واسترجاع التكريرات الاكثية التي ضمنى لويس والمسيحيين جميعاً تسليحتها. ولم يكن لويس يتصور أن يعود إليها في مثل هذه الظروف بالإضافة إلى سبب عسكري آخر وهو أن المسافة من سرينيا إلى مصر تقارب الثلاثين يوما . كما استبعد أيضا التوجه إلى بلاد الشام للحالة المتردية التي وصل إليها الفرنج الشرق لذلك.

ويعد أن اطمأن لويس إلى أحوال مملكته ما يتولى أمرها في فترة غيابة فيسكومي كويت مدينة سان نثيس التي كانت تتمتع بحظف المادية ورعايتها كما سبق القول. قرر مغادرة

١- حامد محمود غشم الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢ .

٢- مورتون الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٣٥٦

باريس برفقة قواته إلى اجمورت وكان مكان تجمع قادة ورجال الحملة. وقد اختلفت الآراء حول تاريخ ترك مارس إلى لجمورت ، فمن قائل أن ذلك كان في نهاية شهر مارس عام ١٢٧٠م / ٤ شعبان ٦٦٨هـ، ومهم من قال أنه في لوانل ابريل^(١) ١٢٧٠م ٥ شعبان ٦٦٨هـ في حين نكر البعض الآخر أن يوم الرحيل كان في ١٦ مارس من نفس العام^(٢) / ٢٠ رجب ٦٦٨هـ، وعلى أي الأحوال احتار لويس بداية فصل الربيع حتى يكون ثمة متسع من الوقت أمامه في اجمورت ، يسمح بمقدم جميع القوات الصليبية. وكانت رغبته الأكيدة أنذاك أن يصل إلى تونس مع حلول فصل الصيف^(٣). حقيقة لم يفصح عن ذلك للجميع ، حيث أن قرار اتوجه إلى تونس مالمات لم يصبح أمرا رسميا إلا بعد ترك اجمورت ، إلا أن هذا كان أشد ما يتمناه

وبناء على ذلك بدأ لويس ورجاله رحلتهم من باريس إلى مدينة أغورمورتاس مروراً بمدينة بورجر Borge إلى مدينة بيو كيريفيا Bass Kindavem . ثم عبروا نهر الرون إلى ميناء اجمورت، وانتظروا هناك لحد وصول بقية الامدادات .

وفي لجمورت وقعت بعض الاضطرابات بين الجود والأهالي المدينة . يذكر ناسجي « أنه حين وصنا كنت أرض الميناء قد غطيت تماماً، وأصبحت لاتجد شبرا واحداً حاليا من الجود . أما البحر فقد كست السفن جانباً كبيراً منه. ومن الغريب أن بعض قادة السفن شكوا للويس أنهم ضلوا الطريق لأن المكان كان مجهولاً بالسمة لهم، وهم بالطبع ليسوا فرنسيين^(٤)، وليست لديهم خبرة بأعمال الملاحة . ويضيف قائلاً « أنه في بداية الأمر وصل إلينا أهل المدينة وأبدوا استعداداً طيباً لمساعدتنا » . ويقول أنه من بين الأهالي كانت توجد شخصيات لها مكانتها تقابلت مع لويس وخولت له السلطة في طلب أي شئ من بلدة لجمورت .

١- Broder, Op. cit., p. 458 . Nangis, p. 439 . Cf also , Richard, p. 185

وأيساً : مورتود : السروب للقسا، ج ٢ ، ص ٢٥٠

٢- Gaizot, St. Louis, p. 135 .

٣- Nangis, p. 477

٤- كما هو معروف أن عدداً كبيراً من قادة هذه الحملة قد سبق لهم الاتجاه نحو اجمورت استمداداً لرحيل مع لويس هروب مصر في حملته المعروفة عام ١٢٤٨م / ٦١٦هـ . لذا فمن المنكح أن هذه الجماعة التي ضلت الطريق ليست من الفرنسيين ولاظم بها مسالك فرنسا .

Joinville, p. 118

والأكثر من ذلك أن أهالي المدن المجاورة حين علموا بوصول الأسطول الصليبي ثوافوا على لويس مبدئين استعدادهم الكامل للمشاركة في الحملة . ويذكر أن هذا كله كان في بداية الأمر حيث وقد أيضا عند كبير من الحجاج الذين كانوا في طريقهم لزيارة الأراضي المقدسة، وقد باركوا حطوت الحملة ودعوا لها بالنجاح . ثم قدم إلى أجمورت عدد من التجار كانوا يتميرون بالنساء والعبدة وقد مارسوا أنشطتهم التجارية من حيث عمليات البيع للجمود وكانوا يتالفون من عناصر متنافرة الأمر الذي أدى إلى وقوع صدامات عنيفة بينهم وبين الجنود استخدموا فيها الأسلحة والسيوف . وقد قتل في هذه المشاهدات ما يزيد عن مائة شخص من الصليبيين ومن أهالي المدينة. وبدأ الصراع يحيم على الجميع بسبب ذلك الحادث ، لدرجة أن الملك والبارونات عقدوا مجلسا استثنائيا في ١٧ أبريل ١٢٧٠م / ٢٢ شعبان ٦٦٨ هـ ناقشوا فيه ضرورة وضع حد لهذه التصرفات غير المسؤولة حتى لو اضطرتهم الظروف إلى الرحيل بعيدا عن أجمورت^(١). وهذه إشارة واضحة إلى أن الأهالي كان لهم دور في هذه المشاهدات ، حيث يحاول البعض أن يلقى النعمة على جنود الحملة ولو أن ذلك كان صميحا لماذا أصر لويس على الترحيل بعيدا عن أجمورت والبحث عن مكان آخر أكثر أمنا وسلاما

وإن دلت هذه الأحداث على شيء ، فإمّا تدل على أن الصالح العامة كانت تغطي على الصالح العام وأن الروح الصليبية لم تعد قوية كما كانت في بداية الحركة . كما أنها سببت الكثير من المتاعب للحملة وهي لاتزال في بدايتها .

المهم، لقد بقي لويس داخل المكان الذي خصص له على الشاطئ محافظا بأحراس وهو في قلق بسبب تردى الأحوال بين جنوده وأهالي المدينة .

ويضيف مانجي أن هذه الأحداث زادت من تنويع صحة الملك لدرجة أنه لم يكن يفارق مكانه إلا نادرا . وحتى في أحد الاحتفالات الذي أقيم بمناسبة عيد القديس اسلم St. Anne في ٢١ أبريل ١٢٧٠م / ٢٧ شعبان ٦٦٨ هـ . كان لويس قابعا في مكانه حريصا شامخا . ولكنه في نهاية الأمر صمم على الخروج إلى مناطق الصراع الدائر بين جنوده وأهالي أجمورت ، وقد طلب من حراسه أن يصطحبوه إلى هناك حيث بدل جهودا كبيرة في سمبل تهدئة الأوضاع

Nangis, Op. cit., p. 441, Cf. also Billy, Op. cit., p. 307, Richard, Op. cit., p. 184, ١
Henry, Op. cit., p. 446, Boulenger, Op. cit., p. 242

ويج في ذلك بعد أن استمع الطرفان المتصارعان إلى مصيخته وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي^(١).

ومما لا شك فيه أن تلك الأحداث قد أثرت بصورة لو بأخرى على الامكانيات المالية والعنوية للحملة واعتري لويس القلق من جديد ، خاصة بعد التمرد الذي شب بين بعض الطرق المشتركة في الحملة فكانت هذه هي الطامة الكبرى التي حلت بالحملة قبل أن تبدأ مسيرتها. ثم إن صحة لويس وتلرويه وشيخوخته لم تكن تسمح له باحتواء الموقف وقد ظهرت بوادر التراجع والتردد بين كثير من المشتركين في الحملة ولم يوجد أحد من شارك فيها يرمي صابغة بهيف الاستيلاء على الأراضي المقدسة وحتى أخوه شارل كويت اتجو بدا عليه التردد واللامبالاة ولم يكن يفكر في أي شيء سوى في مصالحه الخاصة التي كانت أسعى من أي اعتبار آخر، والاستفادة قدر المستطاع من امكانيات الحملة لتحقيق أغراضه الشخصية

وقد استغرقت هذه الأحداث وفترة الإقامة في ميناء اجمورت ما يقرب من ثلاثة شهور من مارس حتى أوائل يوليو ١٢٧٠ م / من شعبان إلى ذي القعدة ٦٦٨ هـ ، الأمر الذي أدى إلى نفاد الكثير من امكانيات الحملة ومواردها المالية والتموينية. ويبدو أن لويس كان يدرك تماما الأضرار المترتبة على هذا التأخير ، مثلما حدث له من قبل في حملته على مصر حين اضطر للبقاء في ميناء قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨-١٢٤٩م) مما أدى إلى نفاد الأموال التي كان الصليبيون قد جمعوها ، واستهلاك المزن والمهمات المكسبة^(٢) على شاطئ الجزيرة . ولكنه في هذه المرة كان بهي أمرين أحلاهما مر هل يبقى بميناء اجمورت على أمل وصل بلبنة القوات الصليبية ضمانا لتدعيم الحملة أم يرحل بميوشه والفتنة على أشدها بين جنوده ومظهر الاحباط نارية ؟ لقد اختار الأمر الأول، ولذا طال انتظاره لرأب الصدع بين رجاله ، لأنه كان يدرك بحنكته السياسية خطورة الموقف إن رحل وقواته على هذه الحال من التمزق . لذلك طال انتظاره إلى أن قرر الرحيل من ميناء اجمورت يوم الأربعاء ٢ يوليو ١٢٧٠ م / ١٠ ذي القعدة ٦٦٨ هـ في ظروف صحية صعبة^(٣) وهناك اشارات واضحة تقيد أن لويس لم يكن

Ningis, pp. 442-443 .

١٠٦

٢- جوزيف نسيم . العنوان الصليبي على مصر ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

Journé, Op. cit., pp. 76-79 .

١٠٧

بذلك القرار الصحيح لأنه حتى ذلك اليوم لم يكن الأمر قد استقر تماماً فيما يتعلق بوجهة الحملة، وصا إذا كانت تونس هي بيت التصيد^(١)، والمهم أن الأوامر قد صدرت بالرحيل من اجمورت إلى جزيرة سردينيا . وفيما يتعلق بهذه المسألة اختلفت الآراء حول التوجه إلى سردينيا بالذات ، وصا إذا كانت تونس هي الحملة التالية لم غيرها . فشة رأى يقول أن لويس قبل رحيله يعبأ عن اجمورت عقد مجلساً استشارياً قرر فيه أن تكون وجهة الحملة هي تونس، في حين ينكر البعض الآخر أن هذا القرار لم يتخذ في اجمورت بل في سردينيا . وفده الأمور إن كانت تدل على شيء فإساً تدل على أن كهولة لويس جعلته يتحبط كثيراً في قراراته ومواقفه ويرتجل في اتخاذ خطواته ، مما جعل وجهة الحملة، وهو أمر في غاية المصطورة ، يخضع لهذا التضارب في القرارات والمواقف^(٢)

وبناء على ما تقدم ، أبحر الجميع نحو سردينيا . ويصف متى لوف ويستمسك الرحلة إلى سردينيا وصفاً دقيقاً حيث ذكر أنه في بداية الأمر كان البحر هائلاً والأمواج ساحرة ولرياح جميلة، ولكن فجأة اقلبت الأمواج رأساً على عقب وكان ذلك في ليلة الجمعة ٤ يوليو ١٢٧ / ١٣ ذي القعدة ٦٦٨ هـ . إذ سمعت أحوال البحر ، وصارت الأمواج تتلاطم ذات اليمين وذات اليسار ، ولقسوة العاصفة وحدا أن السفن بدأت تنزع بشدة في اتجاه عكسي للرياح . واستمر الحال هكذا حتى صباح يوم السبت الموافق ٥ يوليو ١٢٧٠ (١٤ ذي القعدة ٦٦٨ هـ) ، إذ ازدادت الأحوال سوءاً وأصاب الصعق حالة من الدرع واليأس ، بل فقدوا كل أمل في النجاة . ومع حلول ليل يوم الأحد التالي ٦ يوليو ١٢٧٠ م (١٥ ذي القعدة ٦٦٨ هـ) ازدادت العاصفة ، ولم يكن يربطنا أعضاء المشاعل والمصابيح ، ولم يكن لدينا القدرة على رؤية المدى الذي نقصده ونحن في عرض البحر وفي ذلك الوقت بحث الملك برسالة عاجلة إلى قادة الحملة يطلب منهم جميعاً التزام الهدوء والدماء في الصلوات آملاً في الخروج من هذه الأزمة، ولكن هذا لم يحد من زيادة الهرج والمرج داخل الأسطول، والأخطر من ذلك أن عبداً غير قليل من كبار القادة والفرسان كانوا يتصارعون على استخدام قوارب النجاة هرباً من الموت . ولكن مع هبيحة يوم الاثنين ٧ يوليو ١٢٧٠ م (١٦ ذي القعدة ٦٦٨ هـ) هدأت العاصفة قليلاً، ومع حلول

Enclos, Op. cit., p. 458 .

-١-

Archer and Kingsford , Op. cit., p. 401 .

-٢-

الليل عادت الأوضاع إلى طبيعتها الأولى هائلة . وقد بلغ من شدة انجلاء الجلود وخوفهم مما حدث أنهم لم يصنعوا أصيهم . بعد طول العذاب وانتظار الموت في كل لحظة ، بلّغهم أصيهم على مقربة من سردينيا ^(١) .

والخير بالذكر أنه لم يكن بين القوات من يعلم مقدار المسافة التي قطعوها من اجمورت إلى سردينيا والزمن الذي استغرقته ، بل لم يعرفوا يعرفون في أي يوم هم فيه . ولكن التعليمات صدرت إليهم صباح يوم الثلاثاء ٨ يوليو ١٢٧٠م / ١٧ ذي القعدة ٦٦٨ هـ بأنهم أصيهم على مسافة قصيرة من قلعة كاستيان بـ سردينيا ^(٢) Casere Caser وطلب منهم لويس التاسع أن يشكروا الله الذي أنقذهم من الموت ، وحرس على عدم ضياع سفنهم أو جنوحها بعيداً عن مسارها الطبيعي .

وبعد بلع الأسطول جريدة سردينيا بدأت تتوافد سفن أخرى قمت للمشاركة في العملية ، وكان المفروض أن تلتقي بالأسطول في ميناء اجمورت ^(٣) . وحاول أولئك الذين التحقوا بالبحش الصليبي في سردينيا تقسيم الأعذار لـ لويس بأن تلحهم لايعنى ترددهم أو عدم اقتناعهم بالمشاركة في العملية وأن ذلك كان نتيجة ظروف خارجة عن إرادتهم

وعلى أي حال ، استمرت إقامة الحملة في سردينيا حوالي أربعة أيام ، وخلال تلك الفترة دخل على الملك لويس ابنه فيليب الثالث ومعه أحد فرسانه متقلداً سبعة ، وأشار على والده بضرورة العمل على عقد مجلس عسكري طارئ لبحث الموقف واتخاذ القرارات النهائية المناسبة ^(٤) . ولكن الملك لم يفعل ذلك فوراً ، وبدلاً من ابنه فيليب قد أحس أنه إذا طال الانتظار مثلما حدث في اجمورت ، فسوف يؤدي ذلك إلى بداية ظهور اضطراب جديد . لذا أشار على والده بهذه الصيغة تلخياً لمصاعف قد تضرر بالحملة .

Man. of West , vol II, p. 45 .

١٠

٢- قلعة كاستيان قلعة مجرب ايطاليا تقع خمس أملاك شارل الاسدي وقد رويت أحداثها باسم Casere
Jovag اسطر

Camb. Med. Hist., vol II, pp. 382-390 .

Nangis, Op. cit., p. 441 .

١١

Nangis, pp. 442-443 .

١٢

لقد كانت تلك الظروف المحيطة بالحملة وما تعرضت له من متاعب مند وصولها إلى جمرات مدعاة لحدوث أكثر من تردد بين صفوف الجيش. ولكن يبدو أن لويس شعر بقليل من التفاؤل وهو بالقرب من أملاك أخيه شارل صاحب انجو، خصوصا بعد وصول باقي القوات فتلقاه أسطولهم وأملأن إلى أحوال الجند. ويبدو أنه أغضض عيونه عن الكثير من الحقائق الأليمة التي كشفت عنها تلك المعارك التي انتهت بين الجند وبعضهم البعض. وترتب على ذلك أن انتشرت المجاعة وتفشى المرض بينهم، ولكن لويس لم يعمل حسابا لكل ذلك. ففي أثناء الانتصار في سردينيا يروي تاسمى «أن العملة ولجأت الأمرين حيث قلت الأقوات لدرجة أنه لو شكك أن تحدث بيننا مجاعة كبرى، وأصبح الحمار يهددنا من كل جانب، ولكن رغم هذه المعاناة صدرت إلينا الأوامر بالرحيل بعيدا عن سردينيا في اتجاه تونس. واختير يوم الثلاثاء ١٥ يوليو ١٢٧٠م (نرى القعدة ٦٦٨هـ) موعدا للبحار»^(١) ومن المريب أنه في تلك اللحظة التي تلت فيها الجميع على القرار العاصم بالتوجه إلى تونس، فوجئ لويس بئن أخيه شارل يعتذر عن الرحيل معه بحجة أن مصالحه الخاصة بملكته تتطلب وجوده فيها. وفي حقيقة الأمر أن هذا السبب لا يتعارض مع مصالحه الخاصة على الإطلاق، بل فيه كل الفائدة لشارل إذ أنه فرصة طيبة لكي يستعيد ثبوته على العصامي المتمردين عليه وعلى حقوقه. لذا فهو سبب لا يعتد به ولا أساس له من الصحة، لأن السبب الحقيقي هو أنه أراد أن يكرس كل جهده للانتقام من بيزنطة وحلفائها. وكان يطمح في فرض سيطرته على كل أملاك الإمبراطور البيزنطي بايلاجوس (١٢٥٩-١٢٨٢م) لذا أراد أن يحقق كسبا مربوحا من طريق رج أخيه لويس في مهمة احتلال تونس والتفرغ هو لتوسيع ممتلكاته ضد بيزنطة، مستعملا في ذلك دهاء السياسي من طريق الاستفادة من هذا الحشد الهائل للقوات الصليبية لاحتلال تونس. وقد تزايدت حطوة شارل ضد بيزنطة لدرجة أن الإمبراطور ميخائيل عرض على البابا الروماني حضور الكنيسة البيزنطية له مقابل صرف شارل عن أملاكه. والليل على ذلك ما عمته الإمبراطور ميخائيل إلى الملك لويس التاسع وهو على حصار تونس يستغيث به ضد نشاط أخيه المترايب وتهديده لبيزنطة^(٢).

Brasler, Op. cit., p. 458, Matt. of West., vol II, p. 450; Hangu, p. 441, Cf also Archer and Kingsford, p. 401

Guzzot, St. Louis, p. 138.

وعلى العموم فقد كانت عدم مصالحة شارل لأخيه لويس في تلك الحملة لها أمواً الأثر على الصليبيين، حيث كان شارل يشكل ضلعاً أساسياً فيها

ويرى العديد من المؤرخين اللاتين أن لويس تعمل كثيراً في قرار الإبحار نحو تونس لقربها من سردينيا، وأنه كان الأولي به أن يعيد تنظيم صفوفه ويتغذى مشكلة قلة القوات التي نجت من طول الانتظار سيما لجمود وتلفر وصول باقي الامدادات ، بالإضافة إلى انتشار المرض بين رجاله نتيجة الشدائد التي واجهتهم أثناء إبحارهم من اجمورت إلى سردينيا . لقد عاد كل هذا بكثير من الضرر على الحملة ، وأدى إلى حدوث القويضي بين رجال الجيش وهبوط الروح المعنوية لديهم وهي أهم سلاح للمحارب

وكان على لويس إعادة تنظيم صفوفه من جديد قبل اتخاذ قرار سريع بتحديد وجهة الحملة وتاريخ إبحار . ولكنه لم يهتم كثيراً بكل هذه الأزمات

ويتساءل نابجى فانلا : « لماذا الحملة والسفارة بين سردينيا وتونس لاتتعدى ثلاثة أيام^(١١) » وعلى أي الأحوال فإنه من الواضح أن هذه الظروف شكلت عنصراً هاماً في اضمحلال الحملة وتعرضها للفشل الذريع الذي مررت بواقعه قبل أن تطلأ أرض تونس.

وكيفما كان الأمر ، فقد استأنف الصليبيون رحلتهم في عرض البحر من سردينيا نحو تونس . وعندما ابتعدوا عن سردينيا بمسافة : « ميل كان الاجتهاد قد بدأ عليهم » وفوجئوا بأن مرسأ قد بدأ يستشري بينهم واستمر الحال هكذا حتى أصبحوا على مسافة عشرة أميال من تونس . وقد ثمالت الجميع أنفسهم حاصة كلما اقتربوا من الشاطئ التونسي ، ومحنة هبت رياح عاصفة مالمرب من تونس مما صاعف من تهالكهم ، وكانوا لايزالوا داخل سفنهم ، وبدأت أعياء المرض تزداد وتتفجع . وقد أحبط لويس وهو في سفينة الملكية بكل هذا، وتأكدت الأنباء بأن ما يقرب من ٥٢٥ جندياً أصبحوا في حالة شديدة من الأعياء، وأدرك لويس خطورة الموقف التي تمثلت في ضرورة مقاومة هذا المرض وتبوير المؤن اللازمة للحملة.

وحين بلغوا قرطاجنة تسعت بحصيص من الأمل في نفس لويس . وفكر في ارسال عدد من جنوده لاستطلاع الأمر وتبوير احتياجات العدد من المؤن وسبل العلاج . ولم يفكر قط في بث

Nagis , Op. cit., p. 441 , Cf also Henry , Op. cit., p. 449 , Boulenger, Op. cit., p. -١

عيونه وجواسيسه للتعرف على الاستعدادات العسكرية للتونسيين مما يدل على خطورة الموقف داخل اسطول الصليبيين وقتها، واتهمناك لويس في راب الصدع بين جنوده .

وقبل الاستطراد في الحديث عن اللحظات الأولى من اقتراب الحملة من أرض تونس ، يضمن استعراض أحد الآراء الذي تار حول الوقت الذي استغرقته الرحلة البحرية من سردينيا إلى تونس . فيذكر هرقل أنهم وصلوا قرب تونس يوم ٢٤ يوليو ١٢٧٠م / ٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ^(١) أي أنهم قطعوا ما يقرب من ٩ أيام من سردينيا إلى تونس ، وهذه الرواية بعيدة عن الحقيقة لأن المسافة بحرا بين ورسائل النقل في ذلك الزمان لاتزيد عن ثلاثة أيام، حتى لو كانوا قد تعرضوا لأي ظروف مناخية سيئة خلال الرحلة والوقت أننا لم نعثر على اشارات صريحة تقيد تعرضهم لمواقف شديدة الألم إلا تلك العاصفة التي حدثت على بعد أقل من عشرة أميال من تونس ، ولم تستمر سوى بضع ساعات^(٢) وبناء على ما تقدم، فإن الزمن الذي قطعتة الحملة من سردينيا إلى تونس لم يرد عن ثلاثة أيام، وهذا ما سنكتشفه مع اسطور التالية.

وعلى أي حال، بعد أن اطمئن لويس إلى سير الأمور قرب قرطاجنة توارثت الأخبار بعدم وجود مانق يمنع دون نزول الجنود متخفين في زى نجار تونس إلى البر لكي يتأخروا ما يحتاجون إليه. وفعلا أرسل لويس عددا من جنده في زوارق صغيرة متخفين في زى أهالي تونس للقيام ببعض المهام التي كلفوا بها، والعمل على انقاد المرحسى المسيحيين وبنكر داجي ولقد وصل بعضهم فعلا إلى قرطاجنة خلسة ، ووجدوا بعض المنازل المخصصة بالتجار التونسيين، وهم اقترنوا معهم بمنو أنهم اكتشفوا أمرنا، وكبرها جدا وجرينا فرق أرضهم وبدأوا يفلتون ما كل شيء يمكن أن سناهم معهم^(٣)

أما كيف تم اكتشاف أمرهم ، فالأمر غاية في السهولة ، حيث يجب ألا ننسى العلاقات التجارية المزدهرة التي كانت قائمة بالأمس القريب بين التونسيين والفرنسيين ، والصليبيين

Smiles, Op. cit., pp. 458.

١-

Nangis, Op. cit., p. 540 . Mass of West, vol II, p. 450

٢-

Nangis, p. 540 . Cf also Boulenger, Op. cit., p. 248

٣

من انتصارات هلي لبان الحملة على تونس لعبت مصر دوراً هاماً في الدعوة إلى الجهاد. وكانت الخطب والمواظع الدينية التي تلقى من فوق المنابر لها أكبر الأثر في الحث على الجهاد ضد الغزاة ، فلما حدث أثناء الحملة الصليبية على مصر ١٢٤٨م / ٦٤٦هـ حين قام الجامع الأزهر بدور رئيسي في تنبيه الأتباع إلى الخطر الجاثم في أرض فلسطين ونصحت خطب العلماء ورسائل الحكام بالآيات القرآنية ومقاتلوا في سبيل الله الذين يقاثلوكم إلا أن نصر الله قريب ^(١)، كما كان لمصر دورها الحيوي في التحرك السريع لمجابهة أمر الحملة على تونس عسكرياً فعلى الرغم من أن بيبرس كان مشغولاً بشمر الصليبي في بلاد الشام^(٢)، إلا أنه بدأ على الفور في تحصين الثغور الإسلامية سواء في تونس عن طريق امداد المستنصر بالزق والعتاد وحث عريان برقة وأفريقيا على الوقوف بجوار المستنصر ^(٣)، أو في مصر عن طريق تحصين الثغور المصرية وعمارة الشوانى والجصور الممتدة إلى ميناط هوها من أن يقصدها الفرنج ثانية^(٤).

وهناك رواية انفرد بها أحد المؤرخين المسلمين عن توجه الحملة إلى الاسكندرية ، وهذا أمر مستبعد ، ومفادها ، أنه أثناء وجود بيبرس في بلاد الشام وصلته الأخبار بأن الفرنج حاولوا وجهتهم من تونس نحو الاسكندرية بل أنهم تمكنوا فعلاً من الاستيلاء على مركزين للمسلمين ، فعاد على الفور إلى الاسكندرية ونزلها في ١٨ شعبان ٦٦٨هـ (١٤ أبريل ١٢٧٠م) ، وأمر بعمارة القنطر وتحصين البلاد^(٥) ، ولكن الخبر لم يكن أكيداً ، لأنه طال

^١ - جويريف مريم ، الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى ، ط١ ، الاسكندرية ، ١٩٨٦ ، ص ٢٤٨

^٢ - ابر الوردى : تنمعة المستنصر ، ج١ ، ص ٢٦٩ ، ابن الفرات : تاريخ الدول ج ١٢ ، لوحة ٢٧ ، راجع أيضاً مؤرخو : العرب القصة ، ج٢ ، ص ٢٤٤

^٣ - المعين : عقد الجهاد ، ج٢ ، ق٢ ، ورقة ٥٥٨

^٤ - واضح من روايات المؤرخين العرب للمشاركة في بيبرس كان يعتقد أن وجهة الحملة مصر وليس تونس ، فلم يس بعد حملة تونس على بلاده قبل ذلك التاريخ محاولاً ربح قلوب اسطر القوي ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٩٠

^٥ - تاريخ البردالي ، ورقة ١٢

انتظروها ولم يظهر أي أثر للفرنج . ومع ذلك بدأ في اتخاذ كل الاحتياطات اللازمة . وفي الواقع أنه في هذه الأثناء كثرت الأقويال والتكهنات بشأن خط سير الحملة هبطوا للهزيمة انقاسية التي حلت بفؤيس في مصر من قبل ، جعلت الكثيرين يتوقعون ضرورة عويته للانتقام ومحو عار الهزيمة ، رغم أن بيبرس كان على يقين باستمالة حدوث هذا إلا أنه لم يتوان عن تخصيص الاسكندرية أو غيرها من السواحل المصرية التي كان يمكن أن يقصدها الفرنج فلم يبحر وسف في تحصين كل من نسياب والامكندرية، ومراسلة المستنصر وأعداده بالمساعدات في نفس الوقت، ورغم كل هذه الاستعدادات ، فقد وصلت رسالة عاجلة من مندوب والي مدينة الاسكندرية يعلمه بأن الفرنج قاصدوا المدينة وأنهم نزولوا البر، وأعلمه بعدم قدرته على التصدي لهم وعدم استطاعته في إحراج قطع الأسطول لمواجهة هذا الموقف وذلك لعيباب المسئول عنه في مهمة رسمية فاستدعاه بيبرس على الفور وأصدر أوامره للأهالي بالآلا يفتح أحد حائزها بعد المغرب والآلا توقد نار في البلاد ليلاً^(١). ثم توجه على فوره إلى نسياب وبخلها في يوم الأربعاء ٥ ذي القعدة ٦٦٨هـ / ٢٧ يونيو ١٢٧٧م^(٢) لأنه كان يتوقع أن تكون نسياب هي مطمهم العقبي أن أرادوا العودة أسوة بما حدث أثناء حملة لؤيس التاسع نفسه ومن قبلها حملة جان دي بري. ولكن الفرنج لم يقرروا من نسياب ولا من الاسكندرية. وما حدث بخصوص الاسكندرية مجرد احتمالات وتحيلات بأن لؤيس- كما سبق القول- لابد أن يتوجه شطر مصر ليمحو عار الهزيمة التي مني بها من قبل. ولكن هذا العير ليس له أساس من الصحة ولم يفكر لؤيس في ذلك مطلقاً لأنه لم يفعل أن ميزان القوى في الصراع الدائر بين المسلمين والمسيحيين كان يتجه بشدة نحو مصر التي كانت تعيش أوج عصرها الذهبي لذا كانت فكرة اتوجه إليها فكرة عقيمة لا جدوى من وراءها. رغم أن الآمال كانت تهمره للانتقام منها

ومير حاف أن الهدف الأساسي من توجهه إلى تونس هو الاستيلاء عليها، ثم الزحف عبر الصحراء العربية إلى القاهرة مباشرة لتحقيق حلمه القديم بالقضاء على مقل مصر العالم العربي الإسلامي . ثم الاتجاه شمالاً صوب الأراضي المقدسة لتحقيق باقي الآلامع الصليبية المروعة

١- التقرير السلوك ٦، ٧، ٢٤، ص ٨٨٧-٨٨٨. أبو الحسن النجم الزاهري، ج ٧، ص ١١٧-١٢٨ .

٢- ابن أبياس : تاريخ مصر ، ص ٨٧-٨٨ .

وبناء على ما تقدم، أدرك بيبرس أخيراً أن وجوة الصلة هي تونس وليست مصر، فلم يلحز وسعاً في توطيد موقف المستعصر ومساعدته^(١)، ومن الغريب أنه في نفس الوقت لم يأل المستعصر جهداً في إصلاح أسوار المدينة وعمارته خزائنها بالحبوب، كما بدأ في مضايقة التجار الفرج في دولته وضيق عليهم سبل العيش، وشرع في عقد الاجتماعات العسكرية حين وصلته الأخبار الأكيدة برسو سفن العدو قبالة قرطاجنة. وبدأ في تنظيم خطته لانتزاع أفضل الوسائل للتمسك بهم في الوقت الذي أخذ فيه الخطباء في المساجد فيلقاء الخطب الحماسية لشحذ همم الناس ضد العدو وبدأ عامة الشعب في تزيين الأبيات الشعرية التي كتبت في ذكرى أمر لويس بالمقصورة^(٢).

وكان من بين الآراء العسكرية ما أشار إليه البعض بترك العدو في عرض البحر دون الاستمباك معه حتى يتفد ما لديه من ذخيرة ومغلة، فيضطر للموعدة إلى بانه، ولكن حذر البعض الآخر المستعصر بأنه إن تركه هكذا فربما ييأس من طول الانتظار فيضطر إلى الرحيل نحو ثغر آخر من الثغور التونسية أو الإسلامية عامة، وهذا ما لايرضاه المستعصر ولا التونسيين بوجه عام، لأنه أدرك ضرورة إبراز دوره كقائد مسلم حريص على مصلحة المسلمين في أي مكان. ولهذا السبب رجح المستعصر الرأي الآخر الذي أشار بضرورة العمل على إغناء تونس فرصة النزول إلى البر لكي يسهل الفتح به ويجتنبه في مواجهة حاسمة.

وفي حقيقة الأمر، فقد قام المستعصر بدور فعال في التمسك لهذه الخطوة من قبل الصليبيين، ولم يعتمد على قواته فحسب، بل وفدت عليه قوات من السودان الذي كان على علاقة طيبة بالمستعصر في العديد من المجالات سواء أكانت سياسية أم اقتصادية^(٣)، فكان

١- ابن بطون، العمر، ج٦، ص ٢٩١-٢٩٢، راجع أيضاً: حسن عبد الوهاب صلاح، تاريخ تونس، ص ١١٣-١١٤.

٢- محمد مزالي ونشرون: تاريخ أفريقيا الشمالية، ص ١٨١.

٣- لقد أنشئت العديد من المراكز التجارية على طول الطريق من المغرب إلى السودان، وكانت مراكز نشطة اشتهرت بجمع كميات كبيرة من الذهب وكانت تلك المراكز تقوم بتصدير الريوت والقطن والحبوب وبعض أنواع الفخار والطوب وكل التجار يهرون من هناك محملين، القبر والنفق والتمع والمزيد أكثر.

انضمام حرمي: العلاقات بين الملائكة للمردية والمشرق الإسلامي، ص ٢٧٨.

السودان من أول الدول الإسلامية التي بادرت بمساندته في مواجهة العدو الصليبي وفي هذا الصدد يروي متى لوب وستمنستر « أن الجود السودانيين كانوا يحيطون بالشاطئ من كل جانب وكانوا يزارون كالمجوش الصارية ليخطفونا . ومن شدة خبتهم فإبهم لم يشتركوا معاً في معركة حربية مباشرة، بل كانت المناوشات تجري من بعد ، وكان علينا ألا نخفل منهم ولو لثبينة واحدة ^(٦) . ويضيف قائلاً أنه على الرغم من أن الفرنج لم يكوموا يعميرونهم امنعاً كبيراً، إلا أنهم لم يفكروا أن أخطاراً جسيمة أخرى كانت تحيط بهم . ويقول للأرح الفرنسي مويرود مؤكداً رواية متى، «أننا حين وصلنا بالقرب من قرطاجنة، وأنه على الرغم من الآمال الكبيرة التي كانت بداخلنا تجاه المستنصر ، إلا أنه أبدى غير ما كنا نتوقع منه، لأن كل هذه الأسواق والآمال التي منحنا إياها كانت حيلة منه وفما توقعنا فيه فهو لم يأت إلينا تنفيذاً لوعده، بل أظهر كل ما هو عكس ذلك وهبداً بالذبح إن لم نبتعد حالاً عن شواطئ بلاده ^(٧) »

وهذا دليل آخر على عدم صدق الرواية الخاصة بتوّد المستنصر إلى لويس وعرضه الدخول في ادينة المسيحية وتسليم بلاده، ويتضح من هذا كله سوء التخطيط من قبل لويس ، وتحيطه في قراراته حين علم بتوايا المستنصر الحقيقية . كما يتضح أن الهدف الديني لم يكن سوى سبباً أعطى وراء رجال الحملة أطماعهم الحقيقية ، لأنهم لو كانوا صانقين في بواياهم ، ما اختاروا تونس هدفاً لحملتهم، وما تحيطوا في قراراتهم أو ارتحلوا في تحركاتهم . وقد كان هذا ، وصفاً شاملاً أمام أعين القوى الإسلامية العربية الأخرى مما أوجد ترابطاً شديداً مع تونس في كفاحها ضد الصليبيين في الوقت الذي كان فيه ميزان القوى يتجه لصالح المسلمين ، مما حتم على تونس أن تقوم بدور كبير في التصدي لهذه الحملة بصفة خاصة والجهاد ضد الصليبيين ببلاد المغرب بصفة عامة، على الرغم من المؤامرات والاضطرابات السياسية التي كانت تمر بها بلاد المغرب العربي وقتها مما يدل على ترابط فكرة الجهاد المشترك بين العرب ضد الصليبيين ، سواء في مصر أو في بلاد الشام أو في المغرب العربي كله ^(٨)

Mont. of West, vol II, p. 450.

٦- مويرود. المغرب المقدسة، ج ٢، ص ٢٠٢.

٧- جيريوف نسيم يوسف. الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في المصور الوسطى، ص ٢٢٨.

الفصل الثالث

وصول لويس التاسع إلى تونس

(١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدة ٦٦٨هـ)

وصول لويس التاسع قبالة قرطاجنة في ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدة ٦٦٨هـ - مناقشة مختلف الآراء حول تاريخ وصول العملة إلى تونس - سقوط قلعة قرطاجنة في قبضة المسلمين ، والآثار المترتبة على ذلك - موقف المستعصر من العملة والآثار السلبية التي تترتب على سوء خطته - استعانات انظار بيبرس لمواجهة جيوش العملة واستئصال شخبتها داخل مصر وخارجها - بناء المبرج للمسكرات والأسوار المعامية داخل قرطاجنة - الماوشات العسكرية النقطية بين قوات لويس والمسلمين بتونس ، ونتائجها

هكذا تمكن لويس من جمع ثلثات حملته والنقاط أنفاسه بعد وصوله قبالة مدينة قرطاجنة عقب الرحلة الصعبة التي واجهته هو وقواته من سردينيا إلى تونس ، وبات محتملا عليه أن يعيد تنظيم المواقف من جديد لمواجهة الملق الذي وضعه فيه المستعصر . فقد ذكرنا من قبل أن لويس ومن معه من قادة الحملة قد أصابهم الدفول من التحدي المسافر الذي أظهره المستعصر حيالهم ، والذي كان مفديرا تماما للوعود التي قطعها على نفسه بتسليم بلاده لهم ، وبحرله في الدين المسيحي كما ادعى بعض المؤرخين الغربيين . فقد كان ذلك الموقف سببا في حدوث اضطراب شديد بين صفوف الحملة ، لأن لويس كان قد عقد لاما كبيرة على هذه الوعد .

ويبدو أن أعدائه للحملة قد اعتمد إلى حد بعيد على المساعدات المعروفة من قبل صاحب تونس . إذا أصبحت الأمور أكثر تعقيدا ، خاصة وأن الملك الفرنسي قد واجه الأمرين من قلة القوات وانتشار الأمراض بين جنوده قبل أن يقترب من تونس ، وذلك بسبب طول الانتظار بيناء اجسور ، وتغير وصول الامدادات التي كان قد اتفق عليها مع قادة أوروبا هذا ، فضلا

عن أن التعاصف الشديدة التي واجهتهم في الطريق ، وسوء الأحوال الجوية، كان لها أكبر الأثر في وضوح اللحل والاضطراب في صفوف الحملة ، وساعدت على انتشار الأمراض بين جنودها . لذلك كان عليه أن يعمل على إعادة تنظيم كل خطته في سوء هذه المستجدات .

وقبل أن نستهل حديثنا عن الأحداث التي صاحبت تروى لويس وجنوده إلى قرطاجنة ، لابد أن نستعرض مختلف الآراء التي ثارت حول الميعاد الذي وصل فيه إلى تونس، فقد وردت اشارات عديدة متضاربة بهذا الخصوص إذا أوضحنا من قبل أن لويس عندما وصل مدينة قرطاجنة لم يحتلها على الفور بل أمضى بعض الوقت في عرض البحر قبل أن يقتحم المدينة. ولذا تعددت الآراء حول الوقت الذي نزلت فيه قواته إلى المدينة. ولم يقتصر الاختلاف في الآراء حول يوم الوصول ذاته، بل امتد ليشمل الشهر والسنة التي قامت فيها الحملة.

فيذكر المؤرخ العربي وأبم دي نابجى أن وصول القوات الصليبية إلى تونس كان يوم ١٨ يونيو - ١٢٧٠ م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨ هـ^(١)، في حين يؤكد ابن خلدون أن وصولهم كان أحر شهر ذي القعدة ٦٦٨ هـ / ٢٢ يوليو ١٢٧٠ م^(٢) بينما يذكر هرقل أن وصولهم كان يوم ١٥ يونيو - ١٢٧٠ م / ٢٣ ذي القعدة ٦٦٨ هـ ، وأن احتلالهم لقرطاجنة تم بعد ذلك بثمانية أيام أي يوم ٢٤ يوليو - ١٢٧٠ م ٢ ذي الحجة ٦٦٨ هـ^(٣)، أما ابن أبي دينار فلم يحدد يوماً معيناً في شهر ذي القعدة ، بل ذكر أنه خلال هذا الشهر من عام ٦٦٨ هـ / يونيو - يوليو ١٢٧٠ م كان وصول القوات الصليبية قبالة تونس^(٤).

في حين نعت طائفة أخرى من المؤرخين المسلمين والمسيحيين إلى أن وصول الحملة قبالة تونس كان في شهر ذي الحجة ٦٦٨ هـ / أغسطس ١٢٧٠ م. فيذكر ابن أبي رزق أنه في ٢٥

١- ، Nangis, Op. cit., p. 449 Cf also Richard, Op. cit., p. 184 , Bailly , Op. cit., p. 309 , Boulenger , p. 247

٢- ابن خلدون : المعبر، ج ٦ ، ص ٢٩١

٣- Ercles, Op. cit., p. 458 .

٤- ابن أبي دينار : المؤس في تاريخ أفريقية وتونس، ص ١٢٨ . انظر أيضاً : محمد المصيب اب

ذى الحجة ٦٦٨هـ / ١٧ أغسطس ١٢٧٠م كان وصول القوات الصليبية إلى تونس^(١). وقد اقترب معه من هذا التاريخ ابن القنفذ الذي يذكر أن نزول النصارى تونس كان يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة ٦٦٨هـ / ١٨ أغسطس ١٢٧٠م^(٢). وقد اتفق معهما المؤرخ الغربي ريمو بأن وصولهم تونس كان خلال شهر أغسطس ١٢٧٠م / محرم - ذى الحجة ٦٦٨هـ بون تحديد اليوم^(٣).

هذا ، في الوقت الذي اختلفت فيه طائفة أخرى من هؤلاء المؤرخين حول العام ، الذي وصلت فيه العملة إلى تونس فيبكر جومروا دي بلويه Geoffroy de Beaulieu أن وصولهم تونس كان عام ١٢٦٤م / ٦٦٣هـ ، إذ يقول ، « أنه الوقت الذي أتى بثمار اليهود التي يدها إليها كسبت الرابع Clement IV (١٢٦٥-١٢٦٨م) من أجل انقاذ العملة المدينة التي كانت وجهتها تونس هو عام ١٢٦٤ (٦٦٣هـ) » في حين يؤكد أبو الفدا أن وصولهم كان عام ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م بون تحديد لليوم أو الشهر^(٤) وقد اتفق معه جان جواسفيل الذي أورد أن تاريخ العملة كان عام ١٢٧٠م / ٦٦٨هـ بون ذكر تاريخ وصولهم تونس بالتحديد ، على الرغم من شراء كتاباته حول سيرة لويس وحمليته على مصر والشام ، إلا أن عدم مصاحبته العملة عند تونس لم يتح له الفرصة للتحديث عنها بالمسهاب^(٥).

ومن الغريب أن هذا التضارب لم يكن بين المؤرخين وحدهم ، بل وجد التضارب في روايات المؤرخ الواحد بهذا الشأن. فيبكر المقرئ مثلاً أنه في عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م - ١٢٦٢م جمع الفرنسيين صاكره يريد أخذ مغياط فأنشأ عليه أصحابه بقصد تونس أولاً ليسهل له أحد

١- ابن أبي ذؤيب . الأليس للطرب ، ص ٢٧٨

٢- ابن القنفذ (أبو العباس أحمد بن محمد بن علي بن المطيب ابن القنفذ القسطنطيني) القاسية في مبادئ القوة العظمى تونس ١١٦٨ ، ص ١٢١ .

٣- Raimond , Op. cit., p. 519 .

٤- Beaulieu , Vita Ludovici noni , R. H G F., t. xx, p. 20

٥- أبو الفدا المختصر في أخبار البشر، ج ٢ ، ص ١١٦ ، ابن الوردي شجرة المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٩

٦- Journé, Op. cit., p. 299

دمياط بعد ذلك ، فصار إلى تونس وأشرف على إحصائها^(١). وقد أبدى في روايته الكتابي^(٢)، عند قال إن تاريخ تلك الحملة هو عام ٦٦٠ هـ. ويتخذ بهذا التاريخ عند غير قليل من المؤرخين المسلمين. فيذكر أبو المحاسن أنه في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦١-١٢٦٢م، بقيت نفس لoris تصدته بالعوية إلى البلاد الإسلامية لأخذ ثارها مما جرى عليه بدمياط ، واهتم تلك اهتماما كبيرا ، وفي سنة ستين وستاتة قصد السواحل المصرية فقبل له إن قصبت مصر ربما يجرى لك مثل المرة الأولى والأحسن أن تلتصق تونس وكان ملكها يومئذ محمد بن يحيى الملقب باستنصر^(٣)، ويذكر المقرئ في رواية أخرى عن حملة تونس أنه في عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٢-١٢٦٣م ورد العبر بمسير الفرنسيين وملك الفريج إلى تونس ومبارية أهلها، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العسكر^(٤)، وأبدى في روايته هذه «بن الفرات» الذي قال أنه في شهر محرم من عام ٦٦١ هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٢٦٢م نزل الفريج بقيادة الفرنسيين على تونس^(٥)، وبذلك زاد عن الآخرين بتحديد الشهر ثم عاد المقرئ ولورد أخبار الحملة مرة ثالثة ضمن أحداث عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٠م، حيث قصد الفرنسيين معه جماعة أخرى من ملوك البصارى تونس، فاستعد له السلطان أبو عبد الله المستنصر ملك تونس...^(٦).

وعلى أي الأحوال يعتبر التحديد الزمني الذي لورده للفرج العربي ولم دى ناسحي ومن اتفق معه من المؤرخي المسيحيين والمسلمين من أن تاريخ الحملة كان ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ دى القعدة عام ٦٦٨ هـ هو أدق ميقات لها وذلك لأنه كان معاصرا للحملة وشاهد حيائها . وتضمنت روايته بالصدق والواقعية ، لأن يوم ١٨ يوليو وهو يوم الوصول لقناة تونس يطابق إلى حد كبير المدة التي يمكن أن يقطعها الأسطول من سرفينيا إلى تونس والتي تتكرب من ثلاثة

١- المقرئ ، السواك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٠٤

٢- الكتابي : قوات الفريجة ، ج ١ ، ص ٨٢-٨٤

٣- أبو المحاسن : الملوك السلافي ، ج ٢ ، ورقة ٥٢٠

٤- المقرئ ، السواك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٠٤ .

٥- ابن الفرات - تاريخ الدول والممالك ج ١١ ، لوحة ٢٧ ، ج ١٢ ، لوحة ٧٤

٦- المقرئ ، السواك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٦٥٣ ، أنظر أيضا

أبام حيث كان معادرتهم سردينيا يوم ١٥ يوليو مع احتساب الفترة التي قاعت فيها العاصفة والتي لم تزد عن بضعة ساعات . وهذا يجعل وصولهم يوم ١٨ يوليو تاريخاً مقبولاً^(١)، والدليل على ذلك أنه بعد هذا التاريخ لم يسجروا بذات المناوشات بين الطرفين، ويحاطق هذا رغبة لويس في اختيار فصل الصيف موعداً لهذه العملية^(٢).

وإلى جانب هذه الخائفة من المؤرخين وجد عند آخر منهم مروا مرور الكرام حول توقيت العملة^(٣) الأمر الذي أوجد تضارياً بين روايات الجميع حول الفترة التي قطعتها العملة في تونس أيضاً .

وإذا كانت المصادر العربية والأجنبية، قد اختلفت حول تاريخ العملة فقد اختلفت أيضاً حول اسم حاكم مصر آنذاك . فيذكر ابن إياس أنه وردت أسماء عن حملة جديدة لـ لويس بعد كسره في ميناو ذلك زمن الخليفة المصور . يقول: «إن ملك فرنسا لما اعتقل بدار ابن لقمان كاتب السر وتولى عقابه الطواشي صبيح الفاطمي .. إلى أن اعتدى نفسه وأقاربه وحلفوا إيماناً عظيماً بالآ يتعدى على بلاد المسلمين إلا أنه بعد ذلك حدثت نفسه بالعودة إلى أخذ مصر رغم أنه كان ينفذ الأموال للملك المعز أيك ، فجمع العمساكر وضع المراكب الكثيرة وقصد العودة لأخذ ميناو فلما بلغ المصور ذلك جمع الأمراء وضمروا المشورة فالتقى أهل الرأي على أن يرسلوا إليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد والخط عليه^(٤) وهذه الرواية

Nangis, Op. cit. p. 449 .

-١-

٢- يرى تاسمي أن لويس التاسع قد ذكر حروقة السفارة التي أرسلها المستنصر إليه قبل دخول العملة إلى تونس «أنتي قد قدرت أن تحضر إلي بلكم لأنظم أموره وسجوني ميعاد حشوري في فصل الصيف في شهر أغسطس حتى أتمكن من جمع معاصيل هذه البلاد في هذا الشهر» المرید أنظر Nangis, Op. cit. p. 449

٣- Wingler, Infidel Emperor, p. 317 , Chactres, R. H. G. F, t. XX, p. 36 , St. Paulus, R. H. G. F, p. 67 , Anonymous, Oorta Same Lidoovic Nona , R. H. G. F, t. XX, p. 657 .

٤ - بعد مقتل المعز حر القوي أيك أول ملاحق، الماليك تكبير من روجه شجر القدر تولى بعده ابنه الملك المصور نور الدين علي وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً وأبداً ولانته يوم ٢٦ ربيع أول ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م، إلى أن تارت المشاكل بينه وبين الأمير منيف الدين قطز، وانتهى الأمر بالانفصال من المصور وتولية قطز الحكم في ٦٥٨هـ / ١٢٥٦م أي أن تولية المصور وعزله كانا قبل أحداث هذه الحملة بما يزيد عن اثنتي

ليس لها أي أساس من الصحة لأن المرة الوحيدة التي فكر فيها لؤيس العودة لهاجمة
اضطلع في دمياط ثم حول وجهته إلى تونس كانت زمن الطبقة الظاهر بيبرس وليس على
عهد لتصوير بن الممر أليك، وأما إذا كان ابن أبياس يقصد المنصور خليل ابن الملك الصالح
نجم الدين أيوب من روجه شجر الدر فإنه قد جاسب الحقيقة أيضا لأنه مات وهو طفلا في حياة
أبيه الصالح نجم الدين ^(١)، وعبر مقدول أن يكون المقصود هو المنصور سيف الدين قلاوون
والد الأشرف خليل لأنه جاء في تاريخ لاحق لا ينتمى مع تسلسل الأحداث .

وكيفما كان الأمر، فبعد وصول لؤيس قبالة قرطاجنة أصبح شغله الشاغل في بداية الأمر،
أن يعمل على علاج مرضاه الذين بدأ المرض يستشري بينهم وبينك قواهم، فقد ذكرنا أنه
أرسل عددا من رجاله الذين تجمعوا في ربي تجار تونس للعمل على شراء احتياجاتهم . وبعد
مودة هؤلاء إلى لؤيس فليكونه باكتشاف أمرهم ، صمم لؤيس على توسيع نطاق هذه البعثات
ونزل هؤلاء بصورة علنية ، محاولين إرغام الأمالي أن يبيعوا لهم ما يحتاجونه . وقد تصدى
لهم التجار التونسية ورفضوا أمداهم بالمزق أو الإسماعيات اللازمة لعلاج مرضاهم ويشير
ناسي أن هؤلاء الجمود رجعوا إلى قائلهم وهم في شدة العنق والعربط من أمالي قرطاجنة

= عشر عاما . والمريد أنظر المبروري السلك . ج ١ ، ق ٢ ، ج ٤ . أبو الحسن النجوم الزاهرة .
ج ٧ ، ص ٤٧ ، ابن أبياس تاريخ مصر ، ج ١ ، ص ٨٧-٨٨ . ويلاحظ أن رواية ابن أبياس تضمنت بعض
الاطع التاريخي إذ ورد فيها أن ابن لقمان كان كاتب السر والحقيقة أنه كان يشغل منصب قاضي القضاة
بإندبار المصرية كما جاء أن الذي تولى حراسة لؤيس في أسره هو صبيح الفاطمي . والحقيقة أنه كان يعرف
باسم صبيح انعطى مسة إلى للعظم توران شاه لمر ملوك الدولة الأيوبية في مصر

١- من المعروف أنه بعد موت العظم نوراشاه لمر ملوك الدولة الأيوبية مهدت شجر الدر بزعام الأمور
إلى الأمير عر النيس أليك التركماني الصالح . ولم تترك له السلطة المطلقة في كل شيء ، بل كانت شريكا له
في الحكم ولا يقتضي أمرا إلا بالرجوع إليها بالإضافة إلى أن كل التوقعات كان تتم باسمها وبصورتها عليها
وكتب بموارها «والدة خليل» وهو المنصور خليل ابنها من الصالح نجم الدين ، مما يدل على دعاتها وسعة
حلتها بالصفاء صفة لشرعية على حكمها والمريد أيضا الفقيومي نشر المعاصر ، ج ٢ ، ورقة ٢٢ ، ب ، أبو
الحسن النجوم ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، ابن واصل - مفرج الكروبي - ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، المبروري ، نهاية الأرب ،
ج ٢٧ ، لوحة ٩٨-٩٩ ، الصمغاني تحفة الأحياء ، ورقة ٧٢-٧٣ ، راجع أيضا ، جوريو شديم العنوان
الصليبي على بلاد الشام ص ١٤١ ، حامد ضيف الجهة الإسلامية في عصر العرب الصليبي ، ص ١٢-١٣

ويبدو أن الأمور حتى ذلك الحين قد اتسمت بالطابع السلمي، ولم يتعرض هؤلاء لأي محاولة اعتداء من قبل أهل تونس، ويرجع هذا إلى طبيعة العلاقات بين التونسيين والفرنج من قبل حقيقة أن نواياهم في هذه المرة كانت عدائية ولكن المصائر لم تشر حتى ذلك الحين بوقوع اشتباكات بينهما. وقد اضطر الجنود إلى بذل المحاولات الممكنة للحصول على ما يحتاجونه ولكن دون جدوى حيث قام التجار التونسيين بنقل بضائعهم خارج مدينة قرطاجنة على الأبييعوم (أياماً^(١))، وأمام تدهور الموقف، وفشل خطة لويس في إجبار الأمازيغ على امتناعهم بما يحتاجونه عقد مجلساً جديداً لمناقشة الموضوع من مختلف جوانبه وللتوصل إلى أفضل سبل للملاص من هذا المارق. وكان الملك والبارونات متثلين من هذا الوضع وقد أبدى أحد كبار الفرسان ويدعى بيير شامبليون Pierre de Champillon استياءه وعضبه الشديدتين وأقسم أمام الملك أنه كان باستطاعتهم أن يفتكروا بهؤلاء وأن يجبروهم على بيع الأشياء المعاصرة بهم ولكننا توقفنا عن هذا للعلاقات الطيبة والودية التي بين الملك وهؤلاء القوم^(٢) وقد أبدى في هذا عدد من المارشالات والفرسان الآخرين عندما قالوا له: «لن أفضل الوسائل التي يمكن للجوء إليها فيما بعد هي استخدام القوة المسلحة دون رحمة، ويبدو أن الملك لويس كانت لاتزال لديه بعض الآمال في تغيير موقف المستعصر، وأن يوافق على تسليم بلاده سلماً وبدون إراقة للدماء». وبناء على ذلك رفض الاقتراح العاصي بعمل السلاح مبكراً والتريث حتى تتجلى الأمور^(٣). ومن شدة حرص لويس على كسب أهل تونس إلى جانبه أنه بعث إليهم برسالة ودية حاول فيها إقناعهم بلغة لاشأن له بنى تحصينات عسكرية لدخل قرطاجنة، وإسما يربح في

^١ - Nangis, p. 447, *Map of West.*, p. 450, Cf also Dury Hist. de France, t. I, p. 366.

^٢ - Nangis, Op. cit., p. 445, *Chronique Anonyme finissant en 1286*, R. H. G. F., t. XXI, pp. 84-86, *Eracles*, p. 459, *Reinoud*, Op. cit., pp. 521-523, *Beaufort*, *Vita Ludovici noni*, R. H. G. F., t. XX, p. 21, Cf also *Guezot*, *St. Louis*, pp. 135-136.

^٣ - من المعروف أن الرأي العام المسيحي كان قد عقد آمالاً كبيرة على تحالف المستعصر مع الغرب المسيحي، وكان هذا تصوراً خاطئاً من وجهة نظرهم لأن المستعصر لم تكن علاقته الودية مع تونس تريد من نطاق «المالاة» وال«القاء» شيء دون تقديم أية تنازلات من قبله والمريد أنظر

Michaud, *Cronica* t. I p. 20, Hassall, *France*, p. 38; Müller, *Hist. de France*, vol. II, pp. 43-44.

معالجة مرضاهم وتقديم العناية الكافية لهم، وأن يوافق الأهالي على بيع كل الأشياء التي تحتاجها الحملة.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على شعور الملوك بـ صغور الحملة وازدياد المرض بين الجنود^(١).

ولكن يبدو أن كل هذه المعاولات لم تكتفِ بمتيجة ايجابية مع أهالي قرطاجنة ، الأمر الذي أثار الجند ضدهم . وكان الفرسان يريدون أمام الملك بأن أهالي تونس على استعداد للفعل أي شيء إلا التعامل معهم وأمام هذا الموقف اضطر الملك ، مرة أخرى، إلى إرسال مبعوثين من قبله لابتياج بعض الحاجيات وشراء الخبز اللازمة للجيش . فعلى الرغم من الاستعدادات انهائلة للحملة قبل رحيلها من اجمورت ، إلا أن طول الانتظار داخل اجمورت قد عاد بالكثير من الأصرار عليها إذ اضاع على الفرع فرصة كبيرة لتوفير الخبز من جديد بعد ثفاة المخزون لديهم كما اضطروا إلى اطاق الكثير من الأموال لتغطية متطلبات الحد أثناء وجودهم باجمورت ثم سرديسيا ، مما عاد بالصرر عليهم ، وكان كل هذا عدما للتوسيع للاستعداد لهم لمواجهة عسكريا واقتصاديا . وقد أدرك رجال الحملة ذلك، فدرجة أن الملك لويس فكر في عرض أشياء ثمينة للبيع ربما لم يكن يفكر مطلقا في بيعها من قبل، ليتسنى له الحصول على احتياجات الحملة

ويتضح من هذه الإشارة الحالة المتردية التي وصلت إليها الحملة قبل أن تبدأ بتنفيذ أي خطوة إيجابية ضد تونس . كما أنها تكشف عن قسوة المجاعة التي آلت بالجيش مما جعل لويس يضمن بكل شيء وعال لاتخاذ جيشه من هذه المصبة كل هذا يدل دلالة واضحة على أن لويس قد عقد آملا كبيرة على المستنصر ، وأضا على استناب الأمور بين قواته، ولم يضع في حسابه أنه بانتظاره كل هذا البلاء . ولم يتصور أن يجعل منه المستنصر العموية وأنه لم يكن صادق النية في أي وعد قطعه على نفسه . والسؤال الذي يطرح نفسه هو كيف يمكن لرجل صمدك مثل لويس أن يتصور ببساطة وبلادة كل ذلك ؟ والثني المحقق أن الصبي الليبني داخل لويس لشتر الدين السميجي في شمال افريقيا جعلته مستغرق في أحلام البقطة ويغصص عينيه عن الكثير من الحقائق الهامة التي تلقى وشدة قبول المستنصر البواظم معه وتسليم بلاده

إليه وهذا فضلا عن أنه لم يضع في حصياته عامل الحيد والدعاء الذي كان يتعامل به المستنصر مع خصومه ، فكانت النتيجة أنه أوقعه في شركه .

ولمهم أن كل هذه المحاولات السلمية التي بذلها الصليبيون في استمالة أهل تونس إلى جانبهم قد باءت بالفشل وتيقنوا أن الأمور لن تمسم إلا بالقتال، وقد انضم الجميع من لويس السماح لهم بعدم الانتظار لكثير من ذلك والمبادرة باقتحام مدينة قرطاجنة ، كما أعطوا لقائهم بأنهم سوف يتعاملون مع أهالي المدينة بأسلوبهم القاس، وأقسموا على التكنيل بهم عقابا لهم على ثغرتهم هذا^(١)، فعلى الرغم من قصر المدة التي أمضتها الحملة قبالة تونس والتي لم تتعد ثياما معدودات قبل الاشتباك العسكري، إلا أن التداعى والانهيار داخل صفوف الجيش الصليبي أدى إلى ازدياد خطورة الموقف .

وبناء على ما تقدم - لم يجد لويس بدا من الانصياع لرغبة القادة بمهاجمة القلعة والعمل على احتلال مدينة قرطاجنة ، خاصة بعد أن تلكد من نوايا المستنصر وعدم تغير موقف الأهالي منهم. وتقول الرواية أنه دخل على مصمكر لويس عند كبار الأمراء والبارونات والفرسان مغضب من رغبتهم في تقديم بعض قطع الأسطول نحو القلعة ومحاصرتها من جهة البحر^(٢). وقد وافق لويس على ذلك ، وتم اعداد خطة محكمة للمصارع. وفي يوم الخميس ٢٤ يوليو ١٢٢٧م / ٣ ذو الحجة ٦٦٨هـ ، تقبعت القوات الصليبية نحو قلعة قرطاجنة وصدرت التعليمات بموعد الهجوم . ومن الغريب أنه على الرغم من أن صاحب تونس كان على علم بكل تلك الخطوات، إلا أن رد الفعل لديه كان سلبيا وتنقصه السرعة والحنكة لانقاذ الموقف وحماية تونس . وفي اعتقادنا أن المستنصر لم يكن جاهلا بشئون الحكم والحرب والسياسة لكي يتهاوى في حماية بلاده وترك للعرج الفرصة للاستلاء على المدينة وهو على يقين بأنه سيتمكن بعد فترة من القضاء عليهم لعلهم تعلمه بالحالة التي وصلت إليها جيوشهم نتيجة الأمراض وقلّة المؤن. فكان يعد نفسه ليظهر أمام خصومه من منى مرين وبني عبد الواد بأنه الملقب لتونس من الصياح ، وأنه أحق من الجميع بورثة الموحدين . وإلا فلماذا سكنت المستنصر تاركا العدو يتقدم نحو البر، حيث كانت حطته التي اتفق عليها مع رعايا الأندلس والموحدين في لعمياء

Nangis, pp. 448 , Boudien , Op. cit., p. 22 .

-١-

Nangis, p. 448 .

-٢-

الفرنج الفرسية للتقدم نحو البر حتى يسهل عليه تسديدهم لا لتركهم يستولون على المدينة أما الآراء التي أشدرت بتركهم في البحر حتى تنفذ مذبهم ويرحلوا ، فلم تلق أى تجلوب حشية أن يتجهوا إلى ثغر اسلامي آخر^(١).

وبناء على ذلك ، صدرت الأوامر بحصار قلعة قرطاجنة الداخلة في البحر وقد ركز الفرنج حصارهم لها بحرا في الوقت الذي أضفل فيه المسلمون هذه الجهة، ووضعت قوات قليلة لحمايتها برا وقد أشار تاسمي ويؤيده في ذلك عدد من المؤرخين المسلمين أن «المستنصر كانت تنقصه الكفاية العسكرية اللازمة لوضع خطة محكمة لحصار القلعة برا وبحرا. ويتساءل وكيف يهمل ذلك وهو يعلم بموقع المدينة بأكملها على الساحل. بل ذهب المؤرخون إلى ما هو أبعد من ذلك حيث قالوا أن هذا الإهمال من جانبه كاد يقضى على تونس بأكملها»^(٢) وعلى هذا فقد تقدمت القوات الصليبية البحرية نحو القلعة واقتسمتها بسهولة دون وجود أى رد فعل اسلامي من داخلها . وتمكن البحارة الصليبيون من صعود القلعة واعتصموا بداخلها لساعات طويلة حتى يمنوا أى محاولة أو رد فعل من قبل المسلمين لاستعادتها. ولم يكن عند القتلى بين الطرفين كهيلا لاختلاف خطة كل منهما وأسرع الأمراء والبارونات بعد ذلك بنقل أعداد كبيرة من المرضى والمصابين الفرنج للعمل على توفير الرعاية الصحية اللازمة إليهم. كذلك قتل عدد من التونسيين ممن كانوا داخل القلعة أو المحيطين بها، كما سقط عدد آخر من المسلمين أسرى في قبضة الفرنج مما يدل على سوء التخطيط العسكري من جانب المستنصر لمواجهة ذلك الموقف. وقد ترتب على سقوط القلعة بهذه السرعة دون تقديم توضيحات كثيرة من قبل الفرنج أثر على ارتداد معنويات الصليبيين بصفة عامة ولويس على وجه الخصوص، وقد أصدر أوامره بالقفزة الثالثة لأى مفاجأة من قبل المسلمين وأعلن لرجاله أنه ليس في نيته خلال الأيام القليلة التي أعقبت سقوط القلعة القيام بأى عمل عسكري آخر، وكان عليه تكريس جهوده للاستفادة من الأوضاع السائدة وقتها ، وعلاج المرضى الذين كان عددهم في تزايد مستمر ويذكر تاسمي أن هذه الخطوة العسكرية الناجمة التي اتبعها الصليبيون ترتب عليها

١- ابن خلدون : المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٩٩-٢٩٢

استحوادهم على الأسلاب التي خلفها المسلمون وراحم^(١). ويجب تناول هذه الرواية بحذر. فمن المعروف أن تلك المدينة كانت عبارة عن أطلال وعير أملة بالسكان ، فهي بقايا مدينة قرطاجنة القديمة ، حتى الميناء التابع لها يبدو أنه أتى عليه وقت فقد فيها أهميته التي كان يتمتع بها في العصر القديم. لذا فمن المستبعد أن تكون بها مخلفات ذات قيمة ، وأقصى ما يمكن المصبول عليه من الأسلاب أنذاك هو مخلفات الجند وبعض الأسلحة الخاصة بالمصار الثرى للقلعة.

ومهما يكن فمن الأمور التي لا يمكن إنكارها أن الصليبيين بمجاهدهم في الاستيلاء على قلعة قرطاجنة وطلدوا أقدامهم فيها ، وتبنكوا من تكوين فكرة دقيقة عن أحوال المعسكر الإسلامي ونقاط الضعف فيه . ولكن هذا لايعنى التقليل من الجهد الذي بذله الثونسيون في الدفاع عن بلدهم . حقيقة كان هناك قصور في خططهم العسكرية، ولكنهم لم يتعوا مكتومي الأيدي أمام هذه الأخطار التي حلت بهم . فيؤكد متى أوف ويستمنستر قائلا أنه ما إن وصلنا تونس لم نشوق أبدا أن يكون المسلمون قد أعدوا من السفن الحربية ما أزهبنا ، وتبقنا من فشل خططنا للاستيلاء على بلادهم ، ثم يؤكد أنه بلغ من كثرة الأساطيل الإسلامية أنه كنا نعيجز عن رؤية جزيرة سردينيا التي كان من السهل علينا مشاهدتها ونحن على ساحل تونس^(٢). إذن هذه إشارة أكيدة عن الاستقرار والازدهار اللذين كانت تتم بهما تونس ، الأمر الذي كان يمكن أن يعيها على الصمود والدفاع عن القلعة ، ويرجع سبب ضياعها إلى سوء التخطيط العسكري والناقص الواضح في شخصية المستعمر، وتصرفاته أولا وأخيرا . وأما عن رواية متى عندما قال إن من يقف على ساحل تونس يمكنه أن يرى جزيرة سردينيا ، فهذا معنى مجازي مبالغ فيه لأنه لايمكن أن تكون المسافة بين سردينيا وتونس ثلاثة أيام ومع ذلك يمكن رؤيتها بالعين المجردة. ولعل المقصود بذلك أن تونس هي أقرب المناطق الإسلامية لجزيرة سردينيا .

والهم أنه في صباح يوم السبت ٢٦ يوليو ١٢٧٠ م / ٥ ذي الحجة ٦٦٨ هـ أي بعد سقوط القلعة بسبعين أعاد المسلمون تنظيم حيوزهم. وحاطوا بالقلعة من كل جانب وقد ارتفعت

Naages, Op. cit., p. 448 .

-١-

Man. of West. , vol II, p. 450 .

-٢-

معتوياتهم ورغبتهم في الاستشهاد من أجل انتقامها . وقد انتاب الفرنج الهلع بحيث أحاط بنا المسلمون وهم يصرخون عاليا بعبارات التهديد بأنهم سيفشكون بنا إن لم نرحل حالا عن أرضهم^(١) . ويتضح من عبارات التهديد هذه أنه لم يحدث صدام مسلح حقيقي بين الطرفين بعد سقوط القلعة ، بل اقتصر الأمر على المناورات وجس النبض والاستطلاع التي قصد منها القيسيون استفزاز الجيش الصليبي ولجباره على الرحيل . أما بالنسبة للمستنصر فكان رد فعله أن أرسل عشرة من كبار الفرسان بهدف إبلاغ الفرنج المحتصمين داخل القلعة بضرورة الرحيل منها حتى لايفتك بهم^(٢) . ويبدو أن لويس لم يعيا بهذه التهديدات حيث كانت خطته التالية هي الاستيلاء على ميناء قرطاجنة ، وهو أهم موقع بالمدينة لأن وصولهم إليه سيسهل عملية نزولهم إلى البر واحتلال المدينة بأكملها . والأخطر من ذلك أنه سيسهل أمر الاتصال بشارل كويت انجز شقيق لويس في صقلية من أجل إرسال المساعدات والمؤن . ويبدو أن عملية الاستيلاء على القلعة قد شجعتهم لاهراز المزيد من النجاح واتحاد كافة التقادير الثلاثة للاستفادة من ذلك الوضع وقد شابت عن ذهن المستنصر كل هذه الأمور أو لعله تجاهلها مما أثار ضده عدا كبيرا من ملوك المسلمين الذين انهمروا بالتخايل والتفريط في بلاده . وأمام تطور الأمور بهذه الصورة أدرك المستنصر صعوبة الموقف ، وأن المشكلة لم تعد تقتصر على ضياع القلعة ، بل امتدت إلى معاناة الدفاع عن الميناء ثم المدينة بأكملها . ولم يضيع الصليبيون وقتا في سبيل الاستيلاء على الميناء فبمجرد صدور الأوامر من لويس بهذا المعروض ، تقدمت القوات الصليبية وحاصرت الميناء من كل جانب ، وبينما كانت جيوش المستنصر في سبات عميق ، ولم يسمعوا لعنصر الوقت والمجاهنة أي حساب ، ولم يتعظ المستنصر من سقوط القلعة في قبضة الفرنج بهذه السرعة ، مما أثار ضده فريق كبير من المؤرخين لمسلمي الذين انهمروا بالتخايل والضعف^(٣) . والدليل على ذلك ، أن عملية الاستيلاء على الميناء لم تستغرق الوقت المتوقع لها ، بل تمت أسرع من كل التوقعات لدرجة أن لويس

Neagis, Op. cit., p. 449

-١-

وأشفا مونروند : الحروب للقصة، ج ٢ ، ص ٢٥٧-٢٥٤ .

Neagis, p. 449 .

-٢-

Romand, Op. cit., p. 517 ; Neagis, Op. cit., p. 448 . Cf also Michand, Crous VI, p. ٢

20 , Sejour , Op. cit., pp. 155-156 .

فلمسه لم يصدق الأنبياء التي وصلته بهذا الشأن ويقول نانجي «أنه نزل في البداية ، ثم ظهرت على وجهه بعد ذلك أسارير الفرح» وأعلن على لسانه أنه لم يكن يتصور أن يتمكنوا بهذه السرعة من احتلاله وأنه قصد من هذه المحاولة الجادة تهيئة الظروف وجس النبش لدى المسلمين، وأن أقصى ما كان يتعمده أن يوفق جنوده في انزال بعض القوات إلى المدينة لاحتضار حاجياتهم »^(٩) . أما عن التفاصيل العسكرية لاحتلال ميناء قرطاجنة ، فلم تسعفنا المصادر من عربية وأجنبية بالكثير مما سوى تلك الاشارات المقتضبة التي وردت على لسان نانجي بتقدم عند كبير من الفرنج نحو الميناء وأهم لم يصفوا أى رد فعل يحول دون احتلالهم له^(١٠) .

بعد ذلك عقد لويس مجلسا طارئا حضره الأمراء والبارونات ، وقد غمرت الجميع الفرحة والتفان لهدم الأنبياء ، ويقول نانجي «أنه حضر هذا الاجتماع وشاهد لويس يتهاشم مع بعض القرييين ولا يدرى حول أى شئ دار الحديث، ولكنه يرجع أمها مشاورات خاصة حول الفصل السيل الواجب اتخاذها للمحافظة على مكاسبهم العسكرية التي أحرروها على حساب المسلمين» . وقد دارت مناقشات عديدة داخل المجلس ويقول نانجي «أنه لم يكن هناك أى خلاف بين المجتمعين فيما يتعلق بالصورة التالية وهي الاستيلاء على المدينة نفسها ، طالما أن الظروف في صالحهم ، خاصة وأن الاستيلاء على كل من القلعة والميناء قد تم بصورة سريعة ونون تقديم أى تصحيحات من قبل الفرنج . حقيقة أنهم كانوا يدركون أن المسلمين مترهبين بهم، لكنهم استهانوا بهم وبسلطتهم المبرقة للدفاع عن المدينة مما أطمعهم في ترجية المزيد من الصربات إليهم.

Nangia, Op. cit., p. 448 .

-١-

٢- لم تعرض المصادر الإسلامية لتفاصيل هذه الأحداث وكل ما جاء فيها مجرد اشارات عابرة تقيّد أن لويس هاجم تونس وسحق عليها المصادر . وكانت تقع في قبضة نتيجة عدم احكام التسليم لسلطة العسكرية لنظر القرييين السلوك . ج ٦ ، ق ٢ ، ص ٣٦٤ ، الكتبي هرات التوفيات . ج ١ ، ص ٨٤١-٨٤٠ ، ابن الفرات تاريخ الدول والملاوك . ج ١٦ ، لوحة ٧٤ ، ابن أبي ديار المناس ، ص ١٢٨ ، المسعودي العلامة التقيّة ، ص ٦٢ ، ابن خلدون : المعر ، ج ٦ ، ص ٢٩٦ ، راجع أيضا

Eracles, Op. cit., p. 458

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ثابى بعض الأعضاء الذين حضروا المجلس بشجيرة الاهتمام بقصر الميناء والقلعة ، وأرجاء أسر الاستيلاء على المدينة نفسها بعض الوقت حتى لا يتشغل الفرنج بكثر من جهة في وقت واحد ، فيضيع الميناء من أيديهم لا له من أهمية قصوى بالنسبة للطرفين خاصة وأن الصليبيين تصوروا أنه باستيلائهم على الميناء سينفتح الطريق أمامهم إلى مصر ثم أفريقيا بلجمعها بعد ذلك^(١) . ويبدو أن نشوة النصر جعلت أحلامهم تترايد ولم تعد تقتصر على جبهة إسلامية معينة ، مما يؤكد من جديد أن الهدف الديني لتلك الحملة كان شبه معدوم . وعلى الرغم مما أكدته بعض المؤرخين الغربيين من أن تلك الحملة كانت تتميز بطابع ديني ، فلماذا لم يفكروا أن نجاح الصليبيين في تونس سيوصلهم إلى بلاد الشام لتخليص لأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وهو الهدف الأساسي للحركة الصليبية ؟ والتهابة بسيطة وهي أن استحواذ الفرنج على مصر وأفريقيا سوف يشفي غلبهم في الحصول على مزايا اقتصادية وسياسية فضلا عن هيمنته الكاملة على ديار الإسلام . أما الدافع الديني فهو الستار الذي يحفوه وراءه توافيهم الحقيقية .

هنا فضلا عن أن هؤلاء العزاة قد بالغوا في قيمة انتجاراتهم بقرطاجنة فمن المعروف تاريخيا أن هذه المدينة حسبما أسلفنا قد فقدت بريقها وأهميتها منذ زمن بعيد ، وأنهم جاها إلى اطلال وحراب وليس إلى مدينة منتعشة اقتصاديا حسيما كانوا يتصورون . بالإضافة إلى أن الميناء الذي يلقوا عليه الأمال لم يكن يشكل قيمة اقتصادية كبيرة بالنسبة لتونس ، حيث أعمل أمره منذ فترة غير قصيرة . ولكن واجب الدفاع عنه من قبل المسلمين لا علاقة له بقيمته وقتذاك . بل تكمن العظورة في أن تحكم الفرنج في الميناء سيسهل عملية نفاذ المسيحيين داخل تونس نفسها ، ذلك أن المسافة بين تونس وقرطاجنة لم تكن تتعدى بضعة أميال^(٢) .

وبناء على ما تقدم ، أصبح الشغل الشاغل للصليبيين هو حسن نبش التوحيديين الموحدين على أرض قرطاجنة دون اللجوء في هرا ح ولم معهم وبدون تكريس أى جهد لعمل عسكري

١- Nanga, pp. 448 , Michaud , Crois , VI , pp. 20-22 , Renaud, Op. cit., p. 517 , also

Milner , Op. cit., t. II, pp. 43-44

٢- لا تزيد المسافة بين قرطاجنة وتونس عن ميلين ، ولا يوجد بها مكان أهل بالسكان إلا الأرض المرتفعة

المعروفة بالملقة والمريد أنظر الأبريسي حقة للغرب وأرض السودان ، ص ١١١-١١٤

مباشرة . وقد عين لويس لهذه المهمة شخصين هما فيليب دليس Philippe de Lisse والسير أوبالستين Sir Opalstin على أن تكون مهمتهما دخول المدينة ليلا والعودة في الصباح إلى مقر قيادة الملك ويتم هذا يوميا لنقل الأخبار إليه أولا بأول^(١) . ويتضح من هذه الرواية أن التونسيين عملوا تماما للرقابة، لأنه كيف تمكن بهذه السهولة لمهوضي الملك للنزول إلى البحر والتجسس على تحركات تونس ثم العودة إلى أمشاطهم في عرض البحر حيث مقر الملك دون أى مقاومة بحرية أو برية من قبل أهل تونس الذين يشتهرون بأنهم بحارة مهرة ومشهود لهم في هذه الضمائر، فكيف لا يدركون أمر الجواسيس إن كان ثمة رقابة حقيقية لكل تحركات الفرنج . والحقيقة أن هذا الموقف المتخاذل من قبل التونسيين يناقض ما حاول بعض المؤرخين المسلمين إظهاره من أن التونسيين كانوا في حالة استعداد تام وأن الطوارئ كانت على أشدها في أنحاء البلدة^(٢) . ويؤيد الرأي السابق بوجود اضطرابات في خطط صاحب تونس

والتفسير الوحيد لهذا التصارب هو أن التونسيين لم ينفصلوا الالتحام مع العدو بدليل الاتهام الذي وجه إلى صاحب تونس بأنه يجب أن يتحلى بالشجاعة وأن يتحرك للدفاع عن بلاده وأن يكف من مداعنة العدو^(٣) ، لأن سلبته عنه وعدم دخوله في معركة حاسمة لمنع العدو زاحضين كراهية المسلمين له ، وخاصة الظاهر بيمرس سلطان مصر الذي تحرك من بلاده للدفاع عن تونس سواء بأرسال المساعدات المادية والعسكرية أو العمل على توطيد كلمة المسلمين، وحث العربان والمغاربة والموحدين على ضرورة المهاد للدفاع عن البلد ويقاظ المستعصر من غفوة التي سبكت على الأخضر واليابس . ولكن ليس باستطاعتنا أن نجزم ويشكل نهائي بتواطؤ المستعصر كما اتهمه البعض . وكل ما في الأمر أنه - من وجهة نظرنا - كانت تنقصه الحكمة السياسية والخبرة العسكرية للدفاع عن بلاده برا وبحرا ، رغم أنه لم يكن يتقصه أبدا الدكاء والحيلة في التخلص من خصومه في الداخل . ويتضح هذا في مواقفه من

Naqas, Op. cit., p. 448, Rénard, Op. cit., p. 517

-١-

٢- المكتبي: موات الوفات، ج٦، ص٨٢-٨٤، ابن خلدون: العبر، ج٦، ص٢٩، ابن الوردي: تلعة المستعصر، ج٢، ص٢١٩، للقرير: السلوك، ج١، ق٢، ص٥٩، أبو القاسم المستعصر في نصار البشر، ج٢، ص١٩٦، ابن أبي درغ: الأئیس المطرب، ص٢٧، محمد الحبيب: لب التاريخ، ص٢١٦

٣- ابن الفراء: تاريخ الدولة، ١٢٢، لوحة ٨٩، ابن أبي سدر: المؤس، ص١٢٨، أنظر أيضا

العريان والطوط وعمية اللحياني والمجنون . فقد استعمل معهم كل الحيل والوسائل للقضاء عليهم جميعا . فضلا من أن جماعة الموحدين والمغاربة الذين شاركوه في الرأي يترك الفرنج يذرون إلى ماير ثم يتصديقونهم بعد ذلك ثبت أنه رأى حاطي بسوء خططهم العسكرية المخالفة تماما لكل تحركات لويس فكان لابد أن يثبت حسن مولياد ويسرع بالتحرك لانتقاذ الموقف ولكن مكرهه أكد بعض الاتهامات بخيائنه وعدم وضوح مسلكه وخطته في مواجهة العدو من البداية .

انهم أن الأخبار كانت تصل إلى لويس على مط واحد، وهو استمرار الوضع على ما هو عليه من وجود حالة استعداد عسكري في تونس دون أي محاولات فعلية لاسترجاع القلعة أو ليه لو محاولة الالتحام مع أسطول الصليبي في البحر . وكانت هذه الأخبار داعما للفرنج لاعداد الحطة المحكمة لهاجمة مدينة قرطاجنة ومحولة الاستيلاء عليها . وبالفعل تمكنوا من احتلال مناطق عديدة محيطة بالميناء، كانت حالة تماما من السكان بذليل أنهم لم يحصلوا على أسلحة تذكر من جراء هذه المحاولات. ويسو أن الأهالي حين رآوا رجسا كثرة الصليبي، وضياح الجياد دون القيام بعمل عسكري . أثروا الرحيل بعيدا عن منطقة القتال حاملين معهم كل ما أمكنهم جملة من متاع وثقائن . ولم يكن عدد هؤلاء السكان كبيرا لأن المدينة ذاتها، كما سبق القول . لم تكن عامرة بالأهالي^(١).

ويقول زنجي « أنه يوم احتلالنا بعيد القنيس بواكيم سنة ١٢٧٠ م ٧ ذي الحجة ٦٦٨ هـ . كنا قد قمنا بجولة في الأرض الجديدة التي تم الاستيلاء عليها قرب الميناء ، وكنا نتجول بحرية تامة دون وجود أي عائق من قبل التونسيين . ولكن ظهر أمامنا فجأة هند غير قليل من المسلمين بالقرب من برج مدينة قرطاجنة . ولم نلق مكتوفي الأيدي بل تعقبهم الفرسان الفرسجة حتى اضطروا إلى الصعود للاحتباء داخل البرج الذي لم تكن قد استولينا عليه بعد . وظل المسلمون محاصرون داخله حتى صباح يوم ٢٠ يوليو ١٢٧٠ م (٨ ذي الحجة ٦٦٨ هـ) وحين علم ملكنا بهذه الأخبار لم يرسل لنا المزيد من الأسلحة لانكسار المصار حول البرج ، بل اكتفى بالتوجيهات في الاستمرار في المصار^(٢) . ويبدو أن هذه الفتنة من المسلمين

١- في الفتنة بقلته التي كانت تسكن بعض الأحياء للهجرة ومن أشهرها تونس للفتنة

كانت تعمل الأسلحة معها بدليل الإشارات التي أوردنا نأجى من حدوث قتال حول البرج وسقوط عدد كبير من القتلى بين الطرفين، إلا أن القتال انتهى باستسلام الصليبيين على البرج أيضا بالإضافة إلى القلعة والجيا، ولاتطو هذه الرواية من المبالغة أيضا بهدف إظهار الفرنج بمظهر المنتصرين، والتقليل من شأن المسلمين. والسؤال كيف دارت رحى هذه المعركة بينما كان هؤلاء الصليبيون يشجولون في الأرض المحيطة بالميناء دون وجود أى تكتيك عسكري لمطو جديدة ضد المسلمين. والأرجح أن هذه المعركة كانت مفاجأة لوكمينا أعده المسلمون للفرنج في الطريق وأسفر عن سقوط عدد من القتلى المسيحيين. لذا يجب تحول رواية نأجى شئ من الصغر كما يجب ألا ننسى أن أهالي المدينة ربما لشغلت هيرتهم على بلدهم التي كانت على وشك الصياح، فأمرسوا صوبها من اللداء والبطولة بأبى هذا المؤرخ أن يشير إليها حتى لا يقتل من شأن بنى جلده، حيث تتضح من روايته أنه لم يكن هناك تحطيط عسكري لاحتلال البرج، بدليل أن لويس هوجي بهذه الأحبار وأصدر أوامر سريعة بمحصار البرج دون أى إعداد أو تحطيط مسبق. فكيف تحدث كل هذه الصور السلوية من قبل جماعة الفرنج وهم يشجولون لقط في المدينة أثناء أحد احتفالاتهم الدينية؟ فالأمر لا يتعدى الماوشات المتفرقة التي سمعت عن نزول الفرنج أرض المدينة.

ومع ذلك، لا يمكن أن سكر أن الصليبيين قد أحكموا حططهم بصورة أفضل من التونسيين، بدليل سقوط قرطاجنة في أيديهم دون وجود عائق يحول دون ذلك وجدير بالذكر أن المؤرخين المسلمين مروا على أحداث سقوط المدينة مرور الكرام، ولم تتعد إشاراتهم عنها سوى « أن أفريقيا كانت أن تضيق جميعها بعد لخذ قرطاجنة ^(١) فقد كاد المسلمون أن يغلبوا وتصبح كل أراضيهم جهة المغرب ^(٢)، وأن المنقذ الوحيد للمسلمين لم يكن نابعا من رد الفعل العسكري ضد الصليبيين بل نتيجة انتشار الأمراض بين صفوفهم والتي هكتهم ^(٣) في حين أورد نأجى إشارات مقتضبة لتليد أن المسيحيين أعملوا في المسلمين القتل، فكان هذا هو نهاية المطاف لكل من وعد منهم داخل قرطاجنة بجمعها. إذ تمكن الفرنج بعد فترة قصيرة من

١- ابن الزبير، تلعة المختصر، ج ٢، ص ٢١٩، المصنف عقد الجاه، ج ٢، ص ٢٠، لوحة ٤٨٨

٢- أبو الفدا، المختصر، ج ٢، ص ١٢٦، التقريرى السلوك، ج ١، ص ٢٠، ص ٢٠

٣- ابن رسول، خزانة العيون، ج ٢، ورقة ١٩٨-١٩٩، ابن الفرات، تاريخ الدول، ج ١٦، لوحة ٣٧، ابن الزبير، تلعة المختصر، ص ٢١٩.

احتواء مدينة قرطاجنة بكاملها وحشدوا قوات هائلة داخل القلعة والميناء والبرج^(١)، وأصبح المسلمون في قلق شديد لحصير تونس بعد سقوط قرطاجنة بهذه السرعة وكانت العناية الإلهية وراء وقف تقدمهم نحو تونس عندما انتشر المرض داخل جيوشهم^(٢).

لقد كان المستنصر في وضع لايمسد عليه. وقد اهتزت صورته أمام باقي المسلمين، حيث انتهت الجميع بسوء تقدير الموقف واستهانته بخطر الحملة فالمدينة يتمسكياتها لم تسقط دفعة واحدة بل على مراحل رغم هذا لم تكن هناك انديانته قوية من قبله لمنع هذا البلاد، بل تركه اليك نهبا للويس وجيوشه وأصبح يوسع الملك الفرنسي التجهول داخل قرطاجنة بحرية مطلقة دون وجود فعل قوي يوقف هذا الرحل الصليبي على باقي المدينة. وقد أهمل صاحب تونس أمر تحصين المدينة من جهة البر والبحر معا، على الرغم من أنها مدينة ساحلية في المقام الأول مما أفقد الترسيع مدينتهم، وأصبح الصليبيون قلب قوسين لو أدنى من احتلال تونس نفسها. وقد اتهم المسلمون المستنصر بأنه قد وضع البلاد في موقف هرج حيث تعذر وصول الإمدادات والمؤن إليها بسبب الحصار الذي فرضه الصليبيون حول تونس.

حقيقة أن هذا الحصار لم يترتب عليه حدوث المجاعة في تونس بعكس ما جاء في روايات بعض من المؤرخين الغربيين، لأن تونس كما نعلم سبق وأعدت عندتها لتقنين العيوب والمؤن بالإضافة إلى أن ميناء قرطاجنة لم يكن يشكل قيمة كبيرة بالنسبة لها فلم يكن هو المنفذ الوحيد لتونس على البحر ولكن هذا لايشفع لصاحبها تقصيره في أمر الدفاع عنها وتجنب شدة الحصار ووطئه. لقد توالى السفارات والمكائنات من جميع الحكام المسلمين تجاهم المستنصر وتوبيخه. وما زاد الطين بلة أن المستنصر رداً منه على شدة الحصار الذي فرض عليه قام بإرسال سفارة من قبله إلى لويس ومعها مبلغ ضخم من المال وصل إلى ٨٠ ألف دينار من الذهب بهدف رفع الحصار عن المدينة. وأحد لويس هذه الأموال وورعها كمكافأة على الجود، وقرمان والاروبات الذين أحفوا يلقون منها ببذخ يعمل نفعة السخرية من موقف

Nangis, Op. cit., p. 449, Etudes, Op. cit., p. 458

-١-

٢- الكتيب قوات الوفاة، ج١، ص ٨٤-٨٥، السطوك، ج١، ق١، ص ٣٦١، ٥٠٢، ابن الفرات تريح

البرق، ج١٦، لوحة ٧١، محمد الهادي السعدي، الخلاصة النقية، ص ٦٢

ملك تونس^{١٧}. وقد تعجب المؤرخ رينو من موقف المستنصر قائلا: «أنه بدلا من أن يتخلص ويؤثر على ضياع أرضه يماثل عنده بكل هذه الأموال^{١٨} ثم أين حائزته وأسلحته؟^{١٩}».

وعلى أي حاله كان هذا الموقف المتخاذل من قبل المستنصر مدعاة لازدياد أطماع لويس فيه، وازدياد أحكام قبضته حول بلاده التي أصبحت عرضة لخطر جسيم وقد أحدث هذا قلقا كبيرا في أنحاء العالم الإسلامي. فعلى ما وصلت هذه الأخبار مصر وجه السلطان الظاهر بيبرس رسالته القاسية للمستنصر يقول فيها: «إن منك لا يحق أن يلى أمور المسلمين» وأنه يجب عليك أن تتطلى بالشجاعة والآباء ويذل كل الجهد للدفاع عن بلادك^{٢٠}، كما طلب منه الاستغادة من العريان والمهاربة لمواجهة الموقف وتكوين جبهة قوية للدفاع عن البلاد^{٢١}.

ومن الطريف أن المستنصر رد على هذه العبارات القاسية برسالة هدية عبارة عن خمسة وعشرين جوادا. وقد أهد بيبرس هذه الخيول ووزعها على الأفراد ولم يتخذ لنفسه منها شيئا. ولم يغير هذا من موقفه في مهاجمة المستنصر وتوبيخه. بل أرسل له ردا أشد قسوة من المرة الأولى، وأنكر عليه الظاهر بالمكر واستخدام الفرنج عوناً على المسلمي كما استنكر عليها ما

١- سبق أن أشار المقرئ إلى موضوع هذه الأموال التي دفعها المستنصر إلى لويس قبل وصوله تونس. وأن لويس لمعها وأمر على نحو البلاد والأرجح أن هذه الأموال دفعت بعد الحصار وأيس قبله ذلك لسوء تقدير المستنصر لمطورة الموقف. أنظر المقرئ: *السلطنة ج ١*، ق ٢، ص ٢٦٤-٢٦٥. وأيضا، Renaud, Op. cit., pp. 517-518.

٢- Renaud, p. 518.

٣- لقد امتدد للمستنصر وقت المروء لشراخ الآلات العربية من حرائقه وتبريقه على الرجال. وعندما تنتهي الحرب يمينها إلى خرائته ويصلح ما فسد منها. كما كان معروفا عنه أنه يفتد الأموال على صارة الشواشي والمناشر. أنظر البريني: *دبل سيرة الرمان*، ورقة ٨٨، المخطوط، ثر الجمان، ج ٢، ورقة ١١٩.

٤- لم يتيسر لنا العثور على نص تلك الرسالة وكل ما ورد فيها أنها أرسلت ردا على للكتابة التي بعث بها المستنصر مع أبي حنيفة محمد بن الراس أثناء حصار الصلة تونس. أنظر ابن القنفذ: *الندرية في تاريخ الدول العفمية*، ص ١٢٢.

٥- حين أن ليس البرير الذاء الذي وجهه إليهم بيبرس بالثكاف مع المستنصر في مواجهه قوت الصلة ولكن سوء العطف التي وضعها المستنصر لصداية بلاده هي التي توصلته إلى هذا العسير. أنظر المقرئ: *السلطنة ج ١*، ق ٢، ص ٢٦٥. وأيضا: Renaud, Op. cit., p. 517.

دفعه من أموال طائلة لأويس في وقت كانت فيه بلاده في أمس الحاجة إليه . ومن بين العيارات التي وجهها إليه قوله ولقد كان من واجبك ضرورة الخروج للدفاع عن بلادك حتى ولو متخفياً . وكيف تحاف وأنت في صياكركه^(١) . وحاول المؤرخون الغربيون تفسير موقف المستنصر هذا بأن عدم مواجهته لهم يرجع إلى نواياه الخفية التي تنتج التحالف معهم ، وأنه يحاول أن يظفي رغبته خوفاً من أتباعه وحمومه في الداخل ، وحشية من حكام المسلمين في الخارج . وقد اعتبروا أن المحاولات والعبارات التي هددهم المستنصر بها لاتخرج عن كونها ستاراً لاختفاء مشاعره الصابقة حيالهم . يشير ناجي في هذا الصدد قائلاً : «إن وصولنا تونس قد أصاع على المستنصر أي فرصة لكي يرفض استقبالنا . وأنه رد على مبعوث ملكنا رداً سرياً لم يعلم أحد من قادة المسلمين . فليد موافقته على نزول أويس على أرضه والإقامة في بلاده بصفة دائمة وحين أي مشاكل»^(٢).

ويتفصح من رواية ناجي الكثير من التضارب . فإذا كان المستنصر قد راسلهم سرا وأهدى استعداداً لتسليم بلاده إليهم ، فلماذا تردد واستعد لهم عسكرياً ؟ ولماذا يستقبل مبعوثهم ثم يشهر بالهرج ويراسلهم سرا ؟ وهو يعلم أن الأمر ليس بيده وحده ولكن أعوانه وحكام المسلمين وأهالي تونس أنفسهم هم لصحاب الحق في تقرير مصير بلادهم^(٣) . هذا كله مرجعه إلى التواء سياسة المستنصر وحيثه مما جعله عرضة لهذا الهجوم من قبل المؤرخين . ويكررت حدث وهماؤه بما قاله أحد الجغرافيين العرب حين زار تونس وبأن أهلها مشهورين باللام والحيث^(٤) . ويشبه موقف المستنصر هذا ممن أراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد فقط ظهر أمام شعبه بأنه ناظم على لويس وجيوشه ، وأنه على أهبة الاستعداد لسحقه . وفي الواقع

١- أبي القزعة ، تاريخ الدول ، ج ٢ ، لوحة ٨٩ ب

٢- Nangis, p. 447 , Renaud, p. 517 , Michaud Op. cit., p. 20 , Cf also Hassel , Op. cit., p. 36 ; Archer and Kingsford, p. 30 , Müller, pp. 43-44

٣- ذكرنا في الفصل الأول في أمر دخول المستنصر في الدين المسيحي كان من محض خيال المؤرخين الغربيين فقط . لأن كل الشروخ داخل تونس كانت في صالح المسلمين . ولا يمكن في ظلها تقديم مثل هذه التبريرات .

٤- القزويني (زكريا بن محمد بن مسعود) نثر البلاد وأخبار السلاطين ، ج ١ ، ص ١٧٧ .

فإنه، لم يهتد أمرا ولحدا المتحرك الأعلى والنفاع عن المدينة مما أنطهره أمام الأعداء والأصدقاء بمظهر المتواطئ مع لويس والفرنجة.

وقد تجم عن كل هذا كما سبق القول ازدياد خصوم المستنصر ببلاد المغرب بعد انهيار ملك الموحدين ، الأمر الذي جعله يفكر في اتخاذ ما يراه لمصلحته فحسب وكان موقفه هذا مدعاة لتضارب آراء المؤرخين القريبين فيه فيؤكد متى أوقف واستمستر «أن المستنصر قد أهد بحشودا هائلة استعدادا للقائهم»^(١). ويؤكد هذا أحمد المؤرخ العربي الحديث «أنه عديم الأمانة وأنه أوقع المسيحيين في شركه ولم يظهر أي علامة قاطعة على تحول في المسيحية»^(٢)، في حين يذكر مؤرخ ثالث «أن ثمة مراسلات سرية كانت قائمة بين المستنصر ولويس لم يكن يعلم بها أحد من ملوك المسلمين»^(٣)، بينما يرمي في العلانية بمبالغ طائلة إلى لويس يثير بها أحقاد الملوك والمؤرخين للمسلمين ضده^(٤)، مما اضطر بيمرس إلى توجيه عبارات قاسية إليه مطالباً إياه بضرورة التحلي بالشجاعة والانضمام للعرب في كل مكان لمحاربة العدو»^(٥).

ويبدو أن المستنصر قد ابتعد عن عربان المريقيا خوفا منهم، فلا يجب أن نسي ما كان بينه وبينهم من صراع في بداية حكمه، وكيف أنه خدعهم جميعا وتحلص منهم بقتل زعمائهم. كان هذا العداء المزمع بين العربيين كذليلا بالآ يفكر في طلب مساعدتهم معتمدا على جده. ولكن هذا لا يعفي المستنصر من المسؤولية، فإن السياسة التي مار عليها تدل على قصر نظره لأن العربان بعد أن استنقل شفتهم أصبحوا في وضع لا يفكرون فيه في الانتقام منه، فضلا عن كراهيتهم العدو الصليبي، فالصراع بين المسلمين والأمرنج بالأنلس أثر موقعة العقاب ٦٠٩هـ / ١٢١٢م كانت ذكرياته لاتزال ماثلة في الأذهان»^(٦). وإذك فإنه من غير المستبعد ألا يلي هؤلاء دعوة المستنصر لمحاربة العدو المشترك وتسيان الخلافات القديمة بينهما

Mist. of West , vol II , p. 54 , Roussod , pp. 517-518

-١-

٢ موروند العرب للفتنة، ج ٢، ص ٢٥٢

Nangis , p. 447 .

-٣-

٤- المعنى : عقد الجمان، ج ٢، ق ٢٣، ورقة ٥٨ بـ

٥- المعنى: عقد الجمان، ج ٢، ورقة ٧ .

وبهذا يكنى ، فإن موقف صاحب مصر الذي تمثل في تلك العبارات الداعية للهجة التي وجهها إلى المستنصر كان له أثره إذ سعى صاحب تونس جاهدا للعمل على محو هذه الاتهامات عن نفسه وبذل المريد من الجهد في سبيل الدفاع عن بلاده واستقبال أهدايا ضخمة من الجيوش التي قدمت إليه من مصر والسودان والمغرب وغيرها من البلاد. وكانت خطته هي العمل على احكام الحصار حول جيوش الصلة، ومنع وصول الامدادات إليها والسيولة بين وصول الأدوات اللازمة لعلاج المرضى داخل السفن أو داخل القلعة وكذلك العمل على تمسيد الفرتج فرادى بين النخول في معركة سريعة وحاسمة معهم، وبكر العيني أنه عقب احتلال الصليبيين لأرض القلعة، اجتمع المستنصر بالقادة والرعايا للتوسيع، وبزعمهم من ملوك المسلمين المشاورة في أحسن السبل لرد هذا الهجوم ورفع الحصار^(١). وترتب على هذا أن تقدم المستنصر وتمت امرته عند ضمهم من جيوش المسلمين وحاصروا القلعة^(٢). ويبدو أن عدد الفرسان والرحالة والفيول كان من الكثيرة بحيث أربح جيوش الصليبيين. إذ يقول تانجي «إن المسلمين قبلوا بأعداد ضخمة وبدلوا في التحرش بنا، وكادوا تمت أمرة المستنصر صاحب تونس نفسه الذي بدأ واضحا أنه ليس على استعداد للاحتكاك المباشر بنا. ولكن فجأة تغير موقفه وتوقف عن هذه المناوشات الباردة وظهرت رغبته في القتال وحين رأى قومنا ذلك بدلوا في جعل السلاح، وأصبح الملك أواخره بعد عقد مجلس عسكري طارئ بأن يستمد الجميع لمواجهة هذا الموقف . كما قام على الفور بترحيل الأميرات ومهن أميرة أرتوا Antoinette إلى السفن الموجودة في البحر ...» ويستطرد قائلا «لمن رحل قبل أن يتمكن المسلمون من رؤيتهن أثناء خروجهن بعيدا عن القلعة. وقام كل من الوزير بيير شامبرلي - Pierre Le Chantre والوزير عموري دي لانوش Amory de Lanoch بهرسمة الملكات ، وتاكيدا من عدم تعقب المسلمين لهم^(٣). ويادر لويس بزيادة التجهيزات العسكرية حول الميناء والبرج وبدأ في تحصين الطرق والشوارع المؤدية إلى القلعة. ويبدو أن المسلمين أحكموا حصارهم أيضا حول الميناء، لأن تجهيزات الفرج العسكرية لم ترهمهم ، واتخذوا كافة السبل لمنع وصول الامدادات إلى لويس ورجاله .

١- العمري عقد الجمان ج٢، ق٢ ، ورقة ٥٥٨ .

٢- ابن الفرات تاريخ الدول والممالك ج٢، لوحة ٧٤ . ابن خلدون المعبر ج٢ ، ص ٢٩١-٢٩٢، أنظر أيضا : Mast of Went , vol ., II p. 340 .

Nangis, pp. 453-455 .

يضاف إلى ذلك أن خطة صاحب تونس كانت تستهدف ضرورة تخليص الميناء من قبضة الفرنج ، لأن استمرار وجودهم فيه على المدى البعيد ربما يعرّض تونس لمحنة اقتصادية^(١). فميناء قرطاجنة كان يعد الميناء الأول في حوض البحر المتوسط . حقيقة لقد فقد بريقه في تلك الآونة ولكن هذا لا يمنع من خطورته وأهميته الاقتصادية بالنسبة لتونس^(٢)، وهو بالنسبة للويس بمثابة اللقطة الأمن التي يمكنه من الحصول على الامدادات والعتاد من ناحية شارل كويت أنجو أو من بقية ملوك أوروبا. هذا فضلاً عن أن المستنصر قد أمرك بعد فوات الأوان بالتأثير الذي فعلته أمواله الطائلة التي دفعها للويس إذ أدت إلى وجود حالة من الانتعاش في مملكته . كما سهلت حصوله على المؤن من الميناء عن طريق الشراء، بينما ساد الاضطراب المعسكر الإسلامي وتحتل اقتصاديا .

والهم أن هذه الخطوة الجريئة من قبل المستنصر كانت ذا أثر عظيم وفقاً لرواية العبيد من المؤرخي العرب ، ومما حدا بأن الصحوة المتنامية للمستنصر قد أدت ثمارها وأحدثت قلقاً شديداً في المعسكر المسيحي. كما بذل صاحب تونس قصارى جهده لتعطية ملفات هذا الهجوم، وأخرج من خزائنه الأموال الطائلة وقطع السلاح ووزعها على الجند، ليرجى أن ابن أبي دينار استند المستنصر في هذا قائلاً: لقد كانت تلك العملة سبباً في انلاب لأموال الطائفة التي تركها أبو زكريا لابنه المستنصر^(٣) . كذلك شهدت شوارع تونس صحوة وطنية أخرى ترميها الشعراء والأئمة في المساجد وأقيمت الخطب بهذا الشأن.

وفي هذه الصدد يحاول سامحي أن يوهم بأن بعض أهالي تونس كانوا عيوباً للويس، وهم من عليّة القوم، وكانوا ينقلون إليه كل الأخبار الهامة عن أحوال تونس . ففي هذا الشأن يقول «أن من بيع عيون لويس قدام من المسلمين من كبار العرصان في الجيش الإسلامي»^(٤)

١- وردت اشارات متفرقة للمؤرخي المسلمين لوضعت النشدة التي مرت بها تونس من جراء ذلك . انظر Renaud, pp. 517-518

وأيضاً العبدى عهد الجبل، ج ٢، ق ٥٥٨، الكتبي، فوات الوفيات، ج ١، ق ١٠٨٤-٨٥، القريزي السبك، ج ١، ق ٢٦٤، محمد الهادي الصعودي، الخلاصة النقية، ص ٦٢

٢- يسرى الجوزي، أفريقيا، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٠٢، جمال الدين المناصوري، أفريقيا، ص ١٤٢

٣- ابن أبي دينار للويس، ص ١٢٨

٤- الكتبي، فوات الوفيات، ص ٨٤-٨٥، ابن أبي دينار للويس، ص ١٢٨، ابن أبيس تاريخ مصر،

ج ١، ص ٨٧-٨٨ .

بل الأكثر من ذلك أنه يورد اشارات واسعة تدل على تواطؤ عسكري بين هؤلاء ولويس فيما يتعلق بحصار المستعمر القلعة والميناء. يقول «إينا» أثناء تشديد الحصار حول مدينة قرطاجنة و«سل مجة» إلى مقر الوزير يوحنا صاحب عكا^(١)، بعض المسلمين وظلموا رؤية المدوب البابوي في الحملة، وأهم فعلا صنعوا إحدى السفن بصحبة الفرسان المسيحيين وأتجهوا في عرض البحر - وهناك أعلن هؤلاء الفرسان الثلاثة رعبتهم الحقيقية في دخول اثنين المسيحي و«رفعوا أيديهم فوق رؤوسهم» وقد وصل هذا الخبر إلى لويس الذي أمر بتشديد الحراسة عليهم وعدم إتاحة الفرصة لهم للاطلاع على أحوالهم ، مع تأجيل عملية تصديرهم لبعض الوقت . هذا ، في الوقت الذي قدم فيه مائة آخرين من المسلمين وقد ألقوا بسلاحهم وأبدوا من مظاهر الولاء مثلما فعل الآخرون ، وكرروا نفس الرجاء في طلب دخول المسيحية ، أما هؤلاء المسلمين فقد سبق لهم أن قتلوا «أجنبا مسيحيًا في شوارع تونس قبل وصولهم إلى المعسكر الصليبي».

وعلى أي حال صدرت الأوامر بدخولهم في المسيحية، وقد أحس لويس بتسرعها فيما يتعلق بهذه المسألة ، وأنه كان يتحيز عليه أن يتوخى الحيلة والعدول ولعل أقدم على ذلك نتيجة لاعتناقه التشديد بأمرهم حيث كان بينهم أفراد من عليا القوم في تونس^(٢)

وليس هناك ما يدعم هذه الرواية في المصادر المعاصرة والمتأخرة نسبيًا عن موضوع البحث من عربية وغير عربية. ولاحظ أن هذه هي السياسة التي انتهجتها السلطات البنية والدينية في الغرب زمن الحروب الصليبية ، والتي تنحصر في محاولة صمغ العالم العربي الإسلامي بصيغة مسيحية كاثوليكية عن طريق البعثات التبشيرية أو الحملات العسكرية إذا اقتضى الأمر وذلك تعتبر عملية نشر الكفالة في العالم العربي الإسلامي جزءا لا يتجزأ من الحركة الصليبية نفسها، وهدفًا أساسيًا من أهدافها

١ يقصد شجر يوحنا صاحب عكا وهو أحد فرج الشرق الذين قدموا من عكا لعمل تحت إمرة لويس في هذه الحملة وأما لفظ وزير فهو مير صميح أما قوله عن هؤلاء كانوا مسلمين ففيه الكثير من الغموض والمبالغة لإظهار المسلمين بمنزلة التحالف والفرار عن دينهم الإسلامي - وهي رواية تكررت كثيرًا في هذه الأداة لأغراض دينية مسيحية بحتة والسرير أسطر

ويستمر ناتجى فى روايته قائلا «أن لويس استدعى أحد المترجمين لترجمة العبارات التى كانوا يرددونها ترجمة حرفية. ونقل المترجم إلى لويس ما يقصده هؤلاء المسلمون وأبلغهم أن الملك لا يشك فى نواياهم فى الدخول فى الديانة المسيحية سواء كانت هذه رغبتهم الشخصية، أو رغبة ملكهم نيابة عنهم». وأن الملك من ناحيته سوف يتحرى بطريقته الخاصة لمعرفة صدق نواياهم ورد الفرسان عليه قائلا «سببى أننا نعلم جيدا خطورة الأمر، وضرورة التاكيد من ناصيتكم ولكن يوجد بيننا اثنان من طلبة القوم ونوى المكانة لدى ملك تونس .. ولينا من الفرسان معدا يقترون يسمرتنا وصحيح أنكم تملكوننا الآن .. وإن ما وقع من صراع وأحزان فهذا بسبب ما بهى ملككم وملكتنا ... وكنا نتفقد ما نؤمر به ، ولم يكن قصصنا ازعاجكم أو التشبيب فى الحاق الأذى بأى منكم . وإن كنتم مصممين على التحرى هنا فاتركوا واحد منا يذهب إلى قومنا وإن لم يعد وتحت امرته الفى من المسلمين على أتم الاستعداد للدخول هم أيضا فى المسيحية وأن يكونوا تحت امرتكم وفى عونكم ، فعليكم أن تفلحوا بنا ما تشاؤون».

ويبدو أن كل ما قاله هؤلاء لم يعط باهتمام الملك الفرنسى الذى لم يتشع بمديتهم. ولذا أمر بالسماح لاثني من الفرسان بالذهاب وأبقى على الفارس الثالث الذى ذكر هذا الكلام. ويستمر ناتجى فى روايته قائلا «بنتهم دعوا فعلا على وعد بالعودة فى اليوم التالى معهم عدد كبير من إخوانهم المسلمين للدخول فى الدين المسيحى حيث أعلن هؤلاء التوسيسين أن من سيجتر منهم ممن يفضلون الديانة المسيحية على الاعتراض فى صفوف ملك تونس». يتضح لنا من روايته استمراره الدائم على قلب المقائق لصالح مصلحه مملكتهم - فعلى الرغم من امترافه بتكثف الجيوش الإسلامية ومعاصرتها للمعسكر الصليبي^(٦) ، الأمر الذى لوجد حالة من القلق والارتباك فى صفوف الصليبيين، إلا أنه يحاول أن يتخذ من كل خدمة أو موقف مفضل من قبل المسلمين قصة ينسج خيوطها من وهى خياله تحقيقا لأغراض خاصة تدعم القضية الصليبية.

وكيفما كل الأمر، فمن المرجح أن هؤلاء الفرسان كانوا قد وقعوا فى الأسر أثناء إحدى العمليات العسكرية الثلاث التى استهدفت احتلال القلعة والمينا ثم المدينة. ومن الطبيعى أن

Nogis, p. 453 .

-١-

Nogis, p. 453 .

-٢-

راجع أيضا العنبر: عقد المساء ج ١، ٢، ٣، ٤ - بين الفترات تاريخ الدول ٢، لوحة ٧٤

يحاول هؤلاء الخروج من أزمته حتى لو كان هذا بابها الفرج مرغبتهم في الحصول في المسيحية. وما يؤكد أنهم أسروا تلك العبارة التي ذكرها تاجي من هؤلاء سبق وقتلوا ٦٠ من جنودنا، مما يدل على أن العلاقة التي ربطت بينهم وبين الفرسان المسلمين هي ميدان المعركة ثم كيف يمكن أن تقبل روايته هذه في الوقت الذي بدأ فيه مركز الثقل يتحول لصالح المسلمين عندما هبت نونس- من بكرة أبيها ، حكومة وشعبا ، للتخلص من يرأس الأعداء الأمر الذي لا يمكن أن ينجم عنه إحياء أهل توس للفرج بعد أن رأوا الموقف في حالهم . يضاف إلى ذلك أن نوعية هؤلاء الفرسان لا يمكن أن تهدر من كراستها وكبريائها . ولكن تلتجى أبي الاعتراف بهذا ، كما أنه يحتمل أن يكونوا عيونا على لويس وجيشه لصالح بلدهم توس ويستمد تماما وعينهم في دخول المسيحية كما تحيل تاجي

وعلى أي حال ، فقد كثف لويس نشاطه في هذه الفترة من حصار المسلمين له ولجيشه ، وأدرك أن الأمر لن ينتهي باستسلام المستمر والاستيلاء على بلاده كما كان يأمل . فبدأ على الفور في مراسلة ملوك الفرنج في الغرب ، وأخذت المجدات تصل إليه من صقلية . ويبدو أنه كان ينتظر المزيد من آليه شارل وكان يطمئن أن يحضر هو شخصيا بجيشه لانتقاد الموقف ، خاصة وأن المستعصر رد على تحركه هذا بمرسال مطالب عاجلة إلى كل ملوك المسلمين لمساعدته في مواجهة الموقف . ووصلت إليه امدادات كثيرة ومن جهات عديدة . يروي ابن خلدون أنه وصلت قوات أبي هلال صاحب سبابة ، وجاءت جموع العرب من كل ناحية ووصلت امدادات من مملوكش وولهاصته وهوارنة وأسند ملوك المغرب من زناتة^(١) ، وأوفد إليه محمد عبد القوي عسكر بني توجي ، وأخرج السلطان أبيبته وعقد القواء لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتقة والمتطوعة وهم اسماعيل بن أبي كدداش وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر . واجتمع عدد لا يحصى من المسلمين وخرج الصلحاء والفقهاء والمرابطون لمباشرة أمر الجهاد ضد قوات لويس أنفسهم وألترم والسلطان المستعصر الفخود في أيوانه مع بطانته وأهل احتصاصه وهم الشيع أبو سعيد المعروف بالعمود ابن أبي الحسي وقاصيه أبو القاسم البراءة^(٢) ويوضح من رواية ابن خلدون الإعداد المنظم والجهود المكثف التي استمر صاحب

١ - مملوكش وولهاصته وهوارنة وسبهاة وسرطة وترجة ، ومعدسة . طريقة وغيرها هي أسماء لاشهر قبائل البربر ببلاد المغرب للعرب . انظر ابن خوقل - صحت الأرض ، ج ١ ، ص ١٠٥-١٠٧ .

٢ - ابن خلدون العمود ، ج ٦ ، ص ٢٩١-٢٩٢ . راجع أيضا أبو المجلس الفصل ج ٢ ، ورقة ٢٥٩ ، محمد العيب - أب التاريخ ، ص ٢١٦ .

تونس في تقديمه من أجل إنقاذ بلاده نتيجة سلبيته . وقد قسم وقته ما بين تنظيم الجيوش بنفسه ، ومباشرة مهام الحكم، وتلقى المساعدات وإرسال طلبات إلى المسلمين يستجد بهم ضد العدو والفتيل، وهذا أيضا يعزز ما سبق أن بيانه من أنه لم يكن مصافيا للملك لويس التاسع أو متفاهما معه للحد الذي صورته بعض المصادر من عريية وأفرجية . جهمها يكن من أمر ، فقد كانت هذه الانتفاضة للدفاع عن تونس ذات أثر كبير في أرجاء سقوطها في قبضة لويس، كما عملت على شل حركة المعسكر الصليبي . واضطربت أحوال لويس وأدرك أن المسلمي قد عادوا شائهم الأول من حيث القوة . وتعددت الاجتماعات مع الملك ومستشاريه ، ويفضل خبرته السياسية في ميدان الحرب ضد المسلمي . فقد شعر متى الحملة تقترب من نهايتها المصنومة . وأصبح لويس في حيرة من أمره^(١) هل يهتم بالرعي ومن هم يلقطون أنفاسهم لأجيرة ؟ أم يهتم بالأصحاء الموجودين داخل القلعة أو فوق ظهر السفن في عرض البحر يعانون من شدة الموع ؟ أم يهتم بالحفاظ على ما استولى عليه من أسلاك المسلمين ويتصدى لهم بكل قواته ؟ أم يترك نفسه للألم والحسرة على موقف أصبح شارل السليبي منه ؟ فقد أخذ شارل بكل وعوده لأخيه في وقت أصبح فيه المعسكر الصليبي كله في أمس الحاجة إليه . بل الأخطر من ذلك كله تلك الأخبار التي كانت تصله بين الحين والحين عن موقف معمر الإيجابي من الحملة، واستعدادها لملاقاته سواء داخل مصر أو خارجها . و إمدادات الصبغة التي كانت تعد بها صاحب تونس . فكان هذا صدعاة لانهيار محبوباته إلى أبعد الحدود . وضيق ع أي أمل لديه لمحو غار الذل والهزيمة التي لحقت به على صعداب النيل، خاصة وأن مصر بقيادة بيبرس أصبحت الشبح الذي يهدد الفرج كافة . فكان الشغل الشاغل له هو القضاء على جنود هذه الحملة ورائها وهي لاتزال في المهد . ولذا ركز جهوده في أمرين رئيسيين . أولهما إرسال المساعدات المالية والعسكرية لصاحب تونس، وإسداء النصيح والارشاد له في كل خطراته لمواجهة الصلة مما يؤكد أن المستنصر كان يعتقد الحنكة العسكرية وثأنيهما العمل بالذوب على تصفية الوجود الصليبي ببلاد الشام بما في ذلك القضاء على حملة الأمير انوارد التي تواترت الأخبار عن قرب وصولها إلى بلاد الشام، والتي كانت تمثل ضلعا رئيسيا لحملة لويس على تونس، بل هي الحناح الأيمن لها ببلاد الشام ، وشل كل هذا تهية الجبهة المصرية وتعزيزها استعدادا لملاقاة العدو إن فكر في تعمير وجهته شطر مصر .

ولقد شهد عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م نشاطا مكثفا من قبل بيبرس ضد الصليبيين ببلاد الشام، فقد شنت القوات الإسلامية عدة غارات على طرابلس استطاع بيبرس من خلالها انتزاع العديد من الحصون والمعاقل هناك^(١) ولكنه ركز هجماته على معاقل الدلاوة والاستراتيجية بهدف تصفية وجودهم وإبطال دورهم الخطير ضد المسلمين في الشرق الأدنى. فقد هاجم حصن الأكراد^(٢)، وانشم إليه كل من صاحب حماة وصاحب صهيون وغيرهما من أمراء المسلمين التامعين له وتمكن من القضاء على وجودهم داخل الحصن بعد أيام قليلة من الحصار^(٣)، الأمر الذي أضعف شوكتهم وترتب على ذلك أن أسرع عدد كبير من القادة المسيحيين في طلب الهدنة وعقد الصلح مع بيبرس مثل صاحب انطرموس .

ولكن هذا لم يوقف من نشاطه شديدا ، فقد استرجع العديد من المعاقل التي كانت بحوزتهم وهي مناصفة مع المسلمين ، كما فرض حصارا شديدا على قلعة المرقب^(٤) التابعة للاستبشارية^(٥)، وبذا أحكم قبضته على كل الطرق المؤدية إلى طرابلس. الأمر الذي أرجع صاحبها برعمند السادس Bobemond VI ولجعه إلى بلل كل الجهد في سبيل عقد معاهدة صلح مع بيبرس حتى يتمكن من الاحتفاظ بما تبقى له من مناطق نفوذ^(٦)، وحقيقة الأمر لم يكن بيبرس يسعى لعقد أي تعالقات معهم ، بل كان هدفه هو اجتثاث جذورهم أينما وجدوا^(٧).

١- المقيري : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٠ .

٢- حصن الأكراد هو الحصن الرئيسي للاستبشارية وكان تابعا لحاكم طرابلس ويحتمي الممر الرئيسي الذي يصل ساحل لبنان الشمالي بسوريا وكان هذا الحصن في يديمة المصون التي بنيت لتسيطر على الممرات التي امتدت بين الأقاليم الإسلامية والمناطق المسيحية الفاعلة أنظر فليب حتى تاريخ سوريا واهلها ، ص ٢٤٥ .

٣- المقيري : للمصدر السابق ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩١-٩٢ .

٤- المرقب : ثغر موع على جبل شافق شمال على البحر ، والحصن كبير مثل بناء الرشيد ثم ملكه الفصاري ثم استعده المسلمون ، أنظر التمشلي نسخة النفر ، ص ٨ ، وأيقنا فليب حتى تاريخ سوريا واهلها ، ص ٢٤٥ .

٥- ابن أبيه : كثر الكدر ، ج ٢ ، ص ١٦٩ ، ابن واصل : فراج الكرويه ج ٢ ، ص ٤٣٧ (أسر)

٦- العيني : عقد الجمان ، ج ٢ ، لملك الثالث ، ورقة ٥٥٦ .

٧- المقيري : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٩٠ .

ولكنه اضطر إلى عقد الصلح معه عندما بلغته الأنباء بقرب وصول حملة الأمير ادوارد^(١). قلم يشأ بيبرس أن يصيغ هذه الفرصة حتى يتفرغ تماما لمواجهة تلك الحملة . ومع ذلك لم يقدم أى تنازلات فى هذه المعاهدة^(٢) . بل أعيد فقط توزيع مناطق النفوذ لكل منهما . فخلصت مرقة وجبيل^(٣) . وأعمالهما لصاحب طرابلس وأن تؤزل نصف غلات أطرسوس والمرقب وبانياس للسلطان الظاهر بيبرس والنصف الآخر للدواية والاسبتيارية . وتعود دميرين^(٤) . وحمص القديمة لسلطان مصر .

وفى حقيقة الأمر ، فإن بوهمند لم تتوافر لديه البية الصاعدة تجاه بيبرس بل أراد فقط من وراء هذه الهدنة أن يلتقط أنفاسه ليكيكل له الصربات من جديد ، مستغلل فى ذلك أنباء وصول حملة الأمير ادوارد . فغضلا عن أنه أسرع إلى أبعاض المصول فى فارس وهاول أن يقنعه بضرورة انقيام بعمل مشترك ضد بيبرس . ولكن ابعا رد عليه قائلا : « لك ما جئت إلا لتخوفنى منه ، وتغريه عه ، وتملأ قلوب عساكرى رعبا وخوفا » . فكان موقف لشعول من بيبرس على

١- سوف أتناول لمبر هذه الصلة بالتفصيل فى الفصل الخامس

٢- انظر السلاسى فى مختصر التاريخ متعدد مدة هذه الهدنة بمضى سنوات فقط . بينما أجمع الآخرون على أن مدتها عشر سنوات انظر السلاسى . المختصر السابق . ورقة ٦٧ . بيبرس ادواردى . ريد الفكرة ، ج٩ ، لوحة ٩٨ . راجع أيضا محمد جمال الدين سرور . دولة الظاهر بيبرس . ص ٨٤ . السيد عبد العزيز سالم . ص ٢٧

٣- بخصوص موضوع بعول جبيل فى طاعة بوهمند بمقتضى هذه المعاهدة فى المرفوف أنها كانت فى صراع شديد مع كونتية طرابلس . ولم ينس سادة المدينة من أسرة أميرياتشى ما فعله بوهمند ضد برتراند ابن عم غنى لأميرياكو صاحب جبيل . الذى أعطى صراخه استقلال جبيل تماما عن طرابلس وأن يكون لديها السيادة المطلقة بين وسلاطى من أحد . الأمر الذى جعل من جبيل مدينة ذات ثقل سياسى كبير لايسمح لأحد بالتفاوض بمباة بها . لذا لم يغير المستبعد أن يكون المقصود هنا جعله وليس جبيل . لأن جبلة كانت تابعة لاسككية التى كالى معكها فداد بوهمند الأساسى فى طرابلس . انظر . سلبية عامر (مكتورة) المسلمين فى السطلي جبيل لبنان . ص ١٢٣-١٢١

٤- دميرين قلعة متينة لها قناة كبيرة تحمل الماء من سلبية إلى حماة تسقى بساتينها وأراضيها . انظر التمثيل . مجلة القهر . ص ٢٠٧

هذا الوجه لكمة قوية وجهت إلى بومهند ، وتملكه اليأس من فكرة مناوئة بيبرس إلى أن توفي عام ١٢٧٥م / ٦٧٣هـ.^(١)

وعلى الرغم من لساس الفرنج ببلاد الشام مقرب وصول حملة عسكرية متكاملة لانقلابهم من التوسيع المتردى الذي وصلوا إليه إلا أنهم لم يتفادوا معها واستطاب الصليبيون الحياة اهدانة بالشرق، ولم يعونوا يفكرون في العودة إلى ديارهم ، وكروهوا العرب والصراع ورافقة الدماء ، ولقد أصبحت لهم زوجات وأبناء ومصالح ، فاستكاثروا شاماً لكل ما فرضه عليهم المستعمر من قيود أو شروط. ولم يجد بيبرس صعوبة تذكر في احتوائهم جميعاً ، هذا ، في الوقت الذي كانت فيه السجودات العسكرية تصل إليهم ثياباً سواء ببلاد الشام أو بتونس، ولكنها كانت في أعداد قليلة ينقصها العماس وليس يوسعها القيام بأي عمل حاسم ، ولم تعد هذه الأموال تروقهم بعكس الحال في الماضي، بينما كانت القوى الإسلامية في أرياد مستمر تصاحبها تحركات عسكرية دقيقة وسريعة لاستئصال شائكة الغلاء

ولم يشغل بيبرس عن تونس رغم هذه الأعباء المسيمة التي حملها بالتصدي للصليبيين ببلاد الشام فلم يبقل طيها بأي امدادات أو مشورة عسكرية أو أسلحة ، في الوقت الذي ركز جزءاً كبيراً من اهتمامه لتحصين مصر قلعة الدفاع عن تونس والعالم العربي الإسلامي وقتها ، وجعلها في حالة تلعب مستمر، ولم يترك جهة واحدة بغوى تعزيزها بالتخصصات والاستحكامات ، فمعصن مدينتي الاسكندرية وبهاط وياقي الثغور المصرية التي يمكن أن تنفذ منها جيوش الحملة ، كما أنهم بزيادة أعداد السطن وعمارة الشواشي^(٢).

ويقول رينو «إن بيبرس كان صبوراً إلى أبعد الحدود، وقد وضع بلاده في شمة الاستعداد العسكري الذي يمكن أن يصمد للحصار الطويل»^(٣). كما أنه لم يتوقف عن التأثير على الحكام

١- للمزيد من التفاصيل عن الموقعة الحربية التي قامت بين التتار وبيبرس إلى أن انتهت بشواهم الإسلام

أشر . Reunaud, Op. cit., p. 516.

وإسحاق الفارابي : زينة الفكر ، ص ١٦٠

٢- ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج ٢ ، لوحة ٧٤ ، للتقريرى . السلطنة ج ١ ، ق ٦ ، ص ٨٧

Reunaud, Op. cit., p. 517.

٣-

المسلمين التابعين له لإثارة حماسهم لعمل عسكري موحد يحفظ مصر وتونس على حد سواء^(١). هذه، بالإضافة إلى أنه طرق كل الوسائل السلمية التي يمكن أن تقى تونس خطورة وجود الحملة فوق أراضيها فقد أرسل بعثة إسلامية إلى عرب أوروبا لإيجاد رأي عام مضاد لحملة لويس^(٢) مستغلا في ذلك صداقته القوية مع بعض ملوكها . حقيقة أن معظم هذه العلاقات اتسعت نطاق المصالح التجارية والاقتصادية المتبادلة^(٣) إلا أن بيبيرس كان ينظر إليها على أنها وسيلة للعمل ضد الصليبيين داخل مواقمهم . كما أن هذه المصالح المشتركة جعلته دائما على أهبة الاستعداد لمواجهةهم لتقديم أية تنازلات . كما أثبت هذه العلاقات ثمارها حين كانت المنفذ الذي علم منه بيبيرس أن وجهة الحملة ستكون تونس وليس مصر رغم تضارب الروايات بعد ذلك، وعلى أي الأحوال كانت الأطراف الصليبية كلها في حالة تخطيط دائم في مواجهة من الفكرة الصليبية ومعاراة المسلمين ، حيث لم ترد أشارات واضحة عن وجود تعاون دبلوماسي مشر بين بيبيرس وأي من ملوك الفرنج.

١- كان ملوك الإسلام التابعين لبيبيرس هم صاحب القرم حياث الدين بن ركن الدين، وصاحب مازين أرا ارسلان وصاحب اليص الملك الظفر شمس الدين بن رسول ، وصاحب مكة شرعها الله أبو نبي نجم الدين، وصاحب المدينة علي صاحبها السلام مر الدين شبيبة بن حماد ، وحليفة للفرنج أبو العلاء لدريس بن أبي عبد الله محمد بن يوسف الثالث بمصر الأمير بدر الدين العائز قنار . انظر ابن أبيك، كثر المنبر ج٢، ص ١٧٧

Matt. of West., p. 445, Renard, Op. cit., p. 516

٢-

٢- من المعروف أن بيبيرس كان على علاقة صداقة قوية بكل من الامبراطور الألماني مانفرد ابن الامبراطور فردريك الثاني وشارل كونت أنجو . وربما حاول من وراء هذه الصلة استغلال الحياء القديم بين فردريك وشارل حي، قام الأمير بالاستيلاء على ممتلكات مانفرد ابن الإمبراطور الألماني فردريك في جزيرة صقلية، الأمر الذي أعطى لبيبيرس الأمل في أن فردريك لا يد أن يفكر في أن ينتقم منه ومن أخيه لويس لاسترجاع ممتلكات أبيه . حقيقة أن المصادر الأجنبية والعربية لم تسفقا بما يليق بوجود خطوات إيجابية في هذا الصدد بين فردريك وبيبيرس . ولكن الظروف المحيطة بهذا الموقف جعلت بيبيرس يوسع دائرة تحركاته للتخلص من الحملة الصليبية ضد تونس بكل الوسائل والطرق . هذا بالإضافة إلى صداقته القوية بحكام برشلية ومصر وشيخية أنظر السلوك ج١، ق٢، ص ٤٩٥ ، في الفرمان تاريخ الدول ج٢ ، لوحة ٤٤ راجع كذلك :

Matt. of West., p. 445

يضاف إلى ما تقدم، أن لنشغال بيبرس بلمر الحملة لم يجعله يعض عينيه عن الأخطار الأخرى التي هددت المسلمين، وفي مقدمتها الخطر المغولي. حقيقة لقد استؤصلت شأنتهم تماما بعد موقعة عين جالوت (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م). ولكن هذا لم يقص تماما على العداء المشترك الذي يجمع بينهم وبين الصليبيين ضد المسلمين، مما جعل بيبرس يواجه لهم المزيد من الضربات المتقطعة على أطراف بلاد الشام. لقد كان يخطط لكل تحركاتهم، وقد أدت كل هذه الظروف مجتمعة إلى زيادة الكيان الصليبي في بلاد الشام ضعفا وتدهورا في الوقت الذي ملا فيه شغل بيبرس سواء في مصر أو بلاد الشام أو في ديار الإسلام جميعا. وقد أدى هذا في نهاية الأمر إلى احتواء الحملة الصليبية على تونس وانتفاذ الشمال الأفريقي من الضيق الأكيد^(١).

وإذا كنا قد تحدثنا عن جهود بيبرس في سبيل القضاء على بقايا الوجود الصليبي في بلاد الشام، وابعاد الخطر المغولي عن الشرق الأدنى، وتوحيد الجبهة الإسلامية لمواجهة العدوان الصليبي ضد تونس، فذلك لتداخل كل هذه القضايا في بعضها بحيث لا يمكن فصلها عن موضوع البحث لتعكس هذه الأحداث على الحملة الصليبية ضد تونس وتأثر الحملة بها.

ومهما يكن من أمر، إذا هدنا ثابته إلى تونس سوف نجد أن لويس التاسع بعد أن تكبد من تقاص أحبه شارل كويت أسوأ من القدوم إلى ساحة القتال، اضطر إلى استقدام عدد آخر من الصليبيين الموجودة في عرض البحر إلى الشاطئ لزيادة تحصين الميناء. كما أنزل عددا كبيرا من قواته إلى البر لتحصين المدينة ومواجهة المصارع الإسلامي لها. هذا، بينما لم يترك لهم التونسيون الفرصة لتسويق قواتهم، بل كانت خططهم هي توجيه الضربات المتلاحقة لهم حتى يرتك المعسكر الصليبي، مستغلين في ذلك ازدياد انتشار المرس في داخله، فدمعوا عهدهم الأمديدات بالعمل على بث الاضطراب والقلق داخل معسكرهم في الميناء. وأصبح شغلهم الشاغل هو مواجهة للضربات التي كالها المسلمون لهم والحصار الذي فرضه المسلمون عليهم أكثر من اهتمامهم بالحصول على المؤن. هذا في الوقت الذي ازداد فيه التفتت داخل

١- أبو المعالي المنقذ ج ٢، ورقة ٢٥٩-٢٦٠، الكشي قوات الويليات، ج ١، ص ٨٢-٨٤، ابن القردس، تنقيح المعتمرو، ج ٢، ص ٢٦٩، ابن خلدون، الأمير، ج ١، ص ٢٩٦، المقريبي، السلوك، ج ١، ص ٢٧، ص ٦٥٢، أبو الفدا المختصر ج ٢، ص ١٦٦، لتتار بقيا، محمد العويبي، اب التاريخ، ص ٢١٦.

للعسكر الصليبي، وضاعت الكلمة الموحدة، وازداد حلق لويس على أخيه شارل^(١)، الذي لم تكن تهمه سوى مصالحه الخاصة. وكانت كل محاولات لويس في هذه الفترة المرجية من تاريخ الحملة، هي ترميم بعض الأسوار المهدمة حول مدينة قرطاجنة القديمة، رغم أنها كانت خراباً ودماراً. لذا كانت مهمته صعبة في إقامة حواجز تفصل بينه وبين المسلمين، ويختلط الفريقان ببعضهما، وازدادت الاشتباكات وتفاقمت الأمور، ولم يكن لديه الفرصة الكافية لمواجهة هذا الموقف القاتم، فالوقت كان يمر بسرعة ولم يكن هناك في صالحه ورغم هذا فقد عمل على إنشاء جسر من الحشب على مسافة قريبة من القلعة، وأمدّه بالمياه كمحاولة منه لتلافي المسار البري حول القلعة والمياه وأيضاً لوقف الاشتباكات بينه وبين المسلمين على أرض قرطاجنة، على أمل وصول إمدادات أخرى من أخيه تعزّز موقفه العسكري في تونس. كما حفر خندقاً عميقاً، وعمر بعض شرفات المدينة^(٢)، ولكنها كانت كلها محاولات عبثية في وقت رجحت فيه كفة المسلمي في الصراع ضد المبرج، ولم يصبح لديه فرصة لاستكمال تحصيناته بعد أن أحاط به المسلمون من كل جانب^(٣). ويقول مني لوف وستمسستر في هذا الصدد وأنها لجة وجنتا أن العرب قد أصبحوا على استعداد لتقييم كل التصحيحات من أجل الملاصق منها^(٤).

وهكذا استمرت الاشتباكات بين الطرفين، وأرداد رجحان الكفة الإسلامية بوصول إمدادات عسكرية جديدة من السودان وبراقة، وتقدم العريان والمغاربة وغيرهم، في الوقت الذي أردت فيه الأمور تعقيداً بالنسبة لـ لويس. يقول مونرويد: أنه بعد أيام قليلة من هذا الحصار الشديد الذي فرضه المسلمون حول الفرج، تنافست المياه وقلت الأقوات^(٥) ولم يصبح لديهم ما يتكوّنونه سوى اللحوم الملحة التي أحضروها معهم. ونظراً لشدة حرارة الشمس فقد تسببت هذه الأطعمة وتعفنت، ومع ذلك اضطروا لأكلها دون أن يدركوا أنها كانت السبب في ازدياد

١- مونرويد، العرب المقدسة، ج ٢، ص ٢٥٢.

٢- ابن خلدون، المغرب، ج ٦، ص ٢٩١ - وأيضاً Nangis, p. 448.

٣- الفريزون، السطوة، ج ١، ق. ٢٠ - ص ٢٠٢.

٤- Max. of West, p. 457, Enciclos, Op. cit. p. 458. —

٥- Nangis, p. 445 ; Michoud, p. 516. —

المرض وانتشار الوباء في معسكرهم ، في الوقت الذي كان فيه أهل تونس أُنزِلَ بِطبيعة بلادهم. وكانوا يحاربونهم من الأماكن الحصينة البعيدة عن حرارة الشمس كما كانوا يكيلون لهم الفخاريات القاسية عن طريق استئجارهم آلات صناعية كان يوسع فيها كميات كبيرة من الرمل مُنْزَل فوق المعسكر المسيحي كفتها محمات في أنزول من نار، مما أوصله إلى حالة شديدة من الضعف والانهيار^(١).

وجدير بالذكر هنا أنه رغم انتشار الأمراض بين الصليبيين ، فإن الحقيقة الهامة التي يجب أن يدركها هي أن تونس كانت نظيفة تماماً من هذا المرض، ولم تكن مصدراً له، بل هناك أسباب عديدة سنعرض لها تفصيلاً فيما بعد، ومن بينها المتكولات التي أصابها العفن والتي خسر الفرنج التي أكلها لشباب يطوبهم النارية بسبب غاذ المني .

وبخلاصة القول أن الحملة قد كُتِبَ عليها الفشل المبكر، لتجمع أسباب عديدة أدت إلى هذه النهاية، من حيث قلة الأوقات ، وانتشار المرض، واستهتار شارل كورت أنجو وتقااعسه عن تقديم المساعدة المطلوبة، واضمحلال فكرة الصليبية عامة، بالإضافة إلى الصعوبة الإسلامية المفاجئة من قبل صاحب تونس نفسه تلك الصعوبة التي تقهرت دائماً من مصر وحدث العالم العربي الإسلامي من مشرقه إلى مغربه ، ولا يمكن أن ننكر أيضاً رهم كل السلبيات التي واجهت لويس وخمائله ، أنه استفاد من تخطيط المستنصر في قراراته وحطته المرتجلة التي أعطت له الفرصة في تثبيت أقدامه في قرطاجنة وزيادة الاستحكامات حول المدينة ولكن الاتفاقية الإسلامية التي جاءت في الوقت المناسب قلبت موازين الأمور رأساً على عقب . وبعد أن كان زمام السيادة والهجوم في قبضة الصليبيين ، أصبح في قبضة المسلمين ، بينما اكتفى الصليبيون منذ ذلك الحين بمساعدتها بالدفاع عن أنفسهم ومن كياناتهم يوجه هام وهذا ما سيكشف عنه الفصل التالي.

الفصل الرابع

المواجهة العسكرية بين المسلمين والصليبيين داخل قرطاجنة

أغسطس ١٢٧٠ م / ذو الحجة ٦٦٨ - المحرم ٦٦٩ هـ

المعركة بين قوات لوريس والمسلمين بقيادة يحيى بن صالح تخرج ميران القوي، بين الطرفين ، واحتفاء المستعمر من مرس ومنقشة مختلف الآراء التي تارت بهذه المعصومي- انتشار المرض داخل المعسكر الصليبي لسبابه وتناهبه- مرض لوريس التاسع بناء الفوستاريا واحتلاف الآراء حول مرضه ووفاته والاثار المترتبة على ذلك- تولى فيليب الثالث الجيش الصليبي- تحليل لوشب ع للمعسكرين الصليبي والإسلامي.

ويعد أن استعرضنا الآثار الإيجابية التي ترتبت على صحة المسلمي بنونس وتداركهم للخطر المحيط بهم قبل استعماله، بفصل الدور الذي لعبه بيمرس لايقاظ المستعمر من صفوته وما ترتب عليه من اجتماع الشمل الإسلامي كله حول مصير تونس وفنوم الجيوش الإسلامية من كل حطب وصوب للوقوف بجانب المستعمر، بعد كل هذا يجدر بنا أن نتابع تسلسل الأحداث وما آلت إليه . ففي هذا الوقت اراد المعسكر الصليبي سرية وتفاقت حدة المرض بين الجنود وضاعت الكلمة الموحدة بينهم. حقيقة أن المرحح الغربي قد دأبوا على أضفاء صفة البطولة على جيوشهم حتى في لوقات الهزيمة والعذلان إلا أنهم في نهاية الأمر لم يتمكنوا من انكار دور المسلمين الناجح في تطويقهم والحكام الحصار توطئة لتوجيه الضربة العاصية.

وبدأ باستعراض دور المستعمر الحفصي في التصدي للقوات الغازية ، حيث وجد دعمه في ملزق حرج نتيجة تباطؤه في الدفاع عن قرطاجنة وشعر بتصدي خصومه وأصغقه له على السواء وأن اتهامهم له باللامبالاة والعبانة والمالأة لن يوقف عند حد، فسعى للعمل الجاد على تخليص بلاده، ليس فقط هروبا من هذه الاتهامات ، بل لأنه يفضل حنكة الصيامسية والعسكرية أدرك أن الزمام على وشك أن يفلت من يده وأن تونس نفسها على وشك الضياع

إن التقط الصليبيون انفسهم أو وصلتهم امدادات من العرب، كما أدرك أن هناك وخشعته أن يحمي سلطانه من الضياع .

وبناء على ما تقدم كانت خطة المستعمر الجديدة هي احكام العصار البحرى والبرى معا حول معسكرات الصليبيين، الأمر الذى أوقع الفرنج في مزيد من الانضطراب وجعلهم يرتجفون القرارات والقطط، خاصة وأن التوسيع احتاروا لأنفسهم الأماكن الحصينة في هذا العصار، الأمر الذى مكنتهم من حماية جيوشهم من قسوة الحر والعطش ومع أعلم بطبيعة بلادهم من الصليبيين، هذا فى الوقت الذى تركز فيه الصليبيون فى أماكن شديدة الحر والجفاف واد تلك الاقوات مما أثر تأثيراً خطيراً عليهم.

وكانت الفترة من ٢٦ يولاي إلى ٤ أغسطس ١٢٧٠ م / ٥-١٢ ذى الحجة ٦٦٨ هـ ، هى فترة التقاط الأناض من قبل المسلمين وسقوط قرطاجنة ، فعادوا تنظيم صفوفهم فى وقت ازدادت فيه حدة المرض بين الصليبيين، رغم انتصارهم عسكرياً على خصومهم المسلمين وانشغل لطرفان فى معالجة الصدع لدخل صفوفهما ولم ترد أية اشارات فى مصادر ذلك العصر من حيوت معارك جاسسة بين الطرفين حتى يوم ٤ أغسطس ١٢٧٠ م / ١٢ ذى الحجة ٦٦٨ هـ، الأمر الذى عاد بالفائدة على المسلمين ، وسمح لهم بإعادة ترتيب جيوشهم وخططهم بثقة أكبر من المسيحيين ، وقد علو الجيش التونسي فى ذلك العديد من الجيوش الإسلامية الأخرى^(١) التى تحمت إلى ساحات المعركة ، فى الوقت الذى صعد فيه الغرب الأوروبى على لوس بالأسعادات وترك بنون أسعاف مرضاء بينما تباطأ أخوه شارل عن التقدم رغم العديد من السفارات التى أرسلها إليه، وأصبح شغل لويس الشاغل آنذاك هو اللقاء المستمر بالقادة والمستشارين العسكريين لتحاذ أفضل الوسائل للخروج من هذه الأزمة ، وأرسل لويس نعد النبلاء ويدعى لمرويس دى لاروش *Assens de la roche* لاستطلاع الأمر وكانت الأخبار غير مطمئنة ومعادها أن المسلمين بدأت أعدائهم فى الإزدياد ، وأن تلك التونسية قدس فى طريقه

١- كان جيش الممسيق أساس هذه الفترة يتكون من عناصر عديدة ومنها الأتراك حيث لشترى الأمير أبوركزيا الممسيق ما يقرب من ألفى فارس من السالك والأتراك بمصر هذا بالإضافة إلى انضمام عدد كبير من الدواد الأتراك الذين هربوا من بغداد إلى تونس واشترافهم المستعمر الحفصى بالإصامة إلى العديد السود الذين كانوا يرتدون للباس البيضاء المسلحة بالدروع لتتفرق بين حقول البحر. ج ٦ . ص ٩٧-٩٨

لسلحة القتال بناء على أوامر بيبرس^(١)، وأنه قد أصبح لدى المسلمين النية الحقيقية في التصدي للمسيحيين سواء في البر أو البحر وهذه إشارة واضحة على أن المستعصر قد تنبه لخطأه الأول بتركيز العصار على البر فقط وأصبح هدفه التصدي للفرنج من كل الجهات وتقليص قرطاجنة من أيديهم وفي هذه الأثناء وصلت الأنباء إلى لويس عن طريق القائد أوليفيه دي كريس olive de Chris وهو أحد النبلاء الذين قدموا على متن سفينة حاصلة به تلميذه وبأن إساءة الملك شارل في عرض البحر وأنه في طريقه إلى تونس، وقد فرح لويس كثيراً عند سماعه هذه الأخبار، فهنا كان أقصى ما يتمناه لدرجة أنه تقام احتفالاً كبيراً على متن السفينة المسماة منتجوا تكريماً لأوليفيه على الأنباء التي جاء بها، فلذلك لويس كان يفسى سوء عاقبة تلحق أخيه خاصة بعد أن عاد المسلمون منهم الأول من حيث القوة والتصدي للمسيحيين^(٢).

ويتضح من الرواية السابقة أن المسلمين بتونس في كساحهم ضد الصلة قد مروا بمراحل ثلاث أولاً استعدادهم وبقطنتهم للقاء لويس وجيوشه حين وصل قرطاجنة^(٣)، وثانيتهما وأخطروها في التناقص الذي أصابهم فجأة وجعلهم يتهاونون في الدفاع عن أراضيهم وذلك كان راجعاً إلى القسط الوحشية التي أعياها سلطان تونس وتراخيه في حماية بلاده ومعالته الظاهرة للعدو أحياناً وبغوض موقفه أحياناً أخرى^(٤) أما المرحلة الثالثة والأخيرة وهي التي نحن بصددنا، فهي صحوة شعب تونس من جديد وأصراره على استرجاع أرضه بعدما شاهد حياح قرطاجنة، وهورفه على تونس نفسها من الضياع، تلك الصحوة التي كن لسلطان مصر فيها فضل عظيم جمع بها قلوب المسلمين نحو تونس وصيق الضائق على المستعصر لقتلعب بمصير بلاده مرة أخرى^(٥).

Nangis, p. 435, Eracles, Op. cit., p. 459. Beaulieu, Vita Ludovici noni, p. 21. ١
Anonymous, Gesta Sancti, p. 56, St. Patrus, vie de Saint Louis, p. 103, Joinville, Op. cit., p. 299, Reinard, Op. cit., p. 522

Nangis, vie de Saint Louis, p. 455 -٢

Moti of West, p. 450 -٣

٤- ابن خلدون العمير، ج٦، ص ٢٦١، أبو الحسن: الملوك الصافي، ج٣، ورقة ٢٩

Nangis, Op. cit., p. 455. -٥

وبناء على ما تقدم عمل المستعمر على فرض حصار محكم حول الميناء والقلعة، وحشد تلك عددا كبيرا من السفن الإسلامية التابعة لتونس وغيرها، كما فرض حصارا بريا حول برج المدينة ووزع جنده في أجراء متباعدة من المدينة. كذلك عقد المستعمر في نفس الوقت اجتماعا حضره عدد غير قليل من أمراء المسلمين وحشد من القادة العسكريين ويبدو أنه كان اجتماعا شعبيا يهدف انكاء روح الشجاعة والاقدام وحث روح المصداق في نفس الشعب اتونسي للتخلص من برش العملة على هذا الصعد يشير نامجي قائلا: إن حشودا هائلة من المسلمين قد حضرت إلى مقر الاجتماع. وأعلن المستعمر خطته العسكرية بعد التشاور مع القادة القريبين منه معلنا أن هدفه الأول سيكون احكام الحصار حول موقع الفرنج المتحركة في القلعة والميناء وليرج وتوزيع باقي القوات على كل المناطق المرتفعة المحيطة بتونس^(١).

وبعد انتهاء الاجتماع خرج المستعمر بنفسه وتفقد كل مواقعه ومصمركاته وفي صباح يوم الأحد ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ قام المسلمون بحمل السلاح استعدادا للقتال. وبحول هذا اليوم الذي دارت فيه رحى أول معركة مباشرة بين المسلمين والصليبيين ثار الخلاف بين المؤرخين من الجانبين يقول نانجي أن هذا اليوم هو ٢ أغسطس ١٢٧٠م / ١٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ^(٢)، في حين ينكر ابن أبي دينار أنه يوم ١٠ محرم ٦٦٩هـ / ٢٠ أغسطس ١٢٧٠م^(٣) ونحن نميل إلى الأخذ برواية نامجي لأن هذا التعديد الزمسي الذي أورده يتناسب مع سير الأحداث وظروف لويس الصحية، فهو لم يكن قد أصيبت بالمرض الذي أصاب جنوده بعد وكانت لاتزال لديه امكانية خوض المزيد من المفاوضات المكيفة ضد المسلمين ، أما ما ذكره ابن أبي دينار فهو تاريخ غير دقيق لأنه في يوم ٢٠ أغسطس ١٢٧٠م / ١٠ محرم ٦٦٩هـ كان لويس قد مضى على وفاته خمسة أيام كاملة فكيف اشترك في هذه المعارك وربما يقصد ابن أبي دينار هنا إحدى المعارك التي دارت بين المستعمر وشارل أخو لويس بعد وصوله تونس^(٤).

Nangis, Vie de Philippe, R. H. G. F., t. XX, p. 472

-١-

Nangis, Op. cit., p. 472, Cf. al o. Guzman, St. Louis, p. 137

-٢-

-٣- ابن أبي دينار : المؤرخ ، ص ١٢٨ ، محمد الباجي السعدي : العلامة النقية ، ص ٦٢ .

-٤- ابن أبي دينار : المؤرخ ، ص ١٣٦

وبهما يكن من أمر فقد لورد نابجى وصفا دقيقا لجيوش المسلمين، إذ يقول «أن الجنود كانوا يحملون أسلحة مختلفة خاصة بالحصار البرى والبحرى وإن استعدادهم هذه المرة كان يتميز بنقطة كبيرة فضلا عن وجود قوات من الفرسان والمشاة كما أحكموا حصارهم البحرى بصورة لم تشهد لها مثيل واستخدموا أسلحة متفوقة لرد هجماتهم، وتظاهروا كأنهم صف واحد ينتظر وبشراسة لعنة مهاجمة قواتنا»^(١)، وحين رأى الملك لويس ذلك، أمر جنوده على الفور بالاستعداد للقتال. وبدأت المعركة الأولى بهجمة إسلامية قوية على عدد من المواقع العسكرية التى أقيمت على أرض قرطاجنة لصماية الميناء والبرج فى الوقت الذى أمارت فيه السفن الإسلامية على عدد من السفن المسيحية المرابطة بالميناء، وقد اضطرب الجنود الصليبيون وساد الهرج بينهم. وهرع عدد كبير منهم إلى الزوارق طلبا للهربة بأنفسهم والنجو إلى السفن الكبيرة الموجودة فى عرض البحر^(٢)، ولم يكف المسلمون عن القتال بل تابعوا هجماتهم فى الوقت الذى وجدت فيه فرق أخرى تنق الطبول وتصدر أصواتا مرتفعة تثير حماسا للجند ضد الجيوش الصليبية ويقول نابجى «أنهم كانوا يحملون المعدات والآلات الكثيرة ويتجولون عبر المزارع وفى الشوارع لاستعراض قواتهم أمامنا حتى يشعرونا بنها غير قادرين على الاستقرار فى المقاومة وقد استمر هذا الاستعراض فترة من الوقت دون حدوث معركة حاسمة أخرى بيننا وبينهم ويستمر نابجى فى وصفه للمعركة قائلا «ولكن لم نلق مكتوفى الأيدي أمام هذا الاستعراض من قبل المسلمين بل كنا نرد نحن أيضا العبارات الحماسية لإلهاب الجنود. وكانوا يقولون هيا هيا لعمل السلاح من أجل جمع القوى التونسية المقبلة محونا وقملا هرع المسيحيون من داخل معسكراتهم، وأظهروا استعدادا كبيرا لملاحقة المسلمين خاصة عندما شاهدوا لويس بنفسه حاملا سلاحه ليكون قدوة لهم كما قدمت بعض السفن العربية الموجودة فى عرض البحر للمشاركة فى القتال وأعشى الفرسان ظهور جيادهم وهم يحملون أسلحتهم التى كانت تلعب من شدة برقيتها وقد انضم إلى الملك لويس فى هذا ملك نافار وملك صقلية والكونتات والبارونات الآخرين، وتقدم الجميع والتفوا حول معسكر لويس بقرطاجنة وهو المكان الذى دارت فيه المعركة»^(٣).

Nangis, Vie de Philippe , pp. 472-473 .

-١-

Nangis, vie de Philippe, pp. 473-474

-٢-

ويجب أن نتناول رواية نانجي بشأن اشتراك ملك صقلية في القتال بصلر شديد فمن المعروف أن ملك صقلية لم يحارب مع لويس في تونس بل حارب مع ابنه الملك فيليب^(١). كما أن تعديد نانجي لمكان المعركة بأنها بالقرب من اقلية الملك لويس تحديد خاطئ؛ حيث يذكر ابن خلدون أن هذه المعركة كانت بالقرب من الخندق الذي حفره لويس أثناء تحصيناته لجبهة قرطاجنة^(٢). وقد عاد نانجي وتقمس روايته بهذا الشأن قائلا «إن الملك والبرونات تقفوا إلى مكان مهدم من اطلال قرطاجنة وأقاموا فيه تحصيناتهم ومعسكرهم ولم يكن للمسلمين فيه أي خيام أو جند الأمر الذي بحث الإطمئنان في نفس لويس». وعين الكونت أليسون Alison قائلا ومعه مقدم الاستبارة^(٣)، وعند كبير من الأمراء والمنحوب العاص عن مدينة سان ديس والذي كان يشغل منصب كبير في قيادة الحملة وكان يسمى لوري عام *Laun Flame* ويضيف نانجي قائلا «إن هذا الرجل كان بمثابة العلامة الرئيسية للمعركة»، ويتضح من رواية نانجي أن الصليبيين هم الذين احتاروا ميدان المعركة هذه المرة ويرجع ذلك لأن المسلمين قد سيطروا على كل المواقع الحصينة التي وجدت بها معسكرات للصليبيين، وأنهم ضيقوا عليهم المساق للرجة أنهم كانوا يمحشون من أي موقع لا يوجد به تحصينات اسلامية في الوقت الذي كانت أحوالهم تزداد سوءا بسبب ترديد عدد الرجسى داخل السفن أو داخل القلعة وسقوط عدد كبير منهم موتى بسبب عدم وجود أي أسلحات، بالإضافة إلى انعدام الأقوت والمساعدات الخارجية، وتزايد ضغط المسلمين عليهم، وخاصة الجنود السودانيين الذين كانوا يزارون كاليوحدش القسارية^(٤). وبدلوا يتصيدوهم في الشوارع. وفي خضم هذه الأحداث كان المستعمر حاملا السلاح مع جبهة كي يشد من أزرهم ويصف لنا ابن خلدون أحداث هذا الصدام «بأن المسلمين تقدموا وسلخوا طريقا في البحيرة، وكانت مجاورة لموقع الصليبيين وماجسوا فجأة مقدمة الجيش المسيحي. وقد تمكنوا من أن يفتنوا هذه الفرقة على أحسن وجه وسلخوا منهم الكثير من الغنائم»^(٥). ولما شعر الفرج بتطويق المسلمين لهم أرسلوا فرقة

١- سوف أتناول هذه الأحداث بالتفصيل في الفصل الخامس من الكتاب

٢- ابن خلدون: «العبر» ج ٩، ص ٣٩٢.

٣- مقدم الاستبارة هو أحد القادة الأتلي والقلبي الذي قدموا من مكانا لشركة لويس في الحملة أنظر Ericas, Op. cit., p. 458

٤- مويرود: العرب والمسلمة، ج ٢، ص ٢٥٢-٢٥٤.

٥- ابن خلدون: «العبر» ج ٦، ص ٢٩٩.

لقرص حصار حول البحيرة ويعثوا فيها بالرماة للتصدي للمسلمين وقطع الطرق عليهم، حتى يكلوا عن مهاجمتهم . خاصة وأن الصليبيين لم يتصوروا مساعدة المسلمين لهم من هذه الناحية وحصارهم بهذا الشكل . فكان حصر المواجهة هنا من أهم الأسباب التي أسقطت الاضطراب في صفوف الجيش الصليبي في هذه الجولة من الالتحام المباشر بين الطرفين

وفي مساء يوم الثلاثاء ٦ أغسطس ١٢٧٠ م / ١٥ ذي الحجة ٦٦٨ هـ ذهب المسلمون بقيادة يحيى بن صالح^(١)، وهجموا على معسكر الصليبيين بقرطاجنة وتمكنوا من قتل ما يقرب من خمسمائة جندي كما حطموأ عددا من الأبنية التي كان لويس قد شيدها بعد احتلاله الميناء كذلك هدموا الخندق الكبير الذي حفره لويس قرب معسكره^(٢) وبشير نانجي « أن هذه كانت الساعات الأولى للمعركة إلا أن الصليبيين بعد ذلك سرعان ما تصدوا للتوسيع، وتمكنوا من جمع شتات جيشهم ، وكثفوا من استعدادهم البحري ففي نفس الليلة وبعد ساعات قليلة من هجوم المسلمين عليهم أغار الصليبيون على المعسكر الإسلامي وحدثت معركة أخرى صارية بين الطرفين قتل فيها عدد كبير من المسلمين والسبيحيين^(٣)

وحول سير الأحداث في هذه الجولة الثانية من القتال وردت اشارات متفرقة تشير أن المستعصر المفضي عندما شاهد انقلاب الموازين في هذه القيلة وأن الصليبيين قد انتقلوا أنفاسهم قليلا استعد للهروب إلى القيروان وفقا لرواية ابن خلدون^(٤)، في حين يذكر لحد الحارثي الحديث أنه فعلا رحل إلى القيروان ولكن ليس هروبا من ساعة اقتال أو تنصلا من المسؤولية الجماعية الملقاة عليه، ولكنه فقط أراد أن ينقل حمة القتال ضنهم إلى القيروان لظروف عسكرية أفضل^(٥)، هذا بينما يذكر ابن القنفذ «أنه فكر في أثناء هذه الأحداث على

١- يحيى بن صالح هو نفس الشخصية التي لعبت دورا هاما أثناء صراع المنصور مع العرب في بداية توليه الحكم . انظر البغدادي، أثر البصائر ، ج١٠، ورقة ١٩٢ .

٢- ابن خلدون ، الديار، ج١ . ص٢٩٢ ، ابن رسول ، برقة المبرور، ج٢ . ورسم ١٦٨-١٦٩

٣- Vangis, vis de Philippe, 472-473 .

٤- ابن خلدون ، المصدر السابق، ص٢٩٢ .

٥- محمد عزالي وآخرون : تاريخ أفريقيا الشمالية ، ص١٨٠ .

مكنى قسنطينة وأراد نقل خزانته وأهله إليها وأنه احتزن بها أربعين ألف قتيلا^(١) من القمع وأمثالها من التشهير وشرع في إصلاح أسوارها^(٢)، وتؤكد الاشارات السابقة أن المستعمر لم يكن صبورا أو صانقا في الدفاع عن تونس، ولم يكن يفكر إلا في مصلحته الذاتية، إذ كيف يفكر في الرحيل إلى القيروان دون أي اشارات مسبقة من قبل المؤرخين المعاصرين من أناسين عن وجود استعبد عسكري هناك للاقاء جيوش الحملة؟ وكيف يتخلى عن قرطاجنة ويتركها نهبا للعدو؟ وكيف يترك جيشه ممزقا على أرضها بعد ثلاثة الصليبيين عليه في هذه الجولة من الصراع باعتراف المؤرخين المسلمين أنفسهم، لن نقله ميدان المعركة إلى القيروان أمر يحيله الكثير من الشكوك حول حقيقة نية المستعمر في الدفاع عن تونس

أما ما ذكره ابن القنفذ عن قسنطينة، فعلى الرغم من أنها ضمن مناطق نفوذ المستعمر ببلاد المغرب إلا أن هذا المؤرخ لم يذكر أن صاحب تونس قد اهتم بلمر شعبه متغما اهتم بلعل بيته، أي اهتم بمصالحه الشخصية قبل أي شيء، وكل تصرفاته في هذه الظروف العرجة من مصير تونس تدعو إلى الشك وعدم الثقة في نيته، وأرجح أنه كان يعمل لنفسه أولا وأخيرا، وأن مسألة فراره أو رحيله إلى القيروان أو قسنطينة كان أمرا معدا له من قبل، فالمحدثان من أوائل مدن المغرب القتان دانتا للمقصيين بالولاء والطاعة بعد انهيار ملك الموحدين^(٣)، لذلك أهد المستعمر لنفسه مقرا وينبلا آخر يكون أكثر أمنا وسلاما من تونس، إذا دارت عليه لدائرة هناك، وهذا ما أكدته أحد المؤرخين الفريبيين القدامى وهو تاسجي من أنه ما أن دارت الدائرة على صاحب تونس حتى هم بالفرار آملا في النجاة^(٤)

١- القنبر هو مكبال الجيوب، وتغير الأرض هو مسلكة ١١٤ دراج، انتظر جبران مسعود، التراث، ج ٢.

ص ١١٦

٢- ابن القنفذ الفارسية في مبادئ الدولة الطلمسية ص ١٢٢.

٣- ابن أبي دينار اللؤس في تاريخ أفريقيا وتونس، ص ٢٧٦، الزركشي تاريخ اللؤلؤ، ص ٢٧ وأيسا ابتسام مرعي، العلاقات مع الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ص ١٨٨-١٨٩، عبد العزيز سام المغرب الكبير، ص ٨٧٦

Nagaz, Vie de Philippe, pp. 472-473, Nagaz, Vie de Saint Louis, p. 455

وعلى أي الأحوال فقد استمرت التلويشات بين المسلمين والصليبيين على أرض قرطاجنة وكانت الحرب سجالاً بينهما، سقط فيها عدد كبير من قادة المسلمين رؤساء الفرتنج، يذكر نتائجها أنه سقط ما يقرب من ثلاثة عشرة من كبار القوم في ميدان المعركة، ومنهم يوحنا دي روستيه John de Rostie وكاستيليان دي بيوكيرييه Castellon de Brokery وقد حملوا إلى الكنيسة المقدسة لأجراء الطقوس الدينية عليها قبل دفنها^(١) ويستطرد قائلاً أنه من كثرة عدد القتلى عجز الأحياء عن دفنهم، خاصة وأن المرض كان يشتد ويصوره خطيرة بين الباقين وتناقص الشباب من حملة السلاح أما مرضى الحرب أو من المرض أو بسبب حرارة أغسطس الشديدة وأصبح الأحياء عاجزين عن انتقال المرض لدرجة أن حفائر المتاريس التي صنعت لحفر القندق حول معسكر الصليبيين استقبلت قبوراً لحفائر الجنود المسيحيين الذين ملأها جثثهم^(٢).

وإن دل هذا الوصف على شيء فإسما يدل على انهيار الروح المعنوية لدى الصليبيين وتلك جبهتهم من الداخل نتيجة تفشي الأمراض ثم إن سوء أحوالهم الصحية طغى على فرجة اهرأز أي نصر كان يمكن أن يحققوه على المسلمين، كذلك أشار عدد كبير من المؤرخين المسلمين بأنه في هذه المعركة قتل عدد كبير من المسلمين ودارت عليهم الدائرة، وكانوا يلقبون ويفقدون المزيد من أراضيهم أولاً أن اتاهم بالهـ مـالـفـرج وهو تفشي المرض بين صفوف العدو بصورة شلت حركتهم^(٣).

ويتضح من العبارة السابقة تقاسم القوى النوبسية مع الاستعمار في القتال وأنه لولا المرض الذي أصاب العدو ربما كانت النتائج أكثر سوءاً بالنسبة لتونس فقد كان انتشار المرض بين الجنود بمثابة السقذ لها من الضياع.

١- Nangis, Vie de Phalappe, pp. 472-473, Nangis, Vie de Saint Louis, p. 455

٢- Nangis, Vie de Saint Louis, p. 455, Jouville, Vie de Saint Louis, p. 474

٣- موريزند العرب المقدسة، ج٢، ص٢٥٦.

٤- العيني، عقد المماليك، ج٢، ص٢٠٨، ورسول، نزهة العيون، ج٢، ورشة ١٧٨، للقريري، السلوك، ج١، ص٦٠، القمني، نوات الزعميات، ج١، ص٨١-٨٥، ابن القنفذ، الفارسية، ص١٢٢.

وقد تعرضنا من قبل لقضية انتشار الوباء في تونس وقت وصول الحملة حيث اختلفت المصادر الإسلامية والمسيحية في تحديد نوع هذا الوباء ومدى خطورته ، فمنهم من ذكر له وباء ومنهم من يقول أنه حمى وفريق ثالث أشار إلى أنه دوسنتاريا كما وجدت غنة لمرى أشارت إلى انتشار مرض بثوس دون تحديد نوعه^(١)

وقد أثبتنا أن التقدم المضاري الذي شهدته تونس في عصر المستنصر الحفصي على الرغم من موقعه المتعاقلة حيال الحملة ينفي ويشد انتشار أمراض معدية أو أوبئة في البلاد كما أنه لم نعد في بطون المصادر الإسلامية والمسيحية المعاصرة لفترة موضوع الدراسة لمناقشة هذا نميبا ، من أي أصابات للتونسيين يمثل هذه الأمراض إلا ما ذكره ابن التند «من أنه في عام ٦٥٩هـ (١٢٥٨م) شغل الناس بثونس وعيرها مرض ، واعتل السلطان المستنصر أياما ثم أفاق وكان يقال أن سببه ما «لو ما» تدعى إلى أفريقيا من زخامة^(٢)، قتل بغداد حين فعل التتار ما فعلوا^(٣)».

ويتضح مما سبق أن هذا المرض كان قبل قدوم الحملة إلى تونس بهوالا أشد من هاما فلو كان تأثيره لايزال موجودا ، لما سكنت المصادر ولا شارح إليه من قريب أو بعيد مع عصر أسماء من راحوا ضحيته من التونسيين ، فلم تذكر المصادر إلا أسماء الصليبيين من قادة وجنود الحملة الذين فُتق بهم للمرض لأنه لو كان هناك وباء أو مرض معد فهل من المعقول أن يصاب صليبيون وهم على بعد أميال كثيرة من تونس ولم يكونوا قد وصلوا إليها بعد في حين لم يصيب به أحد من التونسيين ،

١- أبو الحسن السبل الصافي ، ج ٤ ، ورقة ٢٥٩ ، ابن أبي فيار اللخمي ، ص ١٢٨ . العيني عقد الجدي ، ج ٢ ، ق ٤ ، ورقة ٥٥٨ . ابن رسول مرة العيني ، ج ٢ ، ورقة ١٩٨-١٩٩ . الكشي فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٨٨-٨٩ ، ابن الوربي شجرة المستنصر ، ج ٤ ، ص ٢١٩ ، الطبري السلك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٠٥ . انظر أيضا

Enclos, Op. cit., p. 459 , Matt of West - p. 453 .

٢- المقصود بالرحامة وائحة الجثث للشبهة كونها لو وائحة لأي لجموع على دور طريقة معينة لمظلمها من العفن انظر جبران مسعود الزائد ، ص ٧٧ ، ابن التند العارسية ، ص ١٢٦ ، ابن منظور لسان العرب المحيط ، ج ٢ ، ص ١٨

٣- ابن التند : التاريخ ، ص ١٢٦

والحقيقة أن الطاعون الأسود انتشر بالفعل في أفريقيا وأجزاء كثيرة من المعمورة وأصيبه به تونس بصفة خاصة^(١)، أما حقيقة هذا المرض الذي انتشر بين المسلمين إبان الحملة فمرجعه ما ذكره وإيم دي نانجي وكان شاهد عيان الحملة إذ يقول «أنه في الطريق من سربينيا إلى تونس هبت عاصفة قوية على أسطول المسلمين استمرت أكثر من يومين هلك فيها عدد من الجنود وانتشر بينهم المرض، وبعد أن هدأت العاصفة قام القادة بتفقد الجند وهم على بعد اثني عشر ميلا من قرطاجنة ولم يكونوا قد نزّلوا بها بعد، اكتشفوا أن ما يقرب من ٥٢٥ جندي داخل السفن قد أصيبوا بمرض الدوسنتاريا الحاد، الأمر الذي جعل لويس يرحل كل خطه بعض الوقت ليعالج مرضاه، وأرسل خفية قطعاً صغيرة من أسطوله لاضمار بعض الاسعافات والأطعمة»^(٢)، وعلى الرغم من أن نانجي لم يعلن صراحة عن سبب نفش هذا المرض إلا أنه إذا كان مرض الدوسنتاريا فمن المعروف أنه إذا انتشر فجأة بين جمع كبير فهذا يكون نتيجة تلوثهم أطعمة فاسدة أو ملوثة وتصبح الدوسنتاريا عدوى إذا أصيب الطعام بميكروب شخص مريض بها أما المصمى فمن الممرض عموماً أن أي مرض يصاحبه ارتفاع في درجة الحرارة ويصحب حمى ولكن ليست كل حمى معدية لأن الاشارات عن المرضي اختلقت فسمهم من يقول أنهم أصيبوا بالدوسنتاريا والبعض الآخر يقول أنهم أصيبوا بالحمى، أما الوباء فهو ليس مرضاً معدوداً ولكنه ميكروب إذا انتشر في مكان أتى على كل من فيه إن لم توجد وسائل العلاج الوقائية المناسبة.

وبعد كل ما سبق أرجح أن سبب انتشار المرض بينهم نجم عن طول الانتظار بمدينة اجمورت وتلحز وصول الامدادات التي كان لويس قد اتفق عليها من قبل مع بعض حكام أوروبا، الأمر الذي أتى على كميات كبيرة من الأطعمة الصالحة للأكل فاضطر الجنود بعدها إلى أكل الأطعمة الملعقة مثل اللحوم وغيرها التي لم تكن صالحة للأكلها بعد، ففُتت بذلك الأسر من المعوية بين السود كافة نوى أن يدروا أنها هي السبب فلما وصلوا تونس وتعذر

١- أير. ديكرا يحيى بن خلكو - مدينة الزواك في نكر للزواك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد العالجات، الجزائر، ١٩٨٠، ص ١١٩ - أير العباس أحمد بن أحمد الغبري، عنوان الدراسة فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بمجلة - ص ١٩٩ -

عليهم للمصروف على الأطعمة لرفض الشعب التونسي البيع لهم كما سبق القول اضطروا إلى الاستمرار في أكل هذه اللحوم العاسية في الوقت الذي اشتدت فيه حرارة شمال أفريقيا خلال شهري يوليو وأغسطس مع استمرار القتال وعدم تعودهم على قسوة مناخ تونس في فصل الصيف فاصيبوا أيضا بضررات الشمس مما أدى إلى تفاقم الأزمة. أما لماذا لم يصب شعب تونس بهذه الأمراض ، فهذا مرجعه إلى تعودهم على طبيعة بلادهم ومعرفةهم بالأمكان الحصينة التي تقدمهم من الحر وقت القتال بالإضافة إلى توافر الأطعمة الطازجة الصالحة للأكل وهم يحاربون على أرضهم وعدم اضطرابهم إلى أكل الأطعمة المحفوظة أو المشكوك في صلاحيتها ، « إن فالأمر ليس وباء بل هو أمراض معدية مثل التوستاتيا وضررات الشمس وهو ما أطلق عليه لفظ الحمى وما يدعم هذا القول أنه لو وجد بتونس وباء حقيقي لتناولته كافة المصادر بالتفصيل ، وما يدعم أيضا الرأي القاطع بظافة تونس من أي أمراض معدية هو ما أشيع من قبول لويس لبعض العناد والمؤن التي أرسلها المستعمر العفسي له بفرنسا قبل اندلاع الحملة وكانت على شكل هدية إليه ، فلو كان بها وباء لانتقل على الفور عن طريق هذه الإمدادات ، ولكن قبول لويس لهذه الهدية أن صبح التعجبور دلالة واضحة على نظافة وسلامة تونس من أي وباء أو أمراض معدية ^(١) ، وثمة سبب آخر يؤكد نظافة تونس من الأمراض المعدية هو أن تونس كانت مرتعا خصبا ينجح بالتجار المسيحيين من كل نواحي غرب أوروبا ، فلو كان بها شيء مثل هذا لوصل إلى مسامع قادة الحملة ، ولا يمكن أن تعد لوروا حلة بلجعبها تكون وجهتها بلدا تنتشر به الأوبئة والأمراض المعدية

ومهما يكن فقد كانت هذه الحالة المتدهورة بين صفوف الحملة سببا مباشرا في فشلها . فعلى الرغم من رجحان كفة الصليبيين على المسلمين أثناء المعارك المباشرة بينهما إلا أن الفرج لم يتمكنوا من الاستمرار في القتال واستهاز فرصة احتفاء المستعمر من الهدان بل /هبتكا في أمر مرضاهم خاصة عندما أصيب يوحنا الحزين ابن الملك لويس بفلس المرض ، ومات بقرطاجنة ونقل على سفينة خاصة إلى فرنسا لشفائه هناك . وقد تألم لويس كثيرا لموت امه ، وانهارت معنوياته إلى أبعد الحدود ^(٢) . كما مات أيضا المصور البابوي للحملة والكاتب

Nangis, Vie de Saint Louis , p. 448 .

-١-

Erodes, Op. cit., p. 458 , Michaud, Crois VI, p. 201 .

-٢-

انظر أيضا جوريث بسمي العبدان الصليبيين على بلاد الشام، ص ٣٢ ، موروند العرب والمسلمة ،

٢٥٥ ص ٢٥٥ .

دي ناسورس De Namours والكونت دي فاننوم De Vandenne والكونت دي مارشال، ودي مروجوا ، ودي بياتا وغيرهم من كبار السادة والأشراف في فرنسا^(١) وحاول لويس جاهدا أن يتماك نفسه أمام هذه الكوارث التي حلت به ويرجائه وأن يحفي نبأ وفاة ابنه عن أخيه شارل حتى لا يتشام أو يتراجع في مصالحة قومه ومساعدته^(٢).

وكان من سوء حظ الصليبيين أن أصيب لويس نفسه بالمرض وقد أحس بالألم يذب في جسده أثناء احتضار ولده وشعر بمكّم شديد في معدته وأسهال كما ارتفعت درجة حرارته وأحس يذو أجله فعمل إلى فراشه وهو يتعامل على نفسه من شدة الألم ولم يستسلم للمرض بل كان يتجول في معسكرات الجنود المتناثرة حول الميناء ويصدر الأوامر لهم كما كانت وقد اجتمع الأطباء حول لويس ، ونصحوه بالبقاء في فراشه، بعد استئذنى المرض في كل جسده، ولكن لم يكف عن جهاده في سبيل القضية التي كرس حياته من أجلها وحتى آخر أيامه وفي هذا الصدد يذكر جوفانفيل ، أنه الآن صدقت رؤيته التي رأىها قبل رحيل لويس إلى تونس من أن شرورا عظيمة سوف تحدث لويس والصلة ، وعلى الرغم من إجماع المصادر الغربية على إصابة لويس بنفس المرض الذي أصيب به جنده^(٣)، إلا أنه ثار خلاف بين المؤرخين العرب حول سبب وفاته ، يذكر ابن خلدون ، أن سبب وفاة لويس لم يكن المرض بل أنه أصبح ميتا حيا لأنه ، ويقال أنه أصابه سهم عرب^(٤)، في إحدى المعارك فتمتد^(٥) ويقول المقرئ ورن المستنصر دس إتيه سيقا مسعوما من سله أثر فيه سمه وقطعه رسولا إليه بعد أن جعل من الجواهر النفيسة ما لم ير مثله عند غيره وقال للرسل أن للفريسيس رجل كثير الطمع وأولا

Michaud , p. 204 , Cf. Also , Guizot, Op. cit. p. 173 .

١-

Nangis , Vie de Saint Louis , p. 457 , Eracles , p. 458 Jourville, Op. cit., p. 299

٢-

Anonymous, Gesta Sancti Ludovici regis , R.H.G.F t.XX., p. 56 , St pathus , Vie de Saint Louis , R.H.G.F t. XX p. 103 , Chartres , de Vita et actibus regis Francorum Ludovici , R. H. G. F , t. XX, pp. 37-39 , Eracle Op. cit., p. 459 , Cf. also Hassall , Op. cit., pp. 37-39 , Guizot, Op. cit., p. 138 , Archer and kingsford , p. 401 , Sejour , St. Louis pp. 155-157

٤- المقصود بسهم عرب أي ليعرف جهته ولا من لطفه .

٥- ابن خلدون - المعبر - ج ١ - ص ٣٩٢ .

ذلك ما عاهد به الله المسلمون بعد أسره وأنه سيرى السيف ويكثر النظر إليه فلما رأته فعل ذلك فشرعه من عتقك وقبيله، وقال له هذه هدية مني إليه، لأن من أتينا مع ملوكنا أن كل ما وقع نظر الملك عليه ويؤيد النظر إليه بالقصد فلان أن يكون له، ويحرم علينا أن نعتك ، لأن ما أحبه المولى يكون على العبيد حرام، وتكراره النظر إليه دليل على حبه له ، ففرح الصراي بذلك وأسرع الرسول العود إلى سلطانه فسل الصراي السيف فتتمكن السم في لويس فمات في الحب وفرج الله تعالى عن المسلمي^(١) . وقد أكد ابن أبي دينا هذه الرواية قائلا: «أن المستنصر أرسل إليه مع ابن جرام الألامى سيفاً مسموماً كان فيه مهلكة»^(٢) في حين يذكر ابن أبي ريمول «أن المسلمي تحالوا عليه وحاصروه حتى قتل بسهم منهم»^(٣) ، هذا في الوقت الذي وبرت فيه بعض الاشاعات من «أنه مات بمرض النوسنتاريا الذي تقشع بين جنونه وأن الله جعل مهلكة أرض الحلقه»^(٤).

ومهم كانت الأسباب ، فقد حاول لويس جاهدا ورغم المعاناة الشديدة من المرض أن يتقدم جيشه من الهلاك ، ولم يلبس من مقدم أحبيه ، ورغم شدة الألم كان يتعامل على نفسه، ويتفقد مرصاه ، وكان يشد من أزر الجميع بكلماته الطيبة وعجلة وصلته أخبار أكيدة بقرب دخول شارل كوت انجو ساحل تونس فاشتهج لويس كثيرا ذلك . ولكن صحته كانت في تدهور مستمر ، ولزم فراشه تماما ، ولم يعد قادرا على الخروج من حيثته وفي هذا الصدد يقول ولیم دي سان باترس^(٥) ، «لقد كان لويس يصنع أمامه الصليب المقدس ويرفع يديه إلى السماء

١- المقرئ : تلح الطليح ج٢ ، ص ٢٢١ .

٢- ابن أبي دينا : الخرس ، ص ١٣٦ ، محمد الناجي السعدي : الملائكة القتلى ، ص ٦٢

٣- ابن ريمول : نزهة العيون ج ١٢ ، ورقة ١٩٩ .

٤- ابن الفرات : تاريخ الدول ، ج ١١ ، لوحة ٢٧ ، الميريس عقد الجمان ، ج ٢ ، ق ٣ ، ورقة ٥٥٨ ، ابن الوردي : تلح المختصر ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ابن أبي رزم : الألبس المطرب ، ص ٢٧٨ ، المقرئ : السلوك ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٢ ، أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، أنظر أيضا :

Nangis, Vie de Philippe, pp. 470 - 471 , Matt of West , Op. cit., vol II, p. 540 , Michoud, Cross VI , p. 201

٥- هو أب الاعراف الذي جريت زوجة لويس التاسع وأيضا أب الاعتراف لابنتها بلانش ومارجريت في ابنه الكونت ديمون كوت برونشيس ، وقد تزوجها لويس عام ١٢٢٤ م ورافقه في حملته على مصر ويك الشاه

ويتحدث بصوت عال كئله يطلب المعونة والرحمة من الرب. وكانت جيوشه جميعها في صمت حزين . ولم تكن خير قنوم شارل يسعدهم قدر رغبته في شفاء لويس . وعندما يتيقن لويس من قدر أجله أستدعى ابنه الأكبر فيليب الثالث، ووجه إليه وصيته وتعاليمه الخاصة بالمعكم بقيادة صفوف الحملة في هذه المرحلة الحرجة وقد شملت تلك الوصية المعالم الواضحة الدقيقة التي سار عليها لويس سواء في حكم فرنسا أو في قيادته للحروب من أجل القضية الصليبية ومن أبرز هذه الوصايا أنه طالبه بتجنب اقتراف الذنوب مع التحلي بالصبر والاخلاص لله، والاستقامة والحلم مع الرعية وحسن الصبغة من رجال الدين والعلمانيين ، ولا يظلم أحدا ولا يقتاب أسانا وأن يكون عادلا مستقيما محافظا على الصلوات بأثره بوالديه ، صادقا في تمثيل الصليب من أيدي المسلمين، متعاونًا مع أي أمير مسيحي يطلب منه المساعدة^(١).

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما سبق أن اكتناه في مستهل هذه الدراسة من أن لويس التاسع قد تشبع بالروح الدينية إلى حد التزمّت وأصبحت القضية الصليبية هي القضية الأولى التي كرس حياته من أجلها وفي صيغتها قام بثلاث حملات كانت آخرها تلك الحملة الفاشلة ضد تونس .

وعلى أي الأحوال فبعد أن انتهى من وصاياه لابنه، اتجه لويس بالدماء للقديس نيريميسوس St. Des Nerts الذي اعتاد أن يستغيث به في أوقات الحرب والحمل وأخذ يطلب شفاعته وكانت كل دعواته للقديس أن يهني الله مسكره وينقذهم من هذه المعنة التي هم فيها ويقول جوامعيل « أنه كان يكثر الدعاء ويطلب الشفاعة من القديس نيريس ، وكان يردد أيها الرب هبنا القوة التي نستطيع بها ارتداء مقام الدنيا وتقبل كل مصيبة . كما طلب أيضا شفاعمة القديسة جنيفيف St. Jeanne وكان هذا من هاتين عندما نحل به الحزن والكوارث خضعة بعد أن أحس بقدر أجله.

= أما حملته الثالثة على تونس فلم ترافقه فيها بل بقيت في فرنسا وهي أم يوحنا الحزين الذي مات
 بريس أنظر St. Patris, Miroirs de St. Louis , XI-XXI , M.Ghauel , Croix., VI , p. 212
 ١- Jeanfille, Op cit., p. 300 , St. Patris , Vie de St. Louis , p. 103 , Chartres , de Vica et
 scribus regis Francorum Ludovici , R.H.G. F, t. XX, p. 39 , Anonymus , Gesta Sancti
 Ludovici nom , R. H. G. F, t. XX, p. 56.

بعد ذلك طلب لويس من المحيطين به أن يضعوه على فراش من الزماد ووضع يده على صدره على هيئة الصليب وذلك يوم الثلاثاء ٢٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٤ محرم ٦٦٩ هـ ثم اتجه ببصره إلى السماء ونظر هكذا حتى ظهر يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩ هـ وكان كلما تمكن من الكلام يقول : يا إلهي اجعلنا أن نمتنع المنع النبوية وألا يخاف ألبته من معصيات العالم وشهواته . أيها الرب كن مطهرا لشعبك بالقداسة وحافظا آيائه من الشرور ويقول جوتنيل أنه كان يريد أن يري قورشليم ، مستوجه إلى بيت المقدس ، يارب دعنا نعمل بيسمك على نشر المسيحية في تونس وكان يتفحص كل من حوله ممن يستطيع أن يقوم بهذه المهمة إلى أن وقع لختياره على أحد الرهبان المشرقي لهذا الغرض في تونس وحده بما يدور في نفسه بهذا الشأن^(١).

وهنا تتضح نوايا لويس، وهو يقترب من الموت ، في العمل على غزو بيت المقدس، وبشر المسيحية العربية بين المسلمين ، وفي الحقيقة لا يمكن الفصل بين هذين الأمرين ، باعتبار أنهما يشكلان جناحي الحركة الصليبية العسكرية والتبشيرية.

وفي المحطات الأخيرة من حياة لويس كان ينظر إلى كل من حوله بعنوية وأحياناً بيتسم إلى أن قال : أدخل إلى بيتك يارب واسجد في هيكلك قدسك وفي تمام الساعة التاسعة من مساء يوم الأربعاء ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩ هـ صعدت روحه إلى السماء . وينكر ناسجي أن لويس حمل بعد وفاته وبفن ياهدي ربوات قرطاجنة ، في حين يذكر أحد المؤرخين العديثي أن لويس نقل بعد ذلك إلى فرنسا وبفن هناك ، وفي عهد المشير أحمد باشا العيصي استطاع الفرنسيون الحصول على تصريح من الحكومة التونسية بإقامة كنيسة في المكان الذي مات فيه لويس وهذه الكنيسة لارالت موجودة ومعروفة بكنيسة القديس لويس ومكانها مجوار متحف الآثار القديمة الذي أنشأه الفرنسيون المعروفون بالآباء اليس^(٢).

١- Wiegler , Op. cit., p. 317 , Matt of West , Op. cit. p. 450 , Cf also Trazon , Op. cit., pp. 34 - 35 , Archer and Kingsford , p. 401 , Hamall , Op. cit., p. 38 , Guizot , p. 138 , Segor , Saint Louis, pp. pp. 155-157

٢- أنظر Vanges, Vie de Saint Louis, p. 461

وأيضاً أبي أبي بنات : لأوسه ص ١٢٦ ، محمد الصبيح : ابن التاريخ ص ٢١٦ .

وعلى الرغم من اتفاق غالبية المصادر الأجنبية على أن وفاته كانت يوم ٢٥ أغسطس إلا أنه ثار الخلاف بين المؤرخين المسلمين بخصوص هذا اليوم فيذكر ابن أبي دينار^١ أن وفاته كانت يوم ١٠ محرم ٦٦٩هـ / ٢٠ أغسطس ١٢٧٠م ، في حين يذكر المسعودي أن وفاته كانت في ١٠ محرم ٦٦٨هـ / ١٠ أكتوبر ١٢٦٩م ، أما الكتني فقد ذكر تاريخ الوفاة عام ٦٦١هـ / ١٢٦٢م على اعتبار أنه لورد تاريخ الحملة كله تحت أحداث عام ٦٦١هـ ، وسار على نهجه المقرئ^٢ ، أما أبو الفدا فقد لورد الوفاة عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م دون تحديد لليوم أو الشهر ، وأبوه في روايته ابن الوردي^٣ ، في حين ذهب ابن أبي زرع إلى تسجيل تاريخ منفرد عن وفاته مبينا أن ذلك كان في ٢٥ ربيع آخر ٦٦٩هـ ١٢ ديسمبر ١٢٧٠م^٤.

وعلى أي الأحوال فمن المعروف من رواية شهيد العيان لهذه الحملة^٥ ، وعلى رأسهم وإيم دي تامجي أن وفاته كانت بعد نشوب أول المعارك المباشرة مع المسلمين والصليبيين أي بعد ٤ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ ذي الحجة ٦٦٨هـ وأنه حين مرض ابنه يوحنا ومات ذكر هذا المؤرخ أن لويس أصيب بنفس المرض الذي لم يمهله أكثر من أسبوعين ومات به ، أما رواية ابن أبي زرع فهي بعيدة عن الواقع لأنه إذا كان قد أصيب بالمرض في محرم فمن غير المعقول أن يطول به مرض طوال أربعة شهور أي إلى ربيع آخر لأن هذا المرض الذي أصابهم من اسهال وحس كان يهلك بمرضاه بسرعة ، خاصة وأنه لم تكن قد توافرت بعد سبل العلاج السريعة لانقاذ لويس أو هيريه من المرض أضاف إلى هذا ، عدم تأييد أي من المؤرخين المسلمين والمسيحيين لرواية ابن أبي زرع مما يؤكد عدم صحة هذا التاريخ حول وفاة لويس.

هذا ويرى العديد من المؤرخين الحديثين ممن اهتموا بتاريخ الحركة الصليبية على وجه العموم ، ونور فرسا فيها بوجه خاص ، أنه بوفاة لويس التاسع تلاشى الأمل الأخير الذي كانت تتعلق به مملكة اللاتين في الشرق فكان ينظر إلى ملوك فرنسا على أنهم المدافعون

١ - ابن أبي دينار، الفوس، ص ١٢٨ ، المسعودي ، الخلاصة النقية، ص ٦٢ ، الكتني ، فوات الوفيات ، ص ٨٥ ، المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٠ ، ص ٥٠٢ ، الخط ، ج ١ ، ص ٢٢٢ ، أبو الفدا ، المختصر ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، أبو المناس ، التلذذ ، ج ٢ ، ورقة ٢٥٩ ، العيني ، مقد البنان ، ج ٢ ، ورقة ٥٥٨ ، وأيسا محمد السبيح : له التاريخ ، ص ٢١٦

٢ - ابن أبي زرع ، الاتيس للعرب ، ص ٢٧٨ .

العائدين من مصالح بيت المقدس^(١)، فيعد ولاءه مباشرة لضعف الحماس الذي كان واضحاً في نفوس الجنود وأور إلى حزن . وعلى الرغم من لحسانهم باضطراب الجيوش التنوسية في مواجهتهم بسهولة أحرار عسكري ضدهم إلا أن الأمور قد احدثت وكان العبء ثقيلاً في إخراجهم من هذه الحلة .

ذلك أنه عند أن تولى فيليب الثالث ابن لويس التاسع ووريثه على العرش^(٢)، قيادة الحملة لم يكن يشغله شيئاً قدر العمل على إيقاف المرض عند حد . لذا أظهر براعة في احتواء الموقف وعقد اجتماعاً حضره كافة الأمراء والمارونات كان أشبه بمظاهرة سياسية ، وقد استعرض فيه خطته القادمة بشأن الأوضاع الراهنة لقواته، ولم يعارض المجتمعون خطته الأمر الذي مكّنه من التصرف في الموقف دون وجود ما يشغله أو يشبه عن عزمه ، حقيقة لقد تركت وفاة لويس فراغاً بين القيادة ولكن هذا لم يؤثر على نجاح سياسة ابنه فيليب دولم بهم عنه اضطراب بين صفوف الهند^(٣).

ويقول نانجي «أن المسلم لم يستفيدوا من موت لويس وشملت هركتهم عن الإغارة على جيوشنا ولم نفلح معهم بأي دمار أو خراب يحمل بين صفوفنا»^(٤)، ويستطرد قائلاً «أنه أمر غريب أن يلق المسلمون بعد هذا الحد بينما كل الظروف في صالحهم . فقائد الحملة وأشد المتعصبين ضد المسلمين قد مات . والأمراض تفكك جيشنا والحرارة لايطبقها جنونا ولاطعمة قليلة، بل ما وجد منها فاسد لايطبق أحد على أكله، فلماذا أعمل المسلمون كل هذا، ونقاصو وهم يظنون إيماناً نوى القيام بأي خطوة ايجابية لصالح بلادهم؟»^(٥).

Archer and Kingsford , Op. cit., p. 403 .

-١-

٢- لقد تار جنل بين المؤرخين المسلمين حول شخصية فيليب فيليب ابن هنري أنه بعد وفاة لويس تولى الحكم ابنه الذي كان قد ولد بدمياط وقد أشربا من قبل أن الذي ولد هناك ليس فيليب بل يوحنا الحبيب الذي تولى أثناء الصلة على تونس، كما أطلق لقب الهاردي وفاردي أي المسور على فيليب نزلوا لانتقامه وشجاعته في تحمل المسؤولية بعد وفاة أبيه . أنظر اس كلون العبر ، ج ٦ ، ص ٢٩٦ ، محمد الباجي المسعودي الملاحمة النقية، ص ٧٢

Nangas, Vie de Philippe, p. 469 .

-٣-

Journville, Op. cit., p. 299 . St Phthas, Op. cit., p. 103 , Anonymous, Op. cit., p. 57

-٤-

Nangas , Vie de Philippe, p. 471

-٥-

ومن هذا العرض التفصيلي لأحوال الحيلة وما آلت إليه لايسعنا إلا اتهام المستنصر بانتقاص وعدم الحنكة بل والغرض في كل خطواته، خاصة وأن العدو التقليدي له وهو شارل كورت أنجو كان لايرال بعيدا عن الأراضي التونسية، والفرصة ذهبية أمامه فهي فصول هذه الساعات القليلة ما بين وفاة لويس ووصول شارل كان يوسعه القيام بعمل عسكري ناجح يصلح ضرورته أمام حكم المسلمين والمؤرخين المعاصرين له، والتفسير الوحيد لموقفه أن هرب من تونس ورحل بعيدا عن قرطاجنة، وأصم أذنيه تماما عن كل التنازلات التي وجهت إليه وربما لم يصل إلى مسامحة وفاة القائد الصليبي نفسه، فلم تستشف من المصادر عربية وغير عربية ما يليق علمه بوفاة لويس التاسع

هذا في الوقت الذي كان فيه يبرز في أوج استعداده العسكري للقيام بنفسه إلى تونس إن لاحتاج الأمر^(١)، ولكن اسعدته كثيرا الأنباء التي أكدت انهيار معنويات الجيش الصليبي، وأراحه أكثر نبأ وفاة لويس^(٢) وكان يتوقع من المستنصر القيام بعمل حاسم مستغلا هذه الظروف^(٣)، وشمة لعد الأراء الذي رجح أن عدم قيام المستنصر بعمل عسكري ضد الصليبيين لمساسه أن متاح بلانده قام نيابة عنه بما كان يريد القيام به، بمعنى أن حرارة توس في شهر أغسطس قد أدت على الجيش الصليبي فرأى أنه لا داعي لاستنزاف دماء التونسيين من أجل قضية رابحة مائة بالمائة^(٤)، ولكن هل كان المستنصر يمثل هذه لصناعة؟ وهل من المعقول أن البلاد تعتمد فقط على مناحها وتضاريسها في الدفاع عن أراضيها؟ وهل لم يصل إلى مسامحة قرب وصول شارل إلى تونس لينقذ جيش أخيه من الهلاك؟ ما التأكيد هذا سبب واهي ضعيف لا يصلح للدفاع عن المستنصر ذلك أنه كان مدركا لكل ما يفعله، فلم يتحيف بالتهور أو الدعوى مع أعدائه بل كان داهية والأمر كان معدا له تماما وهو عدم التدخل في

١- محمد الباجي السعدي، القلاعة النقية، ص ٦٦

٢ أبو الحسن المول السلي، ج ٢، ورقة ٢٥٩، الكتب مرآت الزليبات، ج ١، ص ٨١-٨٠

Gestes des Cheues, pp. 198-199, Eracles, Op. cit., p. 460, Anonymous, Gestes et Sonets Ludovici non, R. H. O. F., t. xx, p. 56, Chartres, Op. cit. p. 39.

Bonifacio, Vita Ludovici non, R. H. O. F., t. XX, p. 23, St. Patrus, Vie de Saint-Louis R. H. O. F., t. XX, p. 103

نصار حارب قد تلقى عليه، وتصور أن خرايا قرطاجنة، ستعقر الصليبيون منها وتجعل فرصة الخلاص منهم أمر سهل وحاول جاهدا الوصول إلى حل الأزمة عن طريق مسلمي وليكن الصلح وتجنب كافة التنازلات سواء رضى شعب تونس أو رفض، لما فى ذلك من حفاظ على عرشه أمام خصومه بالغرب،

وبناء على ما تقدم فقد استفاد فليب من هذه الأوضاع وعي على حصار قرطاجنة قادة جدد بعد وفاة عدد كبير من القادة الذين سبق أن عيهم لويس، وسلم أمر حراسة القلعة إلى المارشال شارجيبيير Chorgimor وقد تميز بالثقة والعصاة في أي عمل يوكل إليه، فقد كان أحد حراس القلعة من قبل، وكان هذا قول عمل قيادي يكلف به دون أن يشاركه فيه أحد من القادة الصليبيين الآخرين، إذا أصدر لأمره بزيادة تسليح الجنود المحاصرين للقلعة من ناحية البحر خاصة عندما علم بتفكير خطط التوسيع في الدفاع وعمل شارجيبيير على إحكام كل المنافذ للربط للقلعة والتي يمكن أن تتعد إليها القوى التونسية، كما عين فليب مجموعة كبيرة من القادة البحريين وأوكل إليهم مهمة حماية ساحل المدينة والميناء وضرورة الاستعداد التام لمواجهة أي هجوم جديد من قبل المسلمين.

واشترك فليب مع عدد كبير من قاداته في وضع خطة محكمة مفادها الاستيلاء على أي سفينة تصل إلى البحر تحمل المؤن والأمتعة للمسلمين بتونس، وقد أسيط بهذه المهمة عند من البحارة المهرة^(١) حيث تشير المصادر العربية المعاصرة أن تونس قد مرّت بمحنة شديدة لبقائها لله منها بمعجزة^(٢)، وذلك لأن الفرنج جهوا بالفعل في قطع سبل الاتصال مع تونس دون أن يشعر بهم التونسيون المحاصرون لمسكراتهم ولجأوا إلى المفاجأة والحين البحرية الباردة لتحقيق أهدافهم، وما زاد الطين بلة أنه انتشرت الأخبار في تونس تعلن عن قرب وصول شارل عم فليب، مما أوقع الرعب في قلب المستعصر والتوسيع، ويذكر ماجي أنه في نفس اليوم الذي تمت فيه الهدنة لفليب شوهد عرش البحر وقد حطته أعدادا كبيرة من

Nageis, Vie de Philippe, pp. 472-473.

-١-

٢ أبو الفدا، المختصر، ج٢، ص١٦٦، ابن الأثيرات تاريخ الدول، ج١٦، لوحة ٢٧، المقربين السلوك، ج١، ق٢، ص٦٥٢، ابن الوردي، تلخيص المختصر، ج١٦، ص٢٦٩، ابن رسول، أزمة العبيد، ج١٦، ورقة ١٩٩، محمد المايجي السعوي، الفلامنة الفتنة، ص٦٢، أبو الحسن، الملوك المسلمين، ج٢، ورقة ١٣٦.

السلطان القادمة بلغصوات أبنائ الحرب وطبواها تعلن وصول شارل كوت، أنجو العدو والعدو المستعمر وذلك حتى يثأر أخاه في تلك الظروف الصعبة من تاريخ الحملة ولم يكن قد وصل إلى مسامحة نيا وفاة لويس^(١)، وقد تحدثت هذه الأنباء قللاً كبيراً في الأجواء التونسية بسبب العداء الشخصي القديم بين المستعمر وشارل بشأن قطع المستعمر البحرية التي كان يدعمها لأسرة هوهنشتاوفن من قبل واحتفائه لمصوم شارل، بالوصاية إلى ادراكه لظلم شارل التي انتهت في الشمال الأمريكي، كل هذا وشجع البلاد في ملزق حطير على الرغم من أن تونس لم يكن ينقصها الاستعداد العسكري للقاء العدو واستكمال معبرة، الكفاح لحماية البلاد من خطر شارل بصفة خاصة والصليبيين بصفة عامة.

ويسوف تثبت التطور القادمة عقم سياسة المستعمر في معالجة الأمور التي ستؤول في نهاية الأمر إلى خلاص تونس من براثن الحملة لا الكفاح حتى النهاية ولكن بصلح مخرى هي حق تونس خاصة وبلاد المغرب بصفة عامة.

Chartres , De Vita et actis his p. 37 , Anonymous , Gesta Sanj Ludovici 1200 ١
 R.H.G.F. , p. 56 , St. Patrick , Vie de Saint Louis , p. 103 , Beaudien , vita Ludovici noni ,
 R.H.G.F. , t. xx , p. 24 , Eracles , Op. cit. p. 499 , Wiegler , infidel Emperor , p. 317 Malt of
 West , vol II , p. 453 , Renard , Hist. des Illes Arabes , p. 522

الفصل الخامس

نهاية الحملة الصليبية على تونس (٢١ نوفمبر ١٢٧٠م / ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ)

الفرنجة يستقنون للقائال بقيادة شارل كوث كنج (٥
سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ) - وصول حملة
الأمير لوارد إلى تونس (سبتمبر ١٢٧٠م / محرم - صفر
٦٦٩هـ) - تراجع موزان القروى بين المسلمين والصليبيين
ورجوعان كافة للتونسيين في القهاة- الصلح بين المسلمين
والصليبيين- وصول رحيل القوات الصليبية من تونس-
رحيل الأمير لوارد إلى بلاد الشام- ما بعد الحملة

لقد تركت وفاة لويس التاسع أثرا بالغ العظيمة على مصير الجيش الصليبي داخل تونس،
وتسبب واجبا على ابنه فيليب أن يواجه التحديات والمسؤوليات الجسام التي واجهته . خاصة
بعد أن انفضى المعسكر الإسلامي وزاد لصرار المسلمين على تحليس تونس من براثن العدو
حقيقة أن فيليب لم يجد مشعرا من الوقت لموضى شعار معارك حاسمة ضد المسلمين ولكن هذا
لم يكن يعنى استمرار الوضع على ما هو عليه فيما يتعلق بالمفاوضات الباردة . فقد احدثت أعباء
وصول شارل ملك صقلية وكوث أسير إلى تونس شجة ضخمة وكانت بمثابة الأمر الذي حسم
كل هذه الأحداث ورغم أن وصوله جاء متأخرا إلا أنه كان الحلم الذي عاش من أجله لويس
والصليبيين .

وكان وصول شارل يوم الاثنين الموافق ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٦ محرم ٦٦٩هـ ، في
مظاهرة بحرية ضخمة خرجت على أثرها جموع كبيرة من السفن لاستقباله والاحتفاء به نظرا
لمكانته بين رعاياه بول غرب أوروبا^(١) وفي هذا الصدد يصف وتيم دي نابجي لحظة وصول
شارل قائلا : أن المسيحيين عندما شاهدوا عرس البحر وقد غطته سفن شارل ارتفعت فجأة

Nangis, Vie de Saint Louis , p. 471 .

صرخاتها من الفرح وارتاح المسلمون لهذا المنظر ثم تقدم شارل في جمع ضحى من رجاله ونزل من سفينة على رصيف ميناء قرطاجنة القديم وكان الميناء لا يزال بلبنيها ، وعند اللحظات الأولى التي وصلت فيها أقدام شارل أرض المدينة ساوره الشك والتلق حول مصير أخيه وجيشه ، فقد كان الميناء خالياً من مظاهر الاستعداد العسكري، والسفن مهلهلة ، فأسرع إلى خيمة أخيه لويس فوجده لا يزال معاً على الأرض فوق كومة من الرماد . فالتقى بنفسه على قدمي أخيه يقلب وهو يبكي بحرقة بالغة كلها بدم على عدم مواجاة أخيه ومساعدته في وقت كان في أمس الحاجة إليه وكان شارل يخاطبه كقته حياً «مسمياً إياه سيده وأخاه»^(١)

وعلى هذا ، فقد كان وصول شارل في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الحملة ^(٢) أمراً له أهمية مما جعله يشعر بالمسؤولية الجسيمة التي ألقيت على كاهله ، خاصة عندما شاهد بريق الأمل في عيون الجنود وابتهاجم لحضوره ^(٣).

وعلى الرغم من ذلك، لو تتبعنا الإشارات السابقة عن شارل وكيف أنه أعمل بدء أخيه سراة مبنية وكيف أنه لم يفكر إلا في مصلحته الدائمية، لأمكننا أن نستنتج أنه لم يكن الشخصية التي يمكن أن تتحمل كل هذا العبء ، فقد كانت بقايا القوات الصليبية بمثابة التركة المظلة بالأعباء والهجوم، وأدرك بحاسته السياسية صعوبة أحرار كسب سريع على حساب المسلمين وجيوش أخيه على هذه الحالة من السوء - حقيقة أنه كان يعلم في تائب صاحب تونس والامتبلاء على ممتلكاته ، ولكن دون تقديم تضحيات كبيرة أو مواجهة هذا الموقف العصيب فمن المعروف أن معاده القديم مع التوسيين مدد ثوابته عرش صقلية وامتاعهم عن ثأرية الجيرة التي كانوا يدفعونها لأل هوعشتاوف . كانت آثاره لا تزال ماثلة في أدهار شارل وتنتي أن يجمعهم ويجبرهم على إعادة دفع تلك الجيرة إلى حريته ، هذا بالإضافة إلى آماله العريضة في الاستحواذ على شواطئهم التي كانت تعد مرتعاً خصباً للشباط البحري والتجاري المفقود. أضف إلى ما تقدم رغبة شارل في قمع النجار التونسيين الذين كانوا يشكلون خطراً اقتصادياً مباشراً على مصالحه في جنوب إيطاليا وصقلية فلما وصل شارل إلى تونس وجد أن الأمور لتفسير كما كان يتعنى ، بل وجد صعوبة إسلامية

Wiegler, *Infidel Emperor*, p. 317.

-١-

Nongis, *Œuvre de Philippe*, p. 473.

-٢-

Min. of West., vol., II, p. 450. Cf. also, Muehnd., *Op. cit.*, p. 210. Tension ,

Op. cit., p. 35, Bailly, *Op. cit.*, p. 308

كبرى تحتاج البلاد للخلاص منه ومن يقاها جيوش لويس المنهكة كما وجد معسكر أخيه مليئا بالجنث المتعصبة، والقليل الباقي منها في انتظار الموت بعد أن أقعده المرض عن الحركة - لكل هذا كان شعوره بالخوف والتلقى أكثر من الحزن والألم على وفاة أخيه وأكبر من آماله العريضة في إعادة فرض سيطرته على توس^(٦)، فقد كان شارل يعتبر أخاه بمثابة اللهم له في خطواته العسكرية الأمر الذي أدى إلى تمسكه وارتجائه في ترتيب جيوشه في الساعات الأولى من وصوله بعد أن أدرك أنه لامناس من القتال .

هذا بالإضافة إلى أنه واجه صعوبات نفسية عديدة تمثلت في الاتهام الذي بدا واضحا في عيني ابن أخيه فيليب الثالث - وقد حاول شارل جاهدا أن يحدو عن نفسه ما نسب إليه من تقاعس وتراخ عن انتقاد جيش أخيه وتعال بين السبب في عدم مجيئه وجره مشاكل خطيرة تتعلق بأمن ومصلحة بلاده^(٧) . ولكن ما سعه في حقيقة الأمر هو إشغاله بتوسيع ممتلكاته على حساب بيزنطة وإثارة الأمراء البيزنطيين ميخائيل بليلوجيوس، وإدخال العرب في قلبه ، هذا إلى جانب ما يتميز به من دهاء وخفي ، في عدم استعداده لتقييم أي نصيحة من قبله للحصول على مكاسب سياسية في توس معتمدا في ذلك على القوى الصليبية التي أتت مع أخيه^(٨) .

وعلى الرغم من أن فيليب كان مفركا تماما لموايا همه، إلا أنه لم يكن يوسع عمله شي سوى التعاون معه من أجل وضع خطة عسكرية ناجحة تخرجهم من المارق الذي هم فيه .

وكانت أولى الخطوات التي قام بها شارل هي عقد اجتماع عسكري موسع حضره القادة والنبلاء الفرنج استعرض فيه خطورة الموقف وأصرار المسلمين على القتال الأمر الذي يتطلب ضرورة التصدي لهم . وفي نفس الوقت وصلت أخبار أكيدة بقرب قدوم الأمير إدوارد ولي عهد إنجلترا بقوته للمساعدة في احتلال توس وقد أنشروا من قبل أن وجّه إدوارد الأساسية

Nangis, Vie de Philippe, p. 463 .

-١-

انظر أيضاً : غير المعلن : السيرة الزاهرة - ج ٧ - ص ١١٧-١١٨

Nangis, Vie de Philippe, p. 463 - Mail of West , vol II, p. 450

-٢-

Reinaud , Op. cit., p. 517 .

-٣-

كبرت بلاد الشام، ففي هذا الصدد يقول متى لوف وستمنستر «أنه لما رحل لويس إلى تونس بقواته الكبيرة، عزّم الأمير ادوارد على حمل الصليب ومساعدته ولكن على أن تكون وجهته عكا، ونظرا لظروف عديدة قرر الأمير ادوارد الرحيل أولا إلى تونس عندما وصلته أخبار أكيدة بموت لويس واستعداد الملك شارل في الرحيل إليها فتوجه ادوارد إلى هناك على أمل احراز النصر وتحقيق مكاسب عسكرية يسببها إلى نفسه وإلى بلاده.

أما عن الظروف التي حدثت لادوارد فترجع إلى تقاعس النبلاء الذين سبق وأن وافقوا على مرافقته في حملته فقد اعتزوا هجأة الواحد تلو الآخر عن المشاركة فيها مما اضطر ادوارد إلى الرحيل مع عدد قليل من رجاله لم يتجاوز ألف رجل. وقد صحبت في حملته زوجته الياور القشتالية ثم تبعه أخاه انمويد دوق لانكستر ومعه جيش بقيادة دوق بريثاني وفرقة أخرى من جنود الأراضي الواطئة بقيادة نيدالو رئيس أساقفة لينج^(١).

وعلى هذا فقد كان تغير خطة ادوارد وقراره بالرحيل إلى الشمال الأفريقي ليس حبا في لويس التاسع بل لاعتقائهم الفرصة على أمل الحصول على مكاسب سهلة هي ثمرة الجهد الذي بذله لويس هناك بالإضافة إلى أن حالة وتعداد جيوشه بعد تقاعس امرائه كانت لا تزال له فرصة الرحيل إلى بلاد الشام، وقد اختلفت المصادر الأجنبية حول تاريخ وصول ادوارد إلى تونس، فثمة آراء ذكرت أن رحيله في أوائل صيف عام ١٢٧١م / ذي الحجة ٦٦٩هـ، وهذا خطأ لأنه من المعروف أن وصول شارل إلى تونس كان يوم وفاة لويس أي يوم ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩هـ، وأن ادوارد لعق به بعد فترة قصيرة جدا وهذا يعني أنه وصل بالتحديد قبل بدء أولى المعارك المباشرة بين شارل والمسلمين، أي قبل يوم ٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ بضاف إلى هذا إجماع عدد من المصادر الإسلامية على أن عمر الحملة داخل تونس لم يتجاوز أربعة أشهر. وعلى هذا فالتحديد الرسمي لوصول ادوارد بأنه في صيف ١٢٧١م / ٦٦٩هـ بعيد عن الحقيقة

1- Mait of West., Op. cit., vol II P 450 Cf also Gestes des Chepreux, P 460-461.
Rohricht, La Croisade du Prince Edward, t. II p. 620

لنظر أيضا للكتبي، مبرور التاريخ، ج ٢، لوحة ٢٤٦، وكذلك سعيد عاشور، المعركة الصليبية، ج ٢،

وعلى أي حال ، فقد ارتاع ادوارد الحالة التي وصلت إليها الحملة على تونس وتغذرت آماله في نسب أي لتحصار عسكري إلى نفسه رغم موت لويس القائد الأوحى لهذه الحملة. هذا بالإضافة إلى الحالة المتردية التي كانت عليها قوت لويس ورقية شارل في التنس على أمور الحملة وحده . ورغم هذا فقد أبدى ادوارد قبرا من الحماسة العسكرية داخل قرطاجنة ولكنه فوجئ بالمحققة القاسية التي صارحه بها شارل حيث أعلن له لصرار المسلمين على التضحية بكل شئ وقال في سبيل الفلاس من جيوش الصليبيين، وأن القتال سيكون بمثابة قصة آليمة أن تنتهي بالخير على الصليبيين، وهم على هذه الحالة اليائسة^(١).

ولكن أمام هذه الظروف لم يكن يوسع القائدين ادوارد وشارل النراجع والانسحاب لا في ذلك من مذلة وامتهان لشخصيهما ولدينهما، في الوقت الذي صمم فيه شارل على عدم التحرش بالمسلمين أو الاشتباك السريع معهم، بل عمل على تنظيم صفوفه ونقل المرضى المصابين بعيدا من معسكرات الجند القادرين على حمل السلاح حتى يضمن عدم انتشار عدوى المرض بين جنوده الأصحاء أيضا. وعمل على إثارة حمية الجند للانتقام من المسلمين وعدم التراجع بعدما شاهد تنظيم المسلمين لصفوفهم وتغيير استراتيجيتهم وذلك بالاستفادة قدر المستطاع من المناطق الجبلية المرتفعة في تونس لتطويق المعسكرات الصليبية من أعلى هذا بالإضافة إلى تعزيز قواتهم من المشاة والفرسان الذين أحاطوا بمعسكرات الصليبيين وأصبح الفريقان يواجهان بعضهما وغدا الصرد الذين بالجبال بمثابة ستار وق لهم وقت القتال. وكان المسلمون يشجرون بهراة بالقرب من خيام الصليبيين. وقد حاولوا استنزاهم والتحرش بهم وكانت هذه هي السمة الجديدة التي اتسم بها الجيش الإسلامي بعد حالة التقاعس التي لازمتها في بدايات الحملة إلى أن اندلعت الاشتباكات الدامية بين الطرفين وكان الطرف الصليبي بقيادة شارل نفسه . وفي هذا الصدد يشير نامحي أن المعارك حين بدأت انتع المسلمون معاً بطريقة الكر والفر^(٢)، وقد فوجئنا بوجود عدد ضخم منهم وقد غطوا

Mott. Of West., vol II, p. 450. Röhricht, Op. cit., pp. 620. Cf also Richard, Op. cit., vol II, pp. 397-398.

Nangis, Vie de Philippe, p. 470. Chartres De Vie et actibus, p. 37, Mott. of West., v Op. cit vol II, p. 452, Anonymous, Gesta Sancti, R. B. G.F. t. XC, p. 57.

الأرض المحيطة بمعسكراتنا وسدوا كل المنافذ التي تصل بين حيائنا وانتشروا متحرشين بنا، وكانت لديهم قدرة فريدة على مواجهتنا^(١).

وقد كان رد الفعل الصليبي أن اصعد شارل يوم الخميس ٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ لأوامره بالاستعداد لمعركة حاسمة وطويلة مع المسلمين وتقدم عدد ضخم من الجنود التابعين لشارل واصطفوا بحماسة بالغة لدرجة أن عددا من القادة المرفس اصبروا على مصاحبة شارل في قتاله، ولكنه ابدهم واقتصر الأمر على كل القاديين صعبا على حمل السلاح، يذكر نابجى أنه حين رأى المسلمون ذلك اضطرت صفوفهم فجأة . وكان ذلك راجعا إلى تصوريهم بأن الصليبيين لن تقم لهم قائمة بعد موت لويس ولم يضعوا في الحسبان هذه النماء لجديدة التي أضاعها كل من الملك شارل الانجوى والأمير انوارد الإنجليزي على صفوف الجيش الصليبي، فكان الأمر بالسمية للصليبيين، يعني عودة الروح من جديد بين صفوفهم، في وقت تآرجحت فيه سياسة توس وشكل خطير تجاه العملة وعم رجمان كلفة ارتنسيين، فعلى الرغم من رجمان كفتهم في بداية هذه المناوشات إلا أنه فجأة كانت تحدث اضطرابات وتراجع في خططهم ، ويرجع ذلك إلى السياسة الملتوية العميقة التي كان يتبعها صاحب توس بين الحق والآخر والتي لم ترضع بجلاء ما يريده من شعبه أو عدوه ونتيجة هذا احتلت الموازين ، ورغم أنهم ظهروا بمظهر المهاجم ضد الصليبيين في بداية الأمر إلا أنه تغيرت سياستهم وتقاصروا عن التصدي للصليبي

وجول أول صدام مسلح بين الطرفين يصف نابجى أحداثه قائلا : لقد رجحت كلفة المسيحيين وتحلت جرأة وشجاعة شارل في احتواء الموقف وتجنب مزيد من الهلاك على أيدي المسلمين، كما حرص على الاستفادة من تغير خططهم وعدم التيسر على وتيرة واحدة ، خاصة وأن الهجمات قد انتشرت في جهات متفرقة، وقد تساقط في هذا الصدام عدد كبير من القتلى بين الطرفين ، واستعملوا فيها كافة أنواع الأسلحة ، ولم تكن المعركة برية فقط، بل امتدت إلى البحر أيضا، واكتظ مياء قرطاجنة بقطع من السفن الحربية التي استقدمها معه الملك شارل وقد بلغ من شراسة المعركة أن اكتظت الحقول والشوارع والمناطق المهجورة بجثث القتلى، فهد فر بعض المسلمين بعيدا عن ساحة القتال، ولكن شارل أصبر على تبنيهم ومعه اثنين من كبار

البلاء وقد جمعوا على التكنيل بهم ويقول نانجي «أن شارل توغل ومعه النبلاء في مناطق مجاورة وقد خشي عليه النبلاء من سوء العاقبة ، وتصحوه بالعودة إلى مقره خوفاً من كمين يكون قد أعده المسلمون لهم ورأى شارل ضرورة العودة ، بعد أن قتل في هذه المعركة الشرسة الطويلة ما يقرب من ثلاثة آلاف جندي مسلم في البر والبحر ، بالإضافة إلى عدد آخر قتل في الحواجز التي أقاموها المسلمون بين معسكراتهم ومعسكرات الصليبيين»^(١).

ويتضح من الرواية السابقة المبالة في تصوير انتشار الفرنج على المسلمي إذ لا يخل أن تكون هذه أمكانياتهم البشرية والعنوية وقتلون هذا العدد الضخم من المسلمي، خاصة وأن المواقع لم تكن مرتبطة بعضها ببعض بل امتشحت المواقع الإسلامية فوق أماكن متباعدة في قرطاجنة إذ يؤكد نانجي «أن معسكرات المسلمي كانت أشبه بطرق حديدية يحيط بها ، وكانت المسافة بين كل معسكر والآخر تزيد عن أربعة أميال بالإضافة إلى اعتلائهم الجبال ليكونوا خطاً للمعسكرات الموجودة على الأرض»^(٢)، فكيف يمكن رغم كل هذا ورغم انهيار المعويات وتساقل الخانات منهم سرعي الفرض أن يقتلوا هذا العدد الهائل من المسلمي ، حتى لو ارتجل المسلمون في وسائل دفاعهم أو تقاعسوا أثناء القتال، فالقاييس السياسية والعسكرية للصليبيين آنذاك لا تلح لهم الفرصة للفك بالجيش الإسلامي بهذه الصورة

وعلى العموم ، فقد كانت هذه هي صفة بعض المؤرخي المسيحيين ممن كتبوا عن تاريخ الحركة الصليبية وهي المبالة والتخمين لبني جلدتهم وتهويل انتصاراتهم ، ومع هذا ورغم تفرج كلتي المبران بين الطرفين صحوداً وهبوطاً هناك إلا أن المسلمي لم يستبد بهم اليأس بل أعادوا تنظيم خططهم العسكرية على أساس تكريس كل الجهد لحماية مدينة تونس نفسها لأنهم توقعوا أن أمال شارل وطموحاته لا تنحصر في قرطاجنة الخربة المهتمة فحسب، بل تتعداها إلى تونس ذاتها ، لذا فقد أحكم الحصار حول المدينة برا وبحرا في الوقت الذي لم تعمس للمسلمين عني عن معسكرات العدو الموجودة بقرطاجنة والتي لمجد الصليبيين منها

Nangis, Vie de Philippe, pp. 471-473 .

-١-

Nangis Vie de Philippe , p. 473 , Chartres , Op. cit., p. 36 , Anonyme , Gesta

Sancti , p. 56

مركزا لعملياتهم العسكرية . وقد أظهر التونسيون في جولة أخرى من صراعهم مع شارل براعة فائقة في نشر مسلمهم على امتداد السواحل المحيطة بقرطاجنة ، في الوقت الذي اعتمدوا فيه على المناطق المرتفعة التي أصبحت بمثابة معسكرات دائمة لهم، حيث كان بوسعهم سرعة اكتشاف التحركات الصليبية من أي جانب . ولم يظن الصليبيون لهذا الأمر واقتصرت تحصيناتهم على ما بأيديهم من الأجزاء التي احتلتها قواتهم في بداية وصول الحملة، وأبرك الصليبيون خطورة الموقف، وأن المسلمين أطلقوا عليهم مثل فكي الكباشنة التي أوشكت أن تطبق على صفوفهم .

وبناء على ذلك عقد شارل مجلسا عسكريا طارئا تشاور فيه مع القادة حول كيفية التوصل إلى طريقة تمكنهم من خرق هذا الحزام المحكم الذي فرضه التونسيون حولهم ، وأوضح خطورة الموقف على الساحل ، وأبدى مخاوفه من أن يعجز المسلمون عن البحر على القلعة التي كانت لا تزال في قبضتهم ويستعينونها . ولكن أحد الفرسان طمأنه قائلا «سيدي إن القلعة منيعة ومحصنة بالعديد من الأسلحة وكل من بداخلها على أهبة الاستعداد للدفاع عنها، بل أنهم كانوا متفانين جدا، وأصاب أضر بلى المسلمين لو حاولوا الاقتراب منها سوف تلحق بهم هزيمة منكرة وسيضطرون إلىلقاء السلاح والاستسلام»^(١)

والحقيقة كانت غير ذلك تماما، فقد أهلى المسلمون بلا حاشية في جولاتهم الشامية من الصدام المباشر مع شارل وذلك في يوم الثلاثاء ١٠ سبتمبر ١٢٧٠م / ٢٠ محرم ٦٦٩هـ، ولم يستسلم أحد بل لم يفكر أحدهم في التراجع أولقاء السلاح كما توقع الفرنج، بل استأنف القتال من جديد وقام المسلمون بالقاء السهام والنبشقات من مواقعهم المتعددة داخل تونس سواء برا أو بحرا، مما أحدث هرجا داخل صفوف المسيحيين، ويشير شارلتر قائلا «أنه لم يعد بمقدورهم مواجهة هذه الهجمات الصابرة من جهات متعددة في وقت واحد لنا تركزت هجماتهم . أو رد الفعل لديهم على الاشتباك مع القوات القريبة من معسكرات المسلمين، وتركزت حملتهم على الدفاع فقط وحماية ما بأيديهم من أملاك تابعة لتونس، وأعملوا عنصر الهجوم، أو الخباثة كما فعل المسلمون»^(٢). وقد ترتب على هذه المعركة سقوط عدد آخر منهم

^(١) Nungis, Vie de Philippe, pp. 473 , Eracles, Op. cit., p. 459; Reinard, Op. cit., p. 518. -١

^(٢) Chartes , de Vita et actibus rps Francoenim , R. H. O. F, t. XX, p. 37 , Beaulieu , -٢

Vita Ladovici, nro , R. H. O. F, t. XX, p. 23 .

قتلى حيث يؤكد نانجي «على الصليبيين كانوا يتفانون تلك الضربات المتلاحقة وتادرا ما كانوا يتمسكون لها» وهذه دلالة واضحة على إيمان أحد المؤرخين الغربيين المعاصرين لفترة الزمنية موضوع البحث برجحان كفة الجيوش الإسلامية وارتفاع معنوياتهم . وقد استمرت هذه المعارك فترة طويلة، وبلغ عددها ما يقرب من اثنتى عشرة معركة ما بين مربة ويحيرة اتبع فيها المسلمون خططا دقيقة وباجعة حيث عملوا في بعضها على عدم الحوض بأعداد كبيرة من الجند، بل كانت تتقدم فرقة يتراوح عددها ما بين مائة ومائتين من الرجال وذلك للاستخدام مع العدو في الوقت الذي تقوم فيه فرقة أخرى لتشكّل ستارا لها من الخلف . على أن تقوم هذه الفرقة بالقاء السهام على العدو بطريقة بارعة في نفس اللحظة التي يتقدم فيها الصليبيين للاشتباك مع المسلمين^(٦١). فوقع الخلل والاضطراب في صفوف الفرنج نتيجة هذه السياسة العسكرية. لقد أدعتهم براعة المسلمين وأصرارهم على حماية بلادهم ضد العاصب، انخيل وقد أشار المؤرخون الصليبيون إلى سقوط ما يقرب من ستماية قتيل وجريح من رجالهم في هذه المعركة التي رجحت فيها كفة المسلمين^(٦٢). وعلى الرغم من ذلك فقد كان من بين الصليبيين من ثارت حميته ، وأصر على مواصلة القتال. إذ رفض أحد الفرسان وودعي جي دي بوروا *Jay de Bosco* الفرار من ميدان المعركة واشتباك مع المسلمين ولم يكن معه سوى شقيقه وعدد قليل من المحاربين الأشداء . ودارت معركة حامية بين المسلمين وبوروا ومن معه بالقرب من ميناء قرطاجنة وذلك يوم ١٩ سبتمبر ١٢٢٧ م / أول صفر ٦٦٩ هـ. وقد صمد بوروا في البداية ولكن نظرا لتفوق المسلمين في العدد والعدة وبراعتهم في مبالغة العدو، فقد قتل عدد كبير من رجاله ولكنه تمكن بعد ذلك من إحراز تقدم على المسلمين ، وسقط عدد من جنودهم قتلى مالا أن الدائرة دارت عليه مرة أخرى وسقط أسيرا في أيدي المسلمين. وقد حزن عليه المسيحيون كثيرا . وثارت فتنة أخرى من الفرسان الفرنج مطالبين باسترجاع بوروا حتى لو أدى الأمر الانكسار مع المسلمين ، وقد بدأت هذه الفتنة تعمل كسم للمسلمين وقاسوا موضع بعض المواجز التي تعمق وصلوهم إلا أنهم في أثناء تقدم الفرنج حيث عليهم عاصفة ترابية ، صولوا على أثرها الطريق واستغل المسلمون الموقف وكثفوا من ضرباتهم على هذه الفرقة ، مما

Nazgiz, Vie de Philippe, p. 469 .

-١-

Erucos , Op. cit., p. 459 , Anonymos , Gesta Sancti , R. H. G. F, t. XX, p. 37

-٢-

أوصلهم إلى حالة شديدة من الضعف والانهك لعدم قدرتهم على تحدى الطبيعة وسيوف المسلمين في أن واحد فلم يكن الصليبيون على دراية كافية بمناخ تونس، ويقول نانجي «لننا نطلبنا هكذا وأمورنا تسير من سيئ إلى أسوأ» ، ولم يطرأ أي جديد يحسم من هذه الأوضاع رغم وصول كل هذه الإمدادات مع الملك شارل والأمير ادوارد .^(١)

ورغم كل هذه الاشارات الواضحة عن سير الأمور لصالح المسلمين وأرتقاع معنوياتهم طوال هذه المعارك المتقطعة التي امتدت من أوائل سبتمبر حتى منتصف شهر أكتوبر ١٢٧٧م/ صفر - ربيع أول ٦٦٩هـ، ورغم توفر ظروف عديدة تؤهل لهم الانتصار على الصليبيين واستعادة أراضيتهم دون تقديم أي تنازلات ، خاصة بعد الحالة المتردية التي وصلت إليها الجيوش الصليبية والتي لم يرفع من معنوياتها كثيرا وصول شارل أو ادوارد رغم كل هذا بدأت هيئة المراسلات بين الصليبيين والمسلمين من أجل طلب الصلح، وفي هذا الصدد احتلف المؤرخون من مسلمين ومسيحيين حول من بدأ بالمراسلة في طلب الصلح، هل الطيف المستعمر أم شارل كوث أنجو ؟ وهناك آراء تؤكد أن المستعمر كان يرسل الأعداء بصفة مستمرة من أجل الصلح، وأنه قدم تنازلات عديدة في سبيل ذلك^(٢)، وشة رأي آخر يقول «بأن شارل لم تتوافر لديه روح المثابرة والاصرار على القتال بعد أن شاهد استفعال أمر المسلمين وتدهور الأوضاع العسكرية والاقتصادية والصحية داخل معسكره ، ولدرك عدم قدرته على الاستمرار في القتال وهو على هذه الحالة من الضعف ، والقوى الإسلامية تتوافد من كل جهة لمساعدة تونس في سبيل تطهير أراضيتها ويؤكد هذا الرأي أن شارل لم تكن لديه أية مسبة للحصول في معارك طويلة من أجل تونس، بل كان يتمنى الحصول على مكاسب سهلة دون تقديم كل هذه التضحيات»^(٣) .

١- Nançes , Vie de Philippe, p. 469 , Eracles , Op. cit., p. 459 , Mass. of West , Op. cit. p. 450

٢- ابن بطون القصر ، ج٦ ، ص ٢٩٢ . ابن أبي رزق الانيس المغرب ، ص ٢٧٨ . ابن لقرات تاريخ الدوله ج ١٢ ، ورقة ٧٤ ، وأيضاً محمد الميحيى ، لب التاريخ ، ص ٢١٩

٣- أبو المحاسن السجور الزعفراني ، ج ٧ ، ص ١٤٨ ، محمد الحامي السجوروي الخلاصة النقية ، ص ١٢ ، ابن أبي دينار المؤرخ ، ص ١٢٨ ، انظر أيضا Eracles , Op. cit., p. 458 , Mass. of West , Op. cit. p. 450 , Reuand , Op. cit., p. 519

ونحن لا نمتنع على الإطلاق أن نبذل للمستنصر جهده لاقترار الصلح والدليل على ذلك هو ترافيه في العديد من المواقف والتواء سياسته وعقدها في الدفاع عن بلاده وسيطيته في حماية قوطاجنة ومحاولته الفرار من ميدان المعركة، وهي في دروتها سواء إلى القيروان أو إلى قسنطينة ، بالإضافة إلى خوفه من المريان بعد أن ازداد انتجاع الحرب لأراضيهم في الجنوب، مما أقعد جيشه عن الصمود في القتال^(١)، فصمم على عقد الصلح والدليل على ذلك تلك التنازلات المخزية التي بذلها المستنصر للصليبيين مقابل الرحيل عن بلاده ، وهو أنه كان مخلصا لوطنه ، وأهله في سياسته ، كان بإمكانه أن يجبرهم طلب الصلح، وأن يطلى عليهم شروطه كيفما يشاء، فلماذا تحمل وتقدم هذه التنازلات والموازنات تميل إلى جانبهم ، والحادية أنه كانت لديه نية مبيتة على عقد الصلح ورحيل الفرنج ولنها هذه الأكمة بالطرق السلمية بدلا من الحرب والقتال .

ورغم هذا فهناك آراء عابثت هذا الأمر بحيدة كاملة، حيث أشار البعض إلى أنه جرت أمور بين الطرفين ألت في النهاية إلى عقد الصلح^(٢)، وتستند هذه الفتة في رابها على أمرين الأول يتعلق بالمستنصر وهو ما سبق أن أوضحناه ، والثاني يتلقت بشارل الأنجوي ورهبتة في عدم استمرار نزيف الدم من الصليبيين طويلا وتوفر جهده شخصيا لأمال أهد من الاستيلاء على تونس .

ومثلما اختلفت الآراء حول من بدأ بالمراسلة في طلب الصلح، اختلفت أيضا حول يوم عقد الصلح ومحتة ، فمنهم من يقول أنه تم خلال شهر صفر ٦٦٩هـ / سبتمبر - أكتوبر ١٢٧٠م^(٣) ولم يحدد هذا الفريق من الفريقين يوما معيناً في هذا الشهر ومنهم من ذكر أنه عقد في ربيع أول ٦٦٩هـ / أكتوبر - نوفمبر ١٢٧م ، دون تحديد اليوم^(٤)، هذا بينما يذكر المؤرخون أن تاريخه هو يوم ١٥ محرم ٦٦٩هـ / ٥ سبتمبر ١٢٧٠م^(٥)، ويوجد فريق رابع يؤكد أنه عقد في

١- محمد مرزالي والخوري : تاريخ إفريقيا الشمالية، ص ١٨١

٢- الفريقين : السلوك ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٥٢ .

٣- محمد الباجي لسعودي، الملاحمة النائية ص ٦٢

٤ ابن القنفذ: القارسية في ميادين القوة الحفصية - ص ١٢٢ . ابن خقون : المعبر، ج ٦ ، ص ٢٩٣ .
أيضا Brades, Op. cit., p. 458

٥- الفريقين : السلوك ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٥٢ .

ربيع آخر ٦٦٩هـ / نوفمبر - ديسمبر ١٢٧٠م^(١) هذا في الوقت الذي يؤكد فيه وإيم بنى نانجي مؤرخ الحملة وشاهد العيان فيها، إلى أن السلج عقد في يوم الخميس ٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م / ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ - وهو يتفق في هذا مع ابن القنفذ وابن خلدون والمؤرخ العربي هرقل^(٢)، ونحن نميل إلى رواية نانجي لمعاصره للأحداث ومشاهدته لها. بالإضافة إلى أن روايات ابن القنفذ وابن خلدون أيضا اتسمت بالصديق والواقعية حول أحداث هذه الحملة بصفة عامة

وكما ثار الخلاف بين المؤرخين القدامى حول تاريخ عقد السلج، كذلك ثار الخلاف بينهم حول المدة التي قطعتها الحملة في تونس فبعضهم من يشير إلى أنهم مكثوا أربعة أشهر وسهم من قال ثلاثة ومنهم من قال ستة أشهر، ولكن بناء على ما تقدم وعلى التسلسل الزمني لأحداث الحملة من بدايتها إلى نهايتها، تكون الحملة قد قطعت ثلاثة أشهر واثنين عشرة يوما، على أساس أن وصولهم تونس كان يوم ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨هـ^(٣).

وعلى هذا فقد تم إقرار السلج بحضور كل من الملك شارل والملك فيليب الثالث والأمير انوارد والكونت روبرت كونت أرنوا، وابن أخيه رارل، وابن عمه جيرمان وكونت مافارا^(٤) هذا من الجانب الصليبي أما من الجانب الإسلامي فقد حضر السلطان المستعصر العفصى وأقماصى ابن ريتون الذي تولى كتابة العقد وأبو الحسن علي ابن عمر وأحمد بن الغمان وأشيع ريان محمد بن عبد القوي ولعنص صاحب منقالية بتسلم عقد حاص من جريزة^(٥).

١- Chronique anonyme finissant en 1286, R. H. G. F. t. XXII, p. 85

وأيضا ابن أبي زرع، الأيسى للطرب، ص ٢٧٨.

٢- Nangis, Vie de Philippe, p. 474, Mail of West., p. 430

أنظر أيضا حاشية ٢ نفس الصفحة

٣- ابن القنفذ القارسية في مبادئ الدولة المفضية، ص ١٢٢، ابن أبي دينار المؤرخ، ص ١٢٨، محمد الحاجي المسعودي، الملائكة النقية، ص ٦٢، محمد العبيد، لب التاريخ، ص ٢١٦، حسن عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس، ص ١١٢.

٤- Reinand, Op. cit., p. 519.

٥- ابن خلدون، الجزء ٦، ص ٢٩٢.

كما حضر أيضا من الجانب الإسلامي الشيخ الفقيه أبو القاسم أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي، وحول سيرة هذا الرجل يقول المؤرخ أبو العباس الغبريني «أنه كان من أفقه علماء عصره، عرض عليه المستنصر وظيفة القضاء في حاضرة أفرنجيا فرفض، وطلب منه أمير المؤمنين المستنصر الاجتماع به فاعتذر عن ذلك وقال أنني لا أصلح لذلك لعدم معرفتي بلقائهم». ويوم حدوث الصلح بين المسلمین والنصارى أصدر المستنصر رسما شهد فيه مشايخ الفقهاء أن الصلح صلاح وسداد في حق المسلمین. وطلب المستنصر أن يكون أبو القاسم من جملة الشهود في هذا الصلح فقبل له تشهد في الصلح. فقال «لا أني لا أعلم الحال، يشهد من يعرف الحال» فرد عليه أبو القاسم بن البرقائلا «هذا الصلح جائز أو غير جائز؟» فرد أبو القاسم القيسي «أنه إذا كان صلاحا وسدادا في حق المسلمین فهو جائز، وإن لم يكن غير ذلك فهو غير جائز» فقال له «هو صلاح وسداد» فمصم أبو القاسم على تقديم توضيح كامل يؤكد هذا القول حتى يوافق على حضور شهادة المقد، فسمع نقرا على باب الغرفة التي كانوا بها وإذا به أمير المؤمنين المستنصر من وراء الحجاب وهو يشير إلى انتفضه المجلس، فخرج أبو القاسم القيسي مصمما على عدم الشهادة واستنصر ذلك من حاله (١).

وهذه الرواية إن دلت على شيء، فإنما تدل على أن المستنصر فشل في تهينة الرأي العام داخل تونس لقبول فكرة الصلح بل أنه مصم على كبح القوم والمشايخ في الاعلان عن رأيهم بصراحة في هذا الأمر واعتبر قرار الصلح مرسوم سلطاني لا بد أن يتفقد وألق المسلمون عليه لم لم يوافقوا.

وعلى أي الأحوال فقد أورد لنا المؤرخ الغبريني رسد من الوثيقة الذي لا يزال محفوظا في الأرشيف الملكي بفرنسا، وفيما يلي نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، جميعين»
المادة الأولى «يكون من حق أمير المؤمنين والمسلمين القاضي له وكل البلاد التي في مملكته، حق الحماية والمعة وعدم الاعتداء من قبل المسيحيين عليه»

المادة الثانية : إذا حدث أن ثمة سفينة إسلامية أو مسيحية عليها مسلمين أو مسيحيين قد قامت بعمل يخرق للقوانين البحرية في الشواطئ التابعة للأفراد المسيحيين السالفين الفكر أو للأمير أبو عبد الله محمد، يجب عدم الاعتداء عليها، بل يفرض عليها الرجوع كل ما سلبته بدون وجه حق، وأن تسلم بالكامل للمالك الأصلي. كما يجب توأخر الضمان المطلق لهذه السفن بالنسبة للمسيحيين أو المسلمين، بشخصاتهم وأمتعتهم وكامل ممتلكاتهم على هذه السفن .

المادة الثالثة . يكون من حق المسيحيين أن يؤسسوا ويمتعتوا بالاستقرار في الولايات التابعة للمسلمين . وذلك تحت اسم الأمير المسيحي الذي أرضاهم، ويكون من حقهم المطالبة بتحديد أماكن لهم ليقوموا فيها ببناء منازل لهم كما يسمح لهم بحرية العبادة في الأماكن المخصصة لهم، وكذلك إقامة الطقوس الدينية الخاصة بهم، ويكون من حقهم عمل أي شيء اعتادوا عمله في بلادهم .

المادة الرابعة : بالنسبة للتجار المسلمين الذين يمشون في الممتلكات الخاصة بالأمرء المسيحيين السالفين الفكر، وهم غلبيل وشارل ومن معهم من الأفراد والبلد ، والذين قد يتصادف وجودهم في بلاد أمير المؤمنين ، يكون لهم حق المرور في بلاده دون عقبات . وإذا فقد منهم شيء ، يلزم حاكم المسلم، بإعادته إليهم ، كما ينبغي عليهم الوفاء بكل التزاماتهم وواجباتهم تجاه أمير المؤمنين . وحق ذلك فإن الأمير المسلم من حقه أن يردع أي مميح يفت شد السلطة أو يخالق القانون، كما أنه من حقه أيضا أن يرفع الحماية عن كل من يحاول استخدام السلاح لفرق قانون الثبات.

المادة الخامسة : على كلا الجانبين المسيحي والمسلم إطلاق سراح الأسرى وتسليم خصوم شارل لهاريين إليهم ليحكمهم معه إلى صفاية (١)

المادة السادسة : من منطلق اعتراف طرفي هذه المعاهدة بسلطة الآخر ، فإنه ينبغي على الأمرء المسيحيين السالفين الفكر إخلاء البلاد الخاصة بممتلكات أمير المؤمنين . وبعد توقيعهم عدم تواجد أي فرد مسيحي في تونس إلا من لم يجد مكانا له على هؤلاء المستجزين لسبب أو لآخر . أو من يطلب أمير المؤمنين

المادة السابعة تكون مدة هذه المعاهدة خمسة عشر عاماً ابتداءً من أول نوفمبر القادم (١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ) (١).

المادة الثامنة على أمير المؤمنين أن يدفع مبلغ قدره عشرة آلاف ومائتين قطراً من الذهب وكمية مساوية من الفضة (٢)، ويرسل لهم أشياء وثلاثين جملًا وتقسّم هذه الأموال على قسمي القسم الأول يدفع قبل رحيل الصليبيين، والقسم الثاني عند نهاية العام لتقبل وينفع المستنصر لشارل غرامة حربية كتعويض لما أصاب الصيوش المسيحية من دمار من جراء هذه الحرب ويحتّم على أمير المؤمنين لعادة دفع ضعف الجزية التي كان مقرراً أن يدفعها لآل هو هشتاروف من قبل وذلك مقابل حماية صاحب سقلية لتونس من القراصنة، وعلى أمير المؤمنين أن يدفع خمس مئة مقدما من هذه الأتلة عن الدية السابقة وخمس مئة مقدما أيضا عن الدية القائمة (٣).

كانت هذه هي شروط الصلح، التي أوفضت كيف يجب شارل في تحقيق أطماعه وأنه كان يعمل لشخصه ويكده، حيث كانت كل اليد متمشية تماما مع مصالحه في تونس (٤) والواضح أن المسلمين قد خسروا الكثير من جراء هذه المعاهدة غير المتوازنة، ولكن ماذا يفعل شعب تونس أمام استمرار المستنصر على عقد الصلح ولا أحد يعلم نواياه الحقيقية ولكن اتضح للجميع أن المستنصر على الأقل لا يرغب في الاستمرار في القتال وأكد هذا رأي المقرئ (٥) أن المستنصر غم عبيدة ما سمع بصلحها قط من جراء هذه الأحداث (٦) «حيث عمل المستنصر

١- والجنير بالسكر أن هناك نراء أخرى قالت بأن مدة الصلح ستة عشرة عاماً في حين أكد عدد آخر من المؤرخين المسلمين أن مدته خمسة عشرة عاماً فقط أنظر Matt. Of West . vol II, p. 450

وأيضاً ابن خلدون الصبر، ج٦، ص ٢٩٢، ابن أبي دينار المؤسس، ص ١٢٨

٢- ذكر ابن أبي دينار أن البلع المنفوخ هو ألف ومائة قطار من الذهب وعشرة قنطير من الفضة أنظر المؤسس، ص ١٢٨

٣- تولا من Reinrod, Extr des Hist Arabes, pp 519, Matt of West, The flowers of History, vol II, pp. 450

٤- Beaulieu, Vita Ludovici noni, R.H.G.F, t XX, p. 23-24 Vangga, Vie de Philippe, -I p. 477, Puchua, Historia Albigenium, R. H. G. F, T. XX, pp. 774-775

٥- المقرئ، نهج الطلبة ج٦، ص ٢٢٤.

جامداً على أن يحكم في هدوء ، وهذه هي غنيمة ، حتى لو كان ذلك على حساب كرامة الشعب التونسي ومصلحته العامة فلقد كان بإمكانهم أن ينصسوا عن كاهلهم تلك التبعية المذلة لشارل ويتحرروا من تلك الأعباء المالية التي فرضت كعقوبة حربية عليهم ، ولو صبر المستعصر قليلاً في ساحة القتال لتمكن من إجبار المسيحيين على الرحيل دون قيد أو شرط نظراً لمآلاتهم الخفية من كل الجوانب .

يضاف إلى ما تقدم أن أطماع شارل كانت أكبر من تونس وكان تمنى في بخيلة نفسه الرحيل حتى لا يستغل قواته وجنوده والتي كان في أشد الحاجة إليها للاستيلاء على بيزطة والحدال العرب في قلب الامبراطور البيزنطي ميخائيل ميلوباجوس ، ولكن عدم ادراك المستعصر لكل هذه الأمور جعلته يمتن بنفسه وشعبه أمام حصومه ، ويضرب حالة النصر على الصليبيين ويجنب بلاده مصة اقتصادية من جراء دفع الجزية.

وعلى أي الأحوال فبعد توقيع الصلح مباشرة أمر المستعصر بهدم مدينة قرطاجنة التي كان يحتكم بها الصليبيون وخاصة القلعة والبرج وأفسد صلاحية الميناء وسوى المدينة بالأرض حتى لا يعودوا إليها مرة أخرى^(١) ، وهذا نفس ما فعله الطاهر بيبرس عندما أمر بهدم دمياط لمنع شر اعتداء الفرنج عليها .

وقد قام المستعصر بجمع الأموال من الشعب . ووجد معارضة شديدة من التونسيين ولكنه تمكن من اجترأ الموقف وإقناع شعبه بضرورة الدفع لضمان خلاص تونس من معشها وإجبار الصليبيين على الرحيل^(٢) . وقد ترك الصليبيون أشياء استعدادهم للرحيل ما يقرب من تسعين مجيلاً داخل قرطاجنة غنيمة سائغة لتونس^(٣)

وفي يوم الجمعة ٢٦ نوفمبر ١٢٧م / ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ^(٤) اكتملت الاستعدادات الخاصة بالرحيل عن تونس وقد اصطحب شارل معه الأمير انوارد إلى صقلية ، وفي الطريق هت

١- ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٩٢ ، انظر أيضا محمد مرالي ، تاريخ افريقيا ، ص ١٨١

٢- المسعودي ، العلامة النقية ، ص ٦٢ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ٢٩٢

٣- ابن خلدون : المصدر السابق ، نفس الصفحة

٤- Ericks , Op. cit., p. 450 , Chronique anonyme Flaisant ou 1286 , R. H. G. F., t XXI , -1

عاصفة عاتية أحدثت المزيد من الدمار في الأسطول الصليبي وتزايد عدد الضحايا غرقا في البحر حيث هلك عدد كبير من السلاء والجنود والقادة، وقرقت سفن بأكملها ، وهي محطة بغوال التوانسة التي استولوا عليها تنفيذا للصلح، أما حاملات الحنود الخاصة بالأمير إدوارد فلم تصب بشيء، بل نجت من الهلاك بمعجزة . وفي هذا الصدد يشير حتى لوف وستمنستر قائلا «أن الله أنقذ جيوش الأمير إدوارد لأنه رفض أن يأخذ شيئا من أموال البربر لنفسه، حيث تقرر كثيرا واعتبر توسع الأرض التي رلقت فيها دماء الكثيرين من أبناء الصليب»^(٩) وتصور أن هذه الأموال هي ثمن دماء الصليبيين الذين ماتوا . وقد دعا الملك شارل من الموت بأصويرة ولم تفرق سفينته في حين تساقط السلاء وزوجاتهم غرقا في مياه البحر، فقد فرقت إيزابيلا دي أراجون Isabella d'Aragon زوجة الملك فيليب الثالث، كما غرقت إيراميل دي فرانس ابنة الملك لويس والتي قدمت بصحبة جيوش عمها شارل كوت اسجو ، كذلك مات في رحلة العودة ملك نافار «شيبوت» والفونس كوت بواتييه وتولوز شقيق لويس التاسع، وقد دس في كنيسة السيدة العذراء بمدينة سان دينس^(١٠).

ووصلت قلوب القراء الصليبية إلى صقلية في حالة يرثى لها من التمرق و الضعف وكان الأمير إدوارد قد وافق على أن يمضي فصل الشتاء بصقلية، فعلا بقي هناك حتى يوم ٩ مايو ١٢٧١م / ٢٦ رمضان ٦٦٩هـ حيث قرر الرحيل إلى بلاد الشام لتحقيق الهدف الأساسي الذي قام من أجله من إنجلترا وقيل الرحيل ودع الملك شارل وقدم شكره على حسن ضيافته له، حيث كان زوجة الملك شارل خالة الأمير إدوارد ، كما ودع فيليب الذي كان هو الآخر على وشك العودة إلى فرنسا لتتصيه ملكا عليها بعد وفاة أبيه وقد أسمر إدوارد في بداية الأمر إلى قبرص وهناك ولجه صعوبات جمة في الحصول على المساعدات من ماريونات الجزيرة ، حيث كانت العلاقات على أشدها ورفضوا الاشتراك معه أو مساعدته ، ولكن في نهاية الأمر وافقوا على مشاركته لمدة لاتزيد عن أربعة أشهر ويكشف ذلك الموقف عن الحالة السيئة التي وصل إليها الفرنج سواء في بلاد الشام أو خارجها . فقد يش الصليبيون من كثرة الصعلات الموجهة ضد المسلمين دون جدوى فضلا عن أن الاستيلاء على بيت المقدس أصبح فكرة تافهة في نظر

Matt. of West., Op. cit., p. 450 .

-٩-

Eracles, Op. cit., p. 460 .

-١٠-

كل الفئات والطوائف المسيحية آنذاك إذ أن تكريرات الصراع النبوي بين المسلمين والصليبيين كانت لاتزال ماثلة في الأذهان ولم يمس الفرنج ما يقتضونه من أرواح وأمّال من جراء ذلك^(١) ومن مسود خطه أنه عندما وصل عكا وجد أن الصراع الدامي بين الصوبية والبنائقة كان على أشده ولم تبد أي جالية منهما استعدادا إيجابيا للتصالح معه لقد دهش لنوارد لهذا الموقف المتخاذل من قبل أمراء الفريج في الأراضي المقدسة خاصة وأنه لم يكف لتحقيق مطامع شخصية قدر رغبتهم في مجتئهم من الفسباج الذي هم فيه ولذلك لم يجد الفرصة لوانية للقيام بنشاط عسكري هاسم ضد المسلمين خاصة أن البنائقة قد تحالفو مع السلطان بيبرس، والصوبية تفرعو لتجارة نشطة مع مصر، ولم يعط أحدا منهم أثنا هافية له. وقد انتهز لنوارد فرصة هجوم المغول على شمال الشام واشغال بيبرس بأمرهم، فأغار على شهل شارين وعلى حصن قاقوز. وقد رد عليه بيبرس بقوة عسكرية صغيرة بقيادة أحد أمرائه، تمكنت من إلحاق الهزيمة به، وانتهى الأمر بتخليه عن الحصن المذكور.

وطال انتظار لنوارد في حسم الأمور واسترجاع ما غفده الفريج من مدن وقلاع وفي ربيع عام ١٢٧٢م / شوال ٦٧٠هـ أدرك مسعوية موقفه وأنه ضيع وقته فباء حيث لا أمل من الصليبيين في تغيير موقفهم. كما أدرك أن أفضل الأمور هو التوصل إلى هدنة مع بيبرس بعد أن أصبحت معظم ممتلكات اللاتني تحت يده، بالإضافة إلى احساس لنوارد بالانشغال شارل كويت اسجو منه إذ أنه بعد عوبته من تونس وضع القسطنطينية نصب عينيه، ولم يكن لنلاد -لشام أهمية تعادل لحلامه في الاستيلاء على عرش بيبرطة

وبناء على ذلك، فقد شهدت مدينة قيسارية العديد من المحاولات لاقترار الصلح بين بيبرس ولنوارد وتوسط شارل في هذا الصلح أولا بحكم صداقته القوية مع بيبرس وثانيا لرضيته في عدم وجود شخصية قرية تهيم على الشرق الفرنجي، أملا في اقتناص فرصة سهلة لكي يضم أجزاء من بلاد الشام إلى إمبراطوريته فعلا تم عقد الصلح بين الطرفين في ٢٢ مايو ١٢٧٢م / ٢٢ شوال ٦٧٠هـ على أن تكون مدته عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات^(٢). الأمر الذي أعطى لملكة عكا الفرصة لانتقاط أنفاسها والمحافظة على استقلالها

Röhricht, la Croisade du prince Edward, A. O. L., t. II, p. 620, Gestes des Chipreus, -١
pp. 199-200, Eracles, Op. cit., pp. 460-461

Eracles, pp. 461 - 462, Map. of. West., p. 540, Rotmard, Op. cit., p. 517. -٢

قدر المستطاع على أن يحتفظ بملكاتها الحالية التي تآلفت من السهل الساحلي الضيق المعتمد من عكا إلى صيدا وأن يكون للصليبيين عكا الحق في استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون معارضة من المسلمين^(١).

ويعد فقد كانت إقامة إدوارد في الأراضي المقدسة تستهدف تحقيق أي مكاسب على حساب المسلمين، وأدرك بيبرس لصال إدوارد العريضة في معاهدة القنوم على رأس حملة أكثر تنطيا إلى الشرق، وذلك حتى يرفع من شأن إنجلترا ويجريها في الكفاح الصليبي ضد المسلمين، وتحقيقا لرغبة أبيه الملك هنري الثالث في أن يعود حاملا راية الصليب من أجل الصليب^(٢). ولذلك قرر بيبرس التخلص منه رغم الهدنة المبرمة بينهما. وفي يوم ١٦ يرميه ١٢٧٢م / ١٦ ذي القعدة ٦٧٠هـ. دبر بيبرس محاولة لاعتقاله من قبل أحد الحشيشية^(٣)، الذي شكر في هيئة مسيحي وطني وطعمه بصبر مسموم، ولم يصب منه مقتلا^(٤). ولم يكن إدوارد يتماثل للشفاء، حتى تجهز للرحيل إلى بلاده، بعد أن تمكن من شياح أحلامه ببدء بسبب فشل حملة لويس على تونس وعدم قدرته على اقتنطاف ثمار النصر التي كان يتصور أن لويس قد زرعهها هناك، بالإضافة إلى تدهور الأوضاع في الأراضي المقدسة مما أدى إلى انجلترا خالي الوفاض حيث نصب ملكا عليها بعد وفاة والده الملك هنري الثالث.

وقد شعر بيبرس بارتياح كبير لهذه النتيجة المشنومة التي وصلت إليها حملة لويس على تونس ومن لمق به، وبدل كل جهده في التفرغ التام لتصفية الوجود الصليبي ببلاد الشام. سعوا لابقاء قدر المستطاع على ما تبقى من علاقات طيبة مع شارل كورنت انجو، وهو يعلم

١- أثير الحامض: السجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٥٧.

٢-

Art. of the West, p. 540.

٣- الحشيشية هم في الأصل مغربون ببلاد الشام باسم الاسماعيلية والزارية وذلك لأنهم يرمون بأمامة اسماعيل بن جعفر الصائغ إلى أن حدث الانشقاق بينهم وأسقطوا اسم اسماعيل وتأوا بأمامة أنه عزاز والمريد أنظر لويس سليمي: مجلة الطوية، مجلة لشرق، السنة ٢٢-١٩٦٤، العدد ٧، ص ٤٩٢.

٤- الكتيب: هيون التواريخ، ج ٢، لوحة ٢٤٦.

Röschmidt, Op. cit., pp. 626.

راجع أيضا :

شاماً أن أطماع شارل بعدت كثيراً عن الشرق الفرنجي، وتحصنت في الاستيلاء على الإمبراطورية البيزنطية، هذا في الوقت الذي تبذرت فيه كل الجهود لاعادة شمل المسيحيين من جديد ولم يعد هناك أي فكرة أو رغبة في القيام بعمل عسكري حاسم ضد المسلمين .

خلى هذه المرحلة من الصراع الصليبي الإسلامي فشلت كل الجهود والدعوات الملحة التي بذتها البابوية لاثارة الحماسة من جديد ضد المسلمين، وحتى المجامع الدينية التي كانت تعقد لهذا الشأن كان يرفضها كبار القادة في أوروبا ، ولم يتحمس لها إلا الإمبراطور البيزنطي ميخائيل بانيلوجوس لاحيا في البابوية، ولكنه لكي يجد الحماية لديها ضد أطماع شارل الأتجري ، وظلت البابوية تعاني الأمرين ، ولم تلق تجاوباً على كل المعارض الصليبية سواء في الشرق الفرنجي أو العرب الأتوري إسقاط الروح الصليبية من جديد. وقد حاول البابا هريجوري العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) إثارة حماسة الملك الإنجليزي إدوارد الأول أو الملك الفرنسي فيليب الثالث للدعوة لعملية جديدة، محاولاً تقييم العثر لعدم امدادهم بالمعونة اللازمة في صراعهم ضد المسلمين. ولكن هذه الفكرة لم تلق تجاوباً من قائلها، أما حكام قبرص فقد أصابهم اللثوم هم أيضاً تجاه هذه الفكرة وحلول الملك هيو صاحب قبرص (١٢٦٧-١٢٨٤م) الحفاظ على سياسة الصداقة والوفاء المشوية بالقلق مع بيمرس^(١) هذا في الوقت الذي انشغل فيه شارل عن إثارة حرب صليبية ضد المسلمين . ولم يعد يفكر في محاولة التقرب من المغول لعقد تحالف معهم ضد بيمرس . بل ركن إلى تكريس جهوده ضد الإمبراطورية البيزنطية حسبما أعلنها ، مما منح الفرصة لبييمرس لكي يتحرك على مستوى واسع لاستئصال جنود الفرنج من بلاد الشام، والتفرغ التام للتعطش من المغول بعد أن أرجعت تلك العود المعسولة التي حرصت البابوية على إعطائها للمغول حقيقة أن وعدها لهم بالثواب في الآخرة لم تلق تجاوباً في نفوس المغول وأدرك بيمرس استحالة الوصول إلى اتفاق وتعاون مثمر بين الصليبيين وبينهم في هذه الآونة خاصة وأن شارل كان يكره شدة المغول أصغقاء أعدائه البيزنطيين والجنوبيين ولكن هذا لم يمنعه من التيقظ التام لكليهما معا وذلك لتطهير بلاد الشام من أخطارهما .

هد، عن أحوال الغرب الأروبي والشرق اللاتيني بعد الحملة مباشرة ، أما عن تونس، فقد حرص المستنصر العفصى بعد وحيل الصليبيين عن بلاده على القيام بنشاط اقتصادي كبير مع جيرانه ، وعقد معاهدات تجارية مع كل من مملكة أراجون عام ١٢٧١م / ٦٦٩هـ وبيزا والبندقية وجنوة (١٢٧٢م / ٦٧٠هـ) ^(١). كما سعى جاهدًا إلى توثيق الروابط بينه وبين شارل كوث أنجو وعدم منازعته في الوقت الذي حرص فيه على كسب مودة الظاهر بيبرس صاحب مصر. فأرسل إليه مبعوثًا من تونس هو أبا عبدالله محمد بن الراسي لكي يطلع على آخر الأخبار التي آلت إليها الحملة. حقيقة أننا لم نعثر على مضمون الرسالة، ولكن يبدو أن المستنصر قد حاول تبرير مواقفه في عقد الصلح أمام سلطان مصر وهو نفس الوقت الذي شهدت فيه العلاقات العفصية المملوكية تطورًا ملموسًا ^(٢)، وتقرّب العفصيون كثيرًا من حكام مصر آنذاك ، وكان المستنصر يطمح تمامًا أن يبيد ابن يماميه بسبب إصراره الصلح، لأنه بالتطلع أعلق أمام جبهة منازعة أخرى وهي تونس ، أضف إلى هذا حاجة المستنصر لمناورة بيبرس له نتيجة الضعف والانقسام في البيت العفصي ^(٣)، بالإضافة إلى سموات بيبرس في تمضية التوجوه الصليبي ببلاد الشام.

بعد ذلك عمل المستنصر على إصلاح شأن البلاد والتغلب على بعض الثورات الداخلية سواء في تونس أو خارجها ، بحيث انتفضت عليه الجزائر، فسار إليها وفتحها حوة وأسر كبرائها ^(٤)، كما تأثر المستنصر كثيرًا بالصراع الدائر بينه وبين أخويه اسماعق ابن أبي زكريا وميمون وقد هرب الأول إلى الأندلس ^(٥)، والثاني إلى المشرق وكانت سياسة المستنصر آراء هذه الأحداث هي عدم تقجير الموقف ، بل مهاجمة حكام البلاد التي يهرب إليها خصومه من أعداء بني حفص فكان المستنصر يبعث بالهدايا الثمينة إلى الأمير أبي عبدالله بن الأحمر

١- إيتصام مرعي، العلاقة المزدوجة والشرق الإسلامي، ص ٢١٠، محمد مرالي تاريخ أفريقيا، ص ١٨١

٢- Brunschvig Le Berberie Orient Sous Les Hafsides, pp. 81-82 .

٣- ابن القنفذ الفارسية في تاريخ الدولة العفصية ، ص ١٢٧ ، الصيرفي، حسان الترابي ، ص ١٢٨ .

٤- محمد السنجي للسفري، العلامة الفتية، ص ٦٢ ، محمد مرالي وتحرير تاريخ أفريقيا الشمالية، ص ١٨١ ، محمد العويبي ، أب التاريخ ، ص ٢٦٥ .

٥ - يذكر ابن القنفذ أنه هرب أولاً إلى تلمسان ، بينما يشير ابن الضع أنه هرب إلى بلاد الأندلس . وللمعريف لنظر، أبو القنفذ المستنصر ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، ابن القنفذ الفارسية، ص ١٨٨

صاحب الأندلس عندما فر إليه أخيه أبو إسحاق وذلك حتى لا يوازعه ويصعب تمعد الموقف على هذا الوضع^(١) ولكن تقاضى المستنصر عن تصفية عدائه مع أخويه وكثير من الأمراء الطغصيين الآخرين، ترك نتائج وخيمة على كيان الدولة الطغصية بعد عهد المستنصر ، ذلك أن أبا إسحاق تمكن من تثبيت مركزه ببلاد الأندلس، فزحف نحو إفريقية وبحل تلمسان ، وانتظر الفرصة للاقعة صاغ على أخيه ورغم هذا لا يمكن أن نهضم حق المستنصر الطغصى فى تثبيت أقدام الطغصيين ببلاد المغرب بعد انهيار ملك الموحيدين ، وتأسيس امبراطورية متينة الأركان كان يمكن أن تصمد طويلا لولا وفاة المستنصر فجلة وتولية ابنه التواثق حكم البلاد.

فى يوم الأحد ١٤ جمادى الآخرة عام ٦٧٥هـ / ٢٤ نوفمبر ١٢٧٦م خرج المستنصر فى رحلة صيد، وكان الجو شديد الحرارة فمرض وزاد به الألم^(٢) فاضطر إلى العودة إلى تونس ومرض بعد ذلك عدة شهور إلى أن مات وله من العمر الثمى وخمسين عاما. وقد اختلفت المصادر المعاصرة حول يوم وفاته فعنهم من ذكر أنه توفى نول أيام عيد الأضحى عام ٦٧٥هـ / ١٦ مايو ١٢٧٧م، ومنهم من أشار إلى أن وفاته كانت يوم ٢٢ ذى الحجة ٦٧٥هـ / ٢٩ مايو ١٢٧٧م، فى حين ذكر البعض أنه توفى يوم ٢ شوال ٦٧٥هـ / ٩ مارس ١٢٧٧م ، وسهم من قال أن وفاته كانت يوم ١١ ذى القعدة ٦٧٥هـ / ١٧ أبريل ١٢٧٧م، ويؤكد ابن القنفذ «أن وفاة المستنصر كانت ليلة ١١ ذى الحجة ٦٧٥هـ / ١٧ مايو ١٢٧٧م، وفى هذا يقول « ليلة الحادى عشر من شهر ذى الحجة توفى المستنصر وكانت الأمراض قد اعتزته والحل قد تعالفت عليه حتى ضعف فى يوم عيد الأضحى حمل فى مضفة خشب وأصعد إلى قبة ورأه الناس وتجلد لإظهار حركة علم منها أن فيه بقية ومات ليائها وأصبح ولده التواثق يحىى هاكما للبلاد وقد بايعه عمه أبو حفص ، وبايعه الناس وانقضى أمر المستنصر وفىلن يوم لحدى عشر ذى الحجة المذكور^(٣)، وقد أبدى فى تاريخ الوفاة كل من الزركشى وابن أبى دينار وإن كانا قد اختلفا معه حول مدة حكمه فىشير ابن القنفذ إلى أنه حكم تسعا

١- ابن القنفذ : الفارسية ، ص ١١٨

٢- ويقال فى أمر وفاته أنه أثناء رحلة صيد هاجمه وحش وبغايته الجوارح ، فدخل مغارة وكانت أعمامه بالفة مضط مضطبا عليه ، وتغل مريضا لهذا السبب إلى أن مات . ينظر الزركشى ، تاريخ الدولتين، ص ٤٠

٣- ابن القنفذ : الفارسية فى مبادئ الدولة الطغصية، ص ١٢٤ .

وعشرين سنة ونصف بينما يؤكد الزركشي وابن أبي ديار وعدد آخر من المؤرخين المسلمين المعاصرين على أن مدة حكمه هي فقط ثمانية وعشرين عاما وحمسة أشهر واحد عشر يوما^(١) على اعتبار أن توليه الحكم كان في ٢٩ جمادى لخر ٦٤٧هـ / ١٠ أكتوبر ١٢٤٩م في حين أنورد ابن القفط أنه تولى الحكم في ٢ رجب ٦٤٧هـ / ١٤ أكتوبر ١٢٤٩م، فخلط عليه الأمر على الرغم من صدق روايته وواقعيتها عن التاريخ الفصلي^(٢)، لأن الفارق بين تحديده الزمني لحكم المستنصر، وبين هجره من المؤرخين لم يتعد أربعة أيام وأيس عاما بأكمله.

وعلى أي الأحوال فقد تركت وفاة المستنصر فراغا خطيرا، واحتدم الخلاف بين أسرته على عهد ابنه الواثق الذي لم يكن له نفس صفات أبيه من الخبث والدهاء في تعامله مع خصومه، فلم يصمد كثيرا أمام مלוثة عمه أبي اسحاق الذي قدم من تلمسان إلى تونس، واستمر في مضايقة الواثق إلى شارل له عن الحكم في ٢ ربيع ثانی ٦٧٨هـ / ١٤ أغسطس ١٢٧٩م، وفي عهد أبي اسحاق زادت قوة العربان ونفوذهم، وفي الوقت نفسه لم يضمن أبو اسحاق معاملة خصومه، الأمر الذي ألب الكثيرين ضده كما حدث على عهد الواثق وزادت أطماع بيار الثالث ملك أرجون (١٢٧٦-١٢٨٥م) في تونس، حيث كانت له أطماع واسعة في حوض البحر المتوسط. وتبنى أبو يضاع يديه على تونس حتى يلاقي خصمه شارل ملك صقلية، حقيقة لم يتمكن بيار من تحقيق أحلامه نتيجة تصدى شارل له^(٣)، ولكن هذا لم يمنع تونس من أن تعيش فترة من الاضطرابات المستمرة، وتأرجحت سياسة أبي اسحاق بين القوة والضعف مما ألب عروان الجيوب ضده خاصة بعد ظهور شخصية قوية من بينهم وهو ابن أبي مباركة الذي ألهم السوء في السعراء أنه ابن الواثق يحيى وأنه أحق بالخلافة من عمه أبي اسحاق ودار صراع عنيف بين هذه الفئات مجتمعة حول الحكم، فقد ثار ضد أبي اسحاق وابن أبي مباركة أخ آخر للمستنصر هو أبو حفص عمر الذي اعتمد على مساعدة العربان من قبائل بني سليم وغيرهم. وقد ثمرت جهوده في خلق أبي اسحاق، وتنصيب نفسه خليفة^(٤).

١- الزركشي تاريخ الدولتين، ص-٤٠، ابن أبي ديار، المؤسس، ص-١٢٤، الصيرفي، نشر العمال، ورقة ١٩٩، أبو القاسم للمستنصر، ج٢، ص-١٢٦، الصيرفي عتوان الدعاية، ص-٣١٧.

٢- ابن القفط الفارسية، ص-١١٧، الصيرفي عتوان الدعاية، ص-٣١٧.

٣- محمد مزالي: تاريخ أفريقيا الشمالية، ص-١٨٢.

٤- الزركشي، تاريخ الدولتين، ص-٤٤، ولحم أنبشا محمد مزالي: تاريخ أفريقيا الشمالية، ص-١٨٢.

إلى أن استمر الحال على هذا الدوال فترة طويلة من الزمان، أنت على الأخصر واليابس في تونس، وتخضع التنفيذ الحفصى فيها، وأخذت التجارة والعلوم والفنون طريقها إلى الانحسار، وعم الصراب كثيها من مدن تونس وسقطت جزيرة جربة نتيجة توالي هجمات الصليبيين عليها، منهزين حالة الضعف، وصاروي بالصلح وشروطه عرض المائط واستولوا على جزيرة فرقة ١٢٨٧م / ٦٨٦هـ وسقطت قسنطينة وعم الخراب مدينة باجة (٢).

وقد دعت هذه الظروف الكثيرين من المنتهالين على الحكم والسلطة إلى اقتناص الفرصة وتراجع ميزان الحكم بين أيدي الحلفاء الضعفاء ولم يكن يهمهم سوى مصلحتهم الشخصية ولم يزيد حكم الواحد منهم عن علمي أو ثلاثا (٣).

٢- باجة وعربة وفرقة من أشهر المدن الأفرقية التي ظلت تابعة لفترة طويلة لحكم الحفصى، انتظر ابن أبي دينار: الخراس، ص ٢٢، ٩٣

٤- قائمة بأسماء السلاطين الذين حكموا تونس في عصر الصعلك منذ عهد الواثق يحيى بن المستنصر أيركركيا يحيى الواثق عام ٦٧٥-٦٨٨ هـ / ١٢٧٦-١٢٧٩م / أبو إسحاق أيركركيا من ٦٨١-٦٨٦ هـ / ١٢٧٩-١٢٨٢م / ابن أبي عمارة حكم من ٦٨١-٦٨٢ هـ / ١٢٨٢-١٢٨٤م / أبو حمص عمر بن أبي زكريا حكم من ٦٨٢-٦٩٢ هـ / ١٢٨٤-١٢٩٢م / أبو عصبينة المستنصر بويج في ٦٩٤ هـ وتوفي في ٧٠٩ هـ / ١٢٩٤-١٣٠٩م وكان سبب وفاته إصابته بمرض الاستسقاء ثم / أبو بكر الشهود بن يحيى حكم في ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩م، وتوفي نفس السنة فكانت ولايته ستة عشرة يوما / أبو البقاء خالد بن أبي زكريا بويج ٧٠٩ هـ حتى ٧١١ هـ / ١٣٠٩-١٣١١م. حيث قتل / أيركركيا محمد الأحمدي بويج من ٦ رجب ٧١١ هـ وتوالى الحكم ٧١٧ هـ / ١٣١٧م / ثم محمد أبو حمزة بن أبي يحيى بويج في ٧١٧ هـ وتوفي ٧١٨ هـ / ١٣١٨م / أبو يحيى بن أبي بكر بويج في ٧١٨ هـ وتوفي ٧١٧ هـ / ١٣١٨م / أبو حفص عمر بويج في ٧١٧ هـ وتوفي في ٧١٨ هـ / ١٣١٨م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧١٨ هـ وتوفي في ٧١٩ هـ / ١٣١٩م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧١٩ هـ وتوفي في ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٠ هـ وتوفي في ٧٢١ هـ / ١٣٢١م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢١ هـ وتوفي في ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٢ هـ وتوفي في ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٣ هـ وتوفي في ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٤ هـ وتوفي في ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٥ هـ وتوفي في ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٦ هـ وتوفي في ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٧ هـ وتوفي في ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٨ هـ وتوفي في ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩م / ثم أبو العباس أحمد بويج في ٧٢٩ هـ وتوفي في ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠م. وقد صلحت له البلاد والعباد

ولعمري من التفصيل من لحوال البلاد في سني حكمهم أنتظر التركشي تاريخ الدلائل الموحدة والمصنوعة، ص ١٦٨-١٦٩

وتأرجحت ميلوهم بين الشرق والغرب تبعاً للأقوى، فقد اقتربت الدولة الطغصية في أحريرات حينها من دولة المماليك بمصر، وذلك منذ عهد الواثق يحيى ولكن سياسة التقرب من المماليك لم توقف الانتحار السريع الذي آلت إليه الدولة الطغصية رغم المحاولات العديدة لشد أزرها وبعثها من جديد، إلى أن انتهت تماماً مع أحريرات القرن التاسع الهجري/ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي (٧).

ويأسهيار دولة الطغصيين وأضمحلل الفكرة الصليبية وإنثأرها في نفس الوقت تقريباً تكون قد وصلت إلى نهاية بحثها بعد أن حاولنا جاهدين إعطاء نبذة تاريخية عن أحوال الشرق والغرب عقب الغشل الرابع الذي ألم بحملة لويس التاسع على تونس، وهي أحر الحملات الصليبية المبكرة ضد العالم الإسلامي، تلك الحملة التي كانت بمثابة المسعار الذي دق في نمدش الحركة الصليبية وأسيب دعائها بالشلل وتملكهم البس وانتشلوا بشورهم ومصالحهم الخاصة. وأضحت رحلة الرحيل نحو ديار الإسلام حكماً مرعباً لا يندمى أى صليبي في الشرق أو الغرب أن يعلم به ويتنازل بعدها الغرب الأوروبي عن صحبته في حمل الصليب لتمرير بيت المقدس.

حقيقة أن النظريات التاريخية الحديثة أثبتت أن الفكرة الصليبية لم تمت بحملة لويس التاسع ضد تونس واستيلاء الأشرف خليل على عكا بل عاشت قرناً من الزمان بعد انبهار الصليبيين ببلاد الشام ولم تفقد صفاتها الحقيقية إلا في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي / أحريرات القرن الثامن الهجري^(٨). حيث وضعت العديد من المشروعات الضممة والمؤلفات العديدة لآثارة أهل الغرب من جديد ولعبت قبرص وروفس دوراً حطيراً في أحياء هذه الفكرة من جديد وكانت آخرها هي حملة فيكونوايس الشهيرة^(٩) ١٣٦٦م التي قامت بها أوروبا بشمرها لا لأخراج العشمايين من شبه جزيرة اليفان فحمص بل للوصول إلى قلب دولة المماليك في بيت المقدس أيضاً. ولكن بهزيمة الصليبيين في هذه الواقعة لم نتم لهم من بعد ذلك قائمة، ونملك الثلاثين اليأس، ولصرفوا عن هذه الفكرة وتقبلوا الأمر الواقع بأن أرادة الله هي التي اقتضت عودة القدس إلى أيدي المسلمين.

١- الرركسي تاريخ الفولتي، ص ١٦٨. ابن القند الفارسية، ص ١٤٨-١٩١

٢- Afiya, Crusade in the later middle ages, pp. 10, 480

٣- Afiya, Crusade of Nico Polis, dom, Crusade in the later middle ages, p.435-462-480.

الخاتمة

أهم القضايا والنقطة التي طرحت على سبيل البحث- أبرز الآراء
والأمكار والاستنتاجات التي تم التوصل إليها- جنة للمشروع
وأصاقله- نهاية المرحلة الصليبية

لعله يتضح لنا بعد أحداث ثغر الحملات الصليبية المبكرة ضد العالم العربي الإسلامي، أن
فكرة القرن الصليبي أصبحت فكرة لاجنوى منها على الإطلاق . وأهل القشل الذي منيت به تلك
الحملة قد أكد تماما انهيار الوجود الصليبي بديار الإسلام ، وزوال مراكزه نهائيا من بلاد
الشام . ولا جدال أن تلك الحملة التي أدت أسباب عديدة متداخلة في بعضها إلى فشلها في
النهاية قد أظنت للعرب الأوروبي كله ضرورة التخلي عن مثل هذه المقامرات الفاشلة في
العالم الإسلامي مشرقه ومغرب .

ومن أبرز القضايا التي طرحت على سبيل البحث ، أن الدافع الديني لحملة لويس على
تونس كان قناعا أحف الصليبيين وراء أهدافهم الحقيقية ألا وهي التهام ثروات تونس
والاستفادة من موقعها الجغرافي والاستراتيجي المتميز كحقل وصل بين الشرق والغرب،
وفرصة للانتفاض بعد ذلك على مصر معقل العروبة والإسلام . ذلك أن احتلال تونس سوف
يسهل على الفرنج عملية تطويق مصر برا وبحرا ، وذلك نحو عار الهريمة التي لحقت باللك
لويس التاسع حملته الأولى على مصر . كل هذا يؤكد الحتمية السريعة الدينية تنبأ
التي كانت تحفي وراءها الأطماع الاقتصادية والنوابع الشخصية . كذلك أكدنا طبيعة الدور
الطير الذي لعبه شارل الأنحوى في إشغال حمة شقيقه لويس وتشجيعه للقيام بهذه الحملة.
لابعكم الوارع النيطي، ولكن أملا في الحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب والمغانم
وتداعى أحداث الحملة يعبر ذلك.

ونثبتنا أيضا أن ادعاءات الصليبيين حول رعية الحليفة المستنصر في التحويل في المسيحية
كان أمرا من وحى خيال الصليبيين أنفسهم واسطورة لامت للحقيقة التاريخية بصلة .
ولا يوجد أي سند تاريخي يعزز هذا الادعاء . وسأ أن المستنصر لم يكن صليقا لأحد، وإنما
جعل من صداقته الظاهرية لـ لويس قناعا أخفى وراء أهدافه الحقيقية، ألا وهي ممالأة الملك
الفرنسي ولتقاء شروه، وصرب مصفرورين بحجر واحد خاصة بعد أن كثر أعداؤه بالداخل.

فأراد أن يظهر أمام أعدائه في الغرب بمظهر الصديق المتواطئ معهم، ولكنه في قرارة نفسه كان يصمم خلاف ذلك. كذلك تعرضنا لرواية أخرى من اختلاق الصليبيين ألا وهي ادعائهم بأن الطليعة المستنصر قدم لهم المال والمؤن والعتاد لاحتلال تونس، وقد أثبتنا أن هذا أمر مستحيل على حاكم مسلم مثل المستنصر ، وأن الأمر لا يعود أن يكون مجرد هدايا بعث بها المستنصر إلى لويس التاسع لكسب وده وصداقته . وكان هذا أمرا مألوفا وقتذاك.

كما تناولنا قضية هامة أخرى وهي أن الصلقات التي كانت تربط بين سلطان مصر الظاهر بيبرس وملوك الغرب الأيوبي، وبين هؤلاء الملوك والمستنصر ، قد أثبت ثمارها وأصلحت فرصة للمسلمين للاستعداد العسكري للاتقاء العملة ومعرفة خط سيرها على وجه التحديد.

كذلك كشفنا الستار عن صور عديدة أكدت تخلص الفكرة الصليبية وانهيارها في نفوس الصليبيين، ومنها المعاناة الشديدة التي لاقاها لويس أثناء دعوته للحملة وانصراف الناس عنها في الغرب، وعدم قدرته في التأثير على الفرسان والقادة الصليبيين للانخراط في سلكها أو المساعدة المالية فيها . وأوضحنا أيضا شكوك أهل العرب في نتائج هذه الحملة، وقد تمثل هذا في التحذيرات السافرة التي واجهها لويس وجنوده من أهالي مدينة اجمورت الفرنسية والاستشباكات الدامية على أرض الميناء ، والتي إن دل هذا على شيء فدل على روح الكراهية التي لساها الفرنج تجاه أي محاولة لغزو ديار الإسلام بعد فشل الحملات السابقة، وآلاف الأرواح التي ذهبت ضحيتها .

كما أكدنا أن كهولة لويس وتعبه في إصدار القرارات الصحيحة كان عاملا مباشرا في اتخاذ سياسة مرتجلة غير مخططة أو مرسومة ، وفرصة للقوى الإسلامية في التقاط الانعاس وتعديل الخط العسكري لمواجهة العدو ولحمه وسلطان الضوء أيضا على دوافع شارل صاحب اسحر، ذلك القائد الذي تجرد من المشاعر الإنسانية تجاه أخيه رجب في حرب خاسرة ، وبينا أنه لم يقمعد من وراء ذلك إلا الاستغادة قدر المستطاع من الحشد الهائل من جيش أخيه لإرهاق المستنصر واجباره على دفع العريه التي كان يدفعها لآل فوشيتاوس، وأوضحنا بنفسه مزايا جنينة داخل تونس، وحتى يتخلص من وجود تحية لويس في أوروبا حيث كان يمثل حقة في سبيل طموحاته وتطلعاته في الانتقضاس على بيزنطة

ولخلاصا عما تقدم، تعرضنا لقضايا عديدة تتعلق بالمنة التي شطعتها العملة من سردينيا إلى تونس والتي اختلفت حولها المصادر، وأكدنا أنها ثلاثة أيام فقط.

كما أثبتنا بالدراسة والتحليل كتب المزاعم التي قالت أن الحملة توجهت أولاً إلى الاسكندرية - ولويسنا أن هذا كان نصح خيال المؤرخين ، وأن الأمر لا يبدو أن يكون مجرد ترجيح من بعض المؤرخين بأن الحملة لابد أن تكون وجهتها مصر لمحو عار الهزيمة السابقة التي لحقت بلويس وجبشه .

كذلك توصلنا من طريق المقارنات والموازيات التاريخية أن اليوم الذي وصلت فيه الحملة تونس هو ١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذي القعدة ٦٦٨هـ ، وليس يوم ٢٠ يوليو ١٢٧٠م / ٢٨ ذي القعدة ٦٦٨هـ .

كذلك سلطنا الضوء على مدى استفادة لويس هو الآخر ، من تراخي المستنصر وتلاعبه بالقرارات وعدم اتخاذ موقف موحد لمواجهة الحملة ، وأكدنا أن هذه السياسة الملتوية قد أدت بنتيجة هامة ألا وهي تثبيت تقدم لويس في قرطاجنة وتعرض تونس نفسها لمطر الضياع ، وقد دعمنا هذا الرأي بمضمون الرسالة التويخية التي وجهها الظاهر بيبرس إلى المستنصر في هذا الشأن .

كما تناولنا بالدراسة والتعميس بعض الآراء الصمد من المؤرخين الذين اتهموا بدافع العصبيّة والتحيز لبني جشمهم ، وأثبتنا كتب تلك الادعاءات ، ومنها القصة التي لقي بها وإيم لى نانجي عن دخول فئة كبيرة من عليّة القوم بتونس في الدين المسيحي - وأكدنا أن هؤلاء ربما كانوا مجرد أسرى لدى الصليبيين ولجأوا إلى هذه القصة لاطلاق سرلحمهم . وربما تكون أيضاً من نصح خيال أولئك المؤرخين .

كذلك ناقشنا بالتفصيل قضية اختفاء المستنصر من ميدان المعركة ، وهل هرب إلى قسنطينة أم القيروان ، وأكدنا أنه اختفى في قسنطينة ، وأن ذلك التصرف منه يؤكد من جديد أنه شخص كان يعمل لحسابه أولاً وأخيراً ، ولم يكثر في مصلحة بلاده وهي في أمس الحاجة إليه ، خاصة وأن مدينة تونس كانت قاب قوسين أو أدنى من الضياع

كذلك تناولنا قضية هامة أخرى حاول كثير من المؤرخين إيرادها على أنها من أهم أسباب فشل الحملة على تونس وهي قضية انتشار الأمراض بين جمود الحملة من الفرّج . وأثبتنا على امتداد صفحات البحث أن هذه الأمراض لا تبدو أن تكون مجرد سبباً ضمن أسباب أخرى عديدة ، ومنها الصحوة الإسلامية التي فوجئ بها شارل والصليبيون ، ورجبة التومسين في استئصال شقة أولئك البخلاء .

كذلك ناقشنا قضية هامة، وهي أن المعسكر الصليبي استمر في القتال تحت قيادة شارل وهو يدرك تماما أن هذا الرجل لم يبق إلا لصلاحه الخاصة، ولم يكن أمام الجميع أي خيار آخر سوى القتال .

وبناقشنا أحوال المعسكرين الصليبي والإسلامي قبيل عقد الصلح بين شارل كوند امور والمليحة المستعمر وسلطان المموى على اليد الحفية التي كانت لها المصلحة الطويل في هذا الصلح، ويعنى بذلك المستعمر وشارل. وأثبتنا أيضا أن الشعب الفرنسي لفظ فكرة الصلح شكلا ومضمونا . وأن المستعمر فشل في تهيئة الاجواء لقبوله بل فرصه رغما عن الجميع وخرجنا بنتيجة هامة أن المستعمر وشارل كانا بالفعل أهم العناصر المستفيدة ماديا من هذا الصلح وذلك من طريق مناقشتنا لأهم بنوده .

وفي النهاية كانت لنا وقفة مع قضية أخرى اختلف حولها المؤرخين ، وهي تاريخ عقد الصلح وأكيد أنه وقع في ٣٠ أكتوبر ١٢٧٠م ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ .

تلك هي بعض النقاط التي تناولناها بالدراسة في ثنايا الرسالة وتوصلنا فيها إلى آراء محددة، كما قمنا بتصحيح عدد من الآراء لبعض المؤرخين من قدامى وحديثي . وأهم من كل هذا وذلك أنه قبل دراستنا هذه لم تكن قد ظهرت دراسة علمية متكاملة تلم بحملة لويس التاسع الصليبية على تونس، من مختلف مصادرها وأصولها ، من عربية ولاينية وفرنسية قديمة وغيرها . وكل ما هناك شذرات مبعثرة هنا وهناك في المراجع الخاصة بتاريخ الحروب الصليبية لا تعدو أن تكون فصلا أو بعض فصله هالجت الموضوع في الغالب من زاوية واحدة اعتمادا على شق واحد من أصول البحث دون الشق الآخر، وذلك تعتبر الدراسة التي نتقدم بها أول دراسة علمية متكاملة قائمة بداتها في هذا الموضوع الحيوي الهام تلم بكل جوانبه وروياه ، من واقع مختلف أصوله ومصادره ، من عربية وغير عربية، ومهما يكن من أمر، إذا كانت حملة لويس التاسع ضد تونس عام ١٢٧٠م / ٦٦٨-٦٦٩هـ هي أهم الحملات الكبيرة التي تعرض لها العالم العربي الإسلامي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد (القرنان السادس والسابع الهجريان) ، فقد شهد القرن الرابع عشر الميلادي (القرن الثامن للهجري) ما عرف باسم الحروب الصليبية المتأخرة . إذ بسط الدعاة في العرب الدعوة من جديد للحرب الصليبية، ووضعوا الكتب والمؤلفات بهذا الخصوص ومن أهم هؤلاء الدعاة بطرس نيبوا ، ورامون لال ، وبيير كارد، ومارينو سانونو، وفيليب دي ميزير ، وكان من نتيجة

ذلك قيام عدد من الحملات الصليبية مثل حملة بطرس الأول لوزجمان ملك قبرص اللاتيني على الاسكندرية عام ١٣٦٥م / ٧٦٧هـ وحملة لويس الثامن فوق بوربون على المهدية عام ١٣٩٠م وحملة نيكو يولس الشهيرة عام ١٣٩٦م بهدف الاستيلاء على الأراضي المقدسة . وقد منعت هذه الحملات بالفشل مثلما منعت الحملات الصليبية الميكرية إذ كانت الروح الصليبية قد ماتت تماماً ، وانفلس الناس في أوروبا من حرائها وأخذوا يتشككون في جدواها وفائدتها ، بعد أن ذهب الآلاف من زهرة شباب أوروبا بين قتل وجريح وأسير في سبيل سراب حادع وبذلك دق أهر مسمار في نعش الحركة الصليبية التي أصبحت حلما من أحلام الماضي البعيد حاول الغرب إحياءه فكان نصيبه الإحباط والخذلان . هذا ، في الوقت الذي طويت فيه صفحة من تاريخ البشرية لتبدأ صفحة جديدة بمنأى ومفاهيم جديدة مغايرة لتعلمن من بداية عصر جديد هو عصر النهضة الذي يرتبط بالتاريخ الحديث وعلميته الزاهرة المعلقة

الملاحق

الملحق الأول:

نص مأخوذ عن مؤلف مجهول باللغة الفرنسية القديمة، يتضمن قائمة بقيمة المساعدات المدعية التي قدمها الفرسان والنبلاء إلى الملك لويس التاسع ولم يشتركوا بأنفسهم في إعداد الحملة

نقلا عن :

Liste des Chevaliers avec saint Louis en 1269, R. H. G. F., t. xx, Paris, pp. 304-306 .

الملحق الثاني :

نص مأخوذ عن «تاريخ الإمبراطور هرقل» باللغة الفرنسية القديمة ، ويتضمن أسماء من ماتوا في الحملة من الصليبيين أما بسبب المرض أو نتيجة العواصف التي داهمتهم في رحلة العودة من تونس .

نقلا عن :

Eracles, L'Estoire de Eracles Emperor et La Conquests de la Terre d'outre me R. H. C. H. Occ. t. II, Paris 1859 , p. 458 .

للملحق الثالث :

نص باللغة الفرنسية القديمة يتضمن وصفا للعاصفة التي واجهت الصليبيين في الرحلة من لجمورت إلى سرينيتيا في الطريق إلى تونس .

نقلا عن :

Nangis, G. , Vie de Saint Louis, R. H. G. F. t. xx pp. 441 .

الملحق الرابع :

جدول تواريخ الحملة حسب تسلسلها الزمني.

رأينا ترويد البحث بلريقة ملاحق هامة تتصل به انصافا وثيقا وتساط الأضواء في كثير من جوانبه وزواياه . وأولها نحن يتضمن قائمة بقيمة المساعدات المالية التي قدمها الفرسان والنبلاء للويس ، وهو مؤلف مجهول. ويركز هذا النص على نوعية المساعدات التي تقدم بها الفرسان الذين لم يشتركوا مع لويس، ويوضح التسهيلات التي منحها الملك لهم حتى يشجعهم على الانحراط في حملته . والنص يلقي الضوء على سلبية وتقاعس الكثيرين، في وقت بدأت فيه الفكرة الصليبية في التقلص بينما أخذ الناس في العرب يتفقدون صها . والنص لا يزال بلغته الفرنسية القديمة ، وقد قمنا بنقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الثاني فهو نص مأخوذ من «تاريخ الامبراطور هرقل» ويتضمن أسماء كل من سافر في الحملة سواء داخل تونس أو في رحلة العودة من تونس إلى أوروبا وقد سجل النص أسماء الأمراء والقادة والملكات والأميرات أيضا، وهو يوضح الحالة المتردية التي آلت إليها الحملة سواء بسبب انتشار الأمراض بتونس التي فتكت بعدد كبير من الفرنج، أو نتيجة للعاصفة الشديدة التي واجهتهم في رحلة العودة . والنص لا يزال هو الآخر بلغته الفرنسية القديمة، وقد قمنا بنقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية.

أما الملحق الثالث فهو نص مأخوذ من مسيرة الملك لويس التاسع للمؤلف الفرنسي وإيم دي نابجى . ويحتوى على وصف دقيق للعاصفة التي واجهت الجيوش الصليبية أثناء إبحارها من ميناء اجمورت إلى جزيرة سردينيا في الطريق إلى تونس وهو يكشف عن الحالة المتردية التي أصابت الحملة قبل وصولها تونس، والأتانية التي سيطرت على القادة والفرسان الذين لم يفكروا إلا في ثواتهم ولم يعمروا أسمى اهتمام لسودهم. بل انصب اهتمامهم على الهروب بأنفسهم من الموت والهلاك مما يوضح التفكير الداخلى الذى ألم بالحملة قبل مواجعتها التوسمين والذي كان له اثره في النتيجة التي آلت إليها الحملة، والنص لا يزال بلغته الفرنسية القديمة وقد قمنا بنقله للمرة الأولى إلى اللغة العربية

أما الملحق الرابع والآخر عبارة عن جدول رمضى بالسوم والشهر والسنة ، للأحداث الهامة المتعلقة بالحملة مدد الاعداد لها هي قريبا وحتى رحيلها عن تونس

الملحق الأول

الترجمة العربية

- السيد / راؤول فيستري ، المارشال وقد قدم ستة من الفرسان وساهم بنسبة ١٦٪ من العملة التورنوا .
- السيد لانكيلوت دي سان مارل المارشال ، ساهم بنسبة ١٤٪ من العملة التورنوا .
- السيد / بيير دي موليه وقد أدى ١٢٪ من العملة التورنوا فضلا عن ٤٠٠ تورنو، قدمها بصورة سرية
- السيد / كولر دي موليه شقيق السيد بيير (أى دفع نفس المصفاة) .
- السيد / جيبيل دي توريل ، دفع ١٢٪ من المصفاة ، أما عملية الطعام ومعيشة لفرسانه فكانت على نفقة الملك.
- السيد / ماهي دي روا ، قدم ثمانية من الفرسان ، ودفع الذين من العملة التورنوا فضلا من العديد من المنح العلفية . أما مصفاة مئكل الفرسان ومعيشتهم فكانت على نفقة الملك.
- السيد / جيرارد دي موريرا . قدم اثنتى عشر من الفرسان، ودفع ٢ آلاف من العملة التورنوا .
- السيد / راؤول دي فيل . قدم خمسة من الفرسان، ودفع ٤ آلاف من العملة التورنوا أما الإقامة والمئكل فكانا على نفقة الملك أى على حساب البلاط الملكى.
- السيد / همورى دي ميولانك، قدم خمسة من الفرسان ، ودفع ٤ آلاف من العملة التورنوا وبالنسبة للمئكل والإقامة فكانت على نفقة الملك.
- السيد / أنوت دي فانت ، قدم اثني من الفرسان، و٢٦٪ من العملات التورنوا وبالنسبة للإقامة والمئكل على نفقة الملك.
- السيد / راؤول ، قدم ستة من الفرسان و٥٠٠ من العملة التورنوا ، والمعيشة على نفقة الملك.
- مسيو يوفان دي لومبشال قدم أربعة من الفرسان ، و١١٪ من العملة التورنوا
- السيد / لويس دي بوجوه قدم اثني من الفرسان، والذين يستماتون من العملة التورنوا والمعيشة على حساب الملك .
- السيد / يوحنا دي فيل، قدم أربعة من الفرسان، و١٢٪ من العملة التورنوا ، والمعيشة على حساب الملك.

- السيد / ماهي دي لا توريك ، قدم ١٢ / من العملة التورنوا ومعيشة الفرسان على حساب الملك.
- للسيد / ويليام دي كورتاي، قدم عشرة من الفرسان، وألفى ومائتين من الجنهات والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيد دي سلتز، دفع وحده ٨٠ / من العملة التورنوا ، ومعيشته على نفقة الملك.
- السيد / روبرت دي بوا، دفع وحده ٨٠ / من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / ستيفن ليراس ، دفع وحده ٨٠ / من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيل دي مائي، قدم عشرة من الفرسان ، و ٣٠٠ تورنوا والمعيشة على نفقة الملك كما شغل الملك نفقات دمايهم وعربتهم.
- السيد / أنبيه دي ماسجراي، قدم خمسة من الفرسان، و١٢ / من العملة التورنوا مع كفاية دماي وعودة هؤلاء الفرسان ومعيشتهم على نفقة الملك.
- السيد / وليام دي فريس قدم عشرة من الفرسان ، و٢٦ / من العملة التورنوا ومعيشة الفرسان على نفقة الملك.
- الأميرة ترويج قدمت عشرة من الفرسان، وألفى وستمائة من التورنوا والنفقات من حيث المأكل والنوم على نفقة الملك.
- الأميرة دي سان بو، قدمت ٣٠٠ من الفرسان لهم حق النعاب والعودة فضلا عن أشياء أخرى شينة ، ١٢٠ ألف من العملة التورنوا. و١٢ / أخرى ندفع بصورة خاصة
- السيد / لامبارت دي ليسون ، قدم اثنين من الفرسان، ١٨ / من العملة التورنوا والمعيشة على نفقة الملك.
- السيد / جيرارد دي شامباسي، قدم ١٠ من الفرسان، و ٢٧٠٠ من العملة التورنوا ونفقة هؤلاء الفرسان على نفقة الملك.
- السيد / رموند ابان، قدم خمسة فرسان ودفع ٩١٢ من العملة التورنوا .
- السيد / يوحنا دي بليمن، قدم عشرة من الفرسان و ٢ آلاف من التورنوا وعليه تعيين من يساعده في تنظيم شؤون الاتفاق على هؤلاء الفرسان داخل القصر الملكي على أن يكفل لهم الملك أمر النعاب والعودة.
- السيد / دي شامبانيا قدم عشرة من الفرسان ، ولم يطلب شيئا من الملك
- السيد ؟ جيلاني دارت قدم خمسة من الفرسان و٩١٢ من التورنوا .
- السيد / ويليام دي ايلاندر قدم ٢٠ من الفرسان وستة آلاف من التورنوا وأسهم في مسؤوليات الملك لتنظيم شؤون الحملة داخل القصر

الحق الثاني

الترجمة العربية

« .. ثم مات ابنه » يوحنا العزيز « أمام تونس » - وبعد ذلك توفي القاصد الرسولي « رافؤل جروسيارمي » كاردينال وأسقف الباتو- ثم مات ملك فرنسا الطيب ولاحق به ملك « نافار » وجمع لآخر كبير من الكونتات والبارونات وبعد أحر من العامة (أثار العجب) .

بعد وفاة ملك فرنسا ، تولى الملك شارل قيادة الجيش وتفاوض من أجل وقف الحرب وتحقيق السلام. وقد حصل هو والشارويات الآخرون على الكثير من الأسلاب التي استولوا عليها من ملك تونس وعادوا مرة أخرى إلى تراجيس^(١). وأثناء عودتهم إلى ذلك الميناء حصلوا أكثر من أربعين سفينة وقصروا على ما بها من سلع وأعداء وحيول.

ولثناء العودة إلى فرنسا مات « إيزابيل داراجون » زوجة فيليب المجرى كذلك ماتت ملكة نافار المعروفة بإيزابيل الفرنسية ابنة القديس ليون (لويس ٩) في مدينة « كس أن برونس » أثناء عودتها من تونس.

كذلك توفي « ألونس » كونت براتيه وتولوز الذي كان معه عدد كبير من الرجال ولكن بعد عودته من تونس إذ أنه مرض أثناء عودته إلى بلده فزل في « البجا » وهي مدينة تقع بالقرب من حصوة حيث مات، وكانت وفاته خسارة كبيرة في البر والبحر.

١- لم ينس لنا المصور على ما يبدو هذا الموقع

الملحق الثالث

الترجمة العربية

بعد ذلك قليل وحين تم تجهيز وإعداد كل شيء في الميناء دخل الملك لويس في سفينته يوم الثلاثاء بعد عيد القديس بطرس (وهو الموافق ٢٩ يونيو) من عام ١٢٧٠ ميلادية، وكان معه أولاده «بيير» و«يوحنا» والابن الأكبر «فيليب» وبحل البارونات الآخرون بعد الملك في سفنهم ومكثوا بها طوال النهار والليل حتى صباح يوم الأربعاء وأقلعت السفن في ذلك اليوم واليوم التالي وكانت الرياح تساعدهم حتى منتصف ليلة الجمعة إذ هبت عاصفة قوية قلبت البحر وأحدثت نوامات وبعثرت السفن هنا وهناك . وقد حدثت تلك العاصفة في مياه خليج ليون وقد سمي ذلك اليوم بيوم العاصفة من هولها وشنتها وكثرة الأمواج التي أبعثت السفن عن بعضها البعض والتي كانت حتى تلك اللحظة متقاربة وعلى مرمى بصرها وحين اجتازوا هذه المياه بصعوبة بالغة وجدوا في صباح يوم السبت بحرا هائلا وجوا لطيفا حتى أن كل من قاسى من اضطراب وبنوار البحر وجد السكينة وأبحروا في هدوء وسلام حتى منتصف ليلة الأحد إذ فاجأهم كتل صفعة من الضباب ورياح قوية قلبت البحر بدرجة أصعب وأخطر من تلك التي كانت قد مرّت بهم في مياه خليج ليون (هذا الخليج على السواحل الجنوبية لفرنسا).

وفي صباح اليوم التالي أمر الملك أن تؤدى ٤ صلوات من أجل أن تهدأ العاصفة كانت هذه الصلوات لحدادها خاصة بالسيدة العذراء والثانية بالملائكة والثالثة بروح القدس والأخيرة بالأموات- ونلاحظ تحسن حالة البعض وتماسكهم بينما كانت تؤدى هذه التراتيل- وفي الترتيل الثالث بدأ البحر يهدأ وانتهى النوار الذي كان يشعر به الناس وحلّسوا لتناول الطعام. إذ أن المياه العذبة التي وجدت معهم على السفن كانت قد فسدت ولتصلح لاطلاقا للشرب فقد مات عدد كبير من الرجال والميول من شربهم لهذه المياه الفاسدة في نفس هذا اليوم عند غروب الشمس تعجب الناس من طول اللدة التي قصوها في البحر ولم يصلوا بعد إلى الميناء «كاليارى»^(١) في سردينيا حيث ينتظرهم باقى البارونات الذين يشتركون في هذه الصلة. لذلك استدعى الملك ورئيس البحارة ليعقد له مكانهم من ميناء «كاليارى» وجاء رد البحار بأنهم ليسوا بعميين عن الأرض وأحضروا له خريطة ليوضح له مدى قربهم من الميناء وأنهم فعلا اقتربوا من الساحل.

١- كاليارى هو ميناء يقع جنوب جزيرة سردينيا

الملحق الرابع

جدول تواريخ الحملة حسب تسلسلها الزمني

٢٠ مارس ١٢٧٠م / ٤ شعبان ٦٦٨هـ - رحيل الحملة من باريس إلى لجمورت ،
١٧ أبريل ١٢٧٠م / ٢١ شعبان ٦٦٨هـ - أول اجتماع رسمي للويس التاسع مع ثائته في
لجمورت ،

٢- يوليو ١٢٧٠م / ١١ شعبان ٦٦٨هـ - رحيل الحملة من لجمورت إلى سردينيا بسبب
الشلل .

٨ يوليو ١٢٧٠م / ١٧ ذي القعدة ٦٦٨هـ : وصول الحملة إلى جزيرة سردينيا ،

١٥ يوليو ١٢٧٠م / ٢٢ ذي القعدة ٦٦٨هـ - الإنحار من سردينيا إلى تونس

١٨ يوليو ١٢٧٠م / ٢٦ ذو القعدة ٦٦٨هـ - وصول الحملة قبالة تونس

٢٤ يوليو / ١٢٧٠م ٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ - مهاجمة الصليبيي قرطاجنة وسقوط القلعة في
قبضتهم

٢٩ يوليو ١٢٧٠م / ٧ ذي الحجة ٦٦٨هـ - سقوط ميناء قرطاجنة في ايدي الصليبيي.

٣٠ يوليو ١٢٧٠م / ٨ ذي الحجة ٦٦٨هـ - سقوط برج قرطاجنة في قبضتهم .

٤ أغسطس ١٢٧٠م / ١٢ ذي الحجة ٦٦٨هـ - أول معركة مباشرة بين قوات لويس
والمستعصر .

٢٥ أغسطس ١٢٧٠م / ٥ محرم ٦٦٩هـ - وفاة لويس التاسع قبالة قرطاجنة وهو نفس يوم
وصول شارل إلى تونس.

٥ سبتمبر ١٢٧٠م / ١٥ محرم ٦٦٩هـ - أول معركة مباشرة بين شارل صاحب البحر
والمسلمين .

٢٠ أكتوبر ١٢٧٠م / ١٢ ربيع أول ٦٦٩هـ - عقد الصلح بين المسلمين والصليبيي

٢١ نوفمبر ١٢٧٠م / ٤ ربيع آخر ٦٦٩هـ - رحيل الحملة عن تونس إلى المغرب

مصادر ومراجع

بيان بالمختصرات

- A.O.L. - Les Archives de l'Orient Latine.
- Bib. de Crois - Michaud, Bibliothèque des Croisades.
- Ency. Brit - Encyclopædia Britannica.
- Encyc. of Islam - Encyclopædia of Islam.
- G. D. F. - Bongars, Gesta Des per Francos.
- Hist. de Fr - Recueil des Historiens de Gaules et de la France.
- Mon. Cart. - Y. Kamal, Monumenta Cartographica Africae et Aegypti.
- P P T. S. - Palestine Pilgrims' Text Society.
- R. H.C. Doc, Arm- Recueil des Historiens de Croisades Documents Armonens.
- R. H.C. H. Occ - Recueil des Historiens des Croisades Historiens Occidentaux.
- R. H. C. - H. Or. - Recueil des Historiens des Croisades Historiens Orientaux.
- R. O. C. - Revue de l'Orient Chrétien.
- R. O. L. - Revue de l'Orient Latin.

مجموعات الحروب الصليبية

Bongars, J. (ed), *Gesta Die per Francos, Sive Orientalium peditum et
Vegui Francorum Hierosolymorum Historia (ab a. 1095 ad . 1420)
a Variis, Sed illius aevi Scriptoribus, Litteris*, 2 t., Hanover ,
1612 .

Bouquet , M. (ed.) *Recueil des Historiens des Gaules et de France* , 24
vols ., Paris, 1938-1904 .

Reinard , M., *Extraits des Historiens arabes relatifs aux guerres des croi-
sades*, Paris, 1829 .

Recueil des Croisades, Paris, 1829

*Recueil des Historiens des Croisade Publie - par les Soins de L'Academie
des Inscriptions et Belles - Lettres. in 16 hyge folio vols ., Paris,
1841-1906 :*

I- *Historiens Occidentaux*, 5 tomes (18 - 1895) ,

II- *Historiens Orientaux , (Arabes)* 5 tomes (1872-1906) ;

III- *Historiens Grecs*, 2 tomes (1875-1881) ;

IV- *Documents Armeniens*, 2 tomes (1869-1906) ,

V- *Lois*, 2 tomes (184-1843) .

*Les Archives de L'Orient Latin Publiées par la Societe de L'Orient Lai-
in*, 2 vols ., Paris, 1881 at 1887 .

Texte inventaires , et etudes originales.

*Palestine Pilgrims Text Society. 13 vols ., and general Index, London ,
1887-1897 .*

Revue de l'Orient Latin publiée sous la direction de MM. Le Marquis de
Vogué et Ch. Schefer , Paris, 1896-1991

Revue de L'Orient Chrétien, dirigée par Graffin et F N au . Paris, 1906-
1924

المصادر الأوروبية

Annales de Terre Sainte . 1095-1291 , Publiées par R. Röhricht et G. Raynaud, in A.O.L., t. II, Paris .

Anonymous , Chronique Anonyme des rois de France Finissant en 1286. Ed, Hist. de Fr. XX, pp. 82-86 .

Anonymous , Extraits d'une chronique anonyme , finissant en 1380. Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 305-318 .

Anonymous, Listes de Chevaliers Croises avec Saint Louis en 1269 , Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 305-318 .

Anonymous, Gesta Alta Sancti Ludovici nani , Francorum regis, Ed. Hist. de Fr. XX, p. 56 .

Beaucou , Geoffroi de, Vita et Sancta conversatio Piae memoriae , Ludovici nani regis Francorum- Ed. Hist. de Fr. XX, pp. 20-26 .

Chartres, Guillaume de , De Vita et actibus inclytiae recordationis regis Francorum Ludovici et de miraculis quae ad ejus Sanctitatis declarationem contigerunt - Ed. Hist. de Fr. , XX., pp. 28-39

Eracles, L'Estoire de Eracles Emperour et la Conqueste de la Terre d'Auquemer Ed. R. H. G.- H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 458-460 .

Jostville, Jean de, Histoire de Saint Louis . Texte Original du Xlve Siècle accompagnée d'une traduction en Français moderne par M- Natalis de Wailly , Paris , 1874 .

Les Gestes de Chiprois, Ed, R.H.C.- Doc . Arm , t. II, Paris, 1906 .

Louis IX (St. Louis) :

1- St. Louis nolise Setze nyres genois pour Sapremiere croisade . Ed. A.O. L., t. II, Paris, 1884, pp. 232-6).

2- Saint Louis , King of France, English, Trans. by James Hutton , London, 1868

Matt. of West., The Flowers of History, 2 vols., London 1853.

Nangis, Guillaume de,

1- Vie de Saint Louis, Ed. Hist. de Fr., XX pp. 439-463.

2- Vie de Philippe III, Ed. Abist. de Fr. XX, pp. 464-482.

3- De Nangiac Chronicon (1226-1300). Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 543-582.

4- Chronique Abergée ou "Chronique des rois de France, Ed. Hist. de Fr., TXX, pp. 647-653.

Pandua, Guillaume de, Historiae Albigensium, auctore Guillelmo de Podio Laurens, Paris, Ultima, ab anno 1230 ad 1272. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 474.

Paris, Matthew, Matthew Paris, English History from the Year 1239 to 1273, Trans. From the Latin by J.A. Giles, 2 vols., London, 1852-3.

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyre du manuscrit de Rothelin (1299-1261) Ed. R.H.C.- H. Occ., t. II, Paris, 1859, pp. 489-639.

St. Denis, Extraits des Chroniques de Saint Denis, ou les Grandes Chroniques de France - Ed. Hist. de Fr., XXI, pp. 103-123

St. Pathus, Guillaume de.

Vie de Saint Louis. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 68-69, 103.

Waegter, Paul, The Infidel Emperor and his Struggles against the pope. A Chronical of the 13th century by p. Wiegler, tr. by Brian W. Downs, London, 1930.

المصادر العربية

أولا : المخطوطات والمخطوطات المصورة

- ١- ابن أبيك (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) أبي بكر بن عبدالله
 أ- «دور التيجان» و«سر تواريخ الزمان» ، دار الكتب المصرية ، رقم ٤٤٠٩ تاريخ
 ب- «كتز الدرر وجامع الفرد» ، ج ٩ - دار الكتب المصرية ، رقم ٤٦٤٣ تاريخ .
- ٢- ابن بقمق (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٧م) هارم الدين ابراهيم بن محمد بن ايتنر العلاني
 «الموجر الشمي في سير الملوك والسلاطين» ، دار الكتب المصرية ، رقم ١٥٢٢ تاريخ .
- ٣- ابن الفرات (ت ٩٠٧هـ / ١٥٠٢م) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي
 «تاريخ النول والملوك» ، ١٨ مجلدا ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣١٩٧ تاريخ .
 تصوير شمسي ،
- ٤- ابن رسول (ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م) عباس بن علي بن داود بن يوسف بن عمر
 «نزهة الميرون في تاريخ طوائف القرون» ، مجلدا ، دار الكتب المصرية ، رقم ٤٩٦٤ تاريخ .
- ٥- ابن واصل (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سليم
 أ- «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» ، ج ٢ ، مكتبة جامعة الاسكندرية ، رقم ٦٤ مخطوط ، «تصوير شمسي» .
 ب- «التاريخ الصالح» ، مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، رقم ٣١٤٣ ب- «تصوير شمسي» .
- ٦- أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٥٤م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي
 «الدهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» ، ج ٣ ، دار الكتب المصرية ، رقم ٢٣٥٥ تاريخ .
- ٧- بامخرمة (عاش في القرن العاشر هـ / المائس عشر م) أبو محمد بن عبدالله أحمد
 بن علي
 «قلائد القدر في وفيات أعيان الدهر» ، ج ٦ ، دار الكتب المصرية ، رقم ٤٤١٠ تاريخ .

- ٨- بيبرس النوادر (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) الأمير ركن الدين بيبرس المصنوعي
«زينة الفكرة في تاريخ الهجرة» ج ١٠ ، مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٢٤٠٢٨
تاريخ «تصوير شمسي» .
- ٩- السجلوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن
«تحفة الأحياء ويزية الطلاب في القسط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات
وما شبع ذلك» مكتبة بلدية الاسكندرية، رقم ١٤٨٦.ب.
- ١٠- السلاسي (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد.
«مقتصر التواريخ» دار الكتب المصرية ، رقم ١٤٢٥ تاريخ .
- ١١- السيوطي (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥م) أبو الفضل عبد الرحمن
«تاريخ السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمدي الظاهري» دار الكتب
المصرية، رقم ١٥٥٩ تاريخ .
- ١٢- العيسى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م) بدر الدين أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى
«عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان» ٢٢ ج في ٦٩ مجلد ، دار الكتب المصرية،
رقم ١٥٨٤ تاريخ، «تصوير شمسي».
- ١٣- الفيومي (ت حوالي ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م) أحمد بن محمد بن علي
«نثر الجمان في تاريخ أهل الأعيان» المجلد الثاني ويبتدئ من أثناء سنة
٦٢٣هـ وينتهي إلى ٦٨٩هـ دار الكتب المصرية ، رقم ١٧٤٦ تاريخ .
- ١٤- الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن فقر الدين
«عيون التواريخ» ١٦ مجلداً ، بهما منها مجلد مكتوب عليه الجزء العشرون،
ويبتدئ من ٦٤٥ هـ وينتهي إلى ٦٧ هـ ، دار الكتب المصرية، رقم ١٤٩٧ تاريخ،
«تصوير شمسي» .
- ١٥- النويري الكتبي (ت ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد.
«نهاية الأرب في فنون الأدب» ٥٥ مجلداً ، دار الكتب المصرية ، رقم ٥٤٩
معارف عامة ، «تصوير شمسي».
- ١٦- اليونيني (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) موسى بن محمد بن أحمد قطب الدين
«نيل مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» ، ج ١٥ و١٧ دار الكتب المصرية، رقم
١٥١٦ تاريخ .

ثانياً : المصادر المطبوعة

- ١- ابن أبي حنينا (عاش في أول الأمر القرن العاشر الهجري / السابع عشر الميلادي)
أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم القيرواني المعروف بابن أبي حنينا الغنيمي في
أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس ١٩٦٧ .
- ٢- ابن أبي ذرع (ت حوالي ٧٢٦هـ / ١٣٢٧م) علي بن محمد الفاسي
الأنيس الملقب بروض القُرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،
الرباط ١٩٧٣ .
- ٣- ابن الأثير الجزري (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م) أبو الحسن بن أبي الكرم الملقب عز الدين
الكامل في التاريخ، طبعة بيروت، ١٩٦٦، ويولاق ١٩٣٦م.
- ٤- ابن القنفذ (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) أبو العباس أحمد بن حمدي بن العطيبي
القسطنطيني العارسية في مبادئ الدولة المفضية ، تحقيق محمد الشاذلي
النيغزو عبد المجيد تركي، تونس ١٩٦٨ .
- ٥- ابن الوردي : (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٩م) أبو حمص زين الدين عمر بن مظفر بن عمر
تتمة المحتصر في أخبار البشر ، ويعرف بتاريخ ابن الوردي، القاهرة ١٢٨٥هـ
/ ١٨٦٨م.
- ٦- ابن أبياس (ت ٩٢هـ / ١٥٢٣م) أبو البركات محمد بن أحمد
كتاب تاريخ مصر المعروف ببداية الزهور في وقائع الفهور - ٤ ج، الطبعة
الأولى، القاهرة (بولاق) ١٣١١-١٣١٤هـ .
- ٧- ابن بطوطة (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) أبو عبدالله محمد بن عبدالله
مذهب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب
الأسفار، ٢ ج، القاهرة ١٩٢٤ - ١٩٣٧ .
- ٨- ابن حوقل (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) أبو القاسم بن حوقل
الصنعيني.
صورة الأرض، لندن (مطبعة بريل) ١٩٢٨ .

- ٩- ابن خردادبة (ت في حدود ٣٠٠هـ) أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المسالك والممالك ، لندن (مطبعة بريل) ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م .
- ١٠- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م) عبد الرحمن بن محمد - العبر ونيوان المبدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ ج، القاهرة (بولاق) ١٢٨٤هـ طبعة بيروت ، ١٩٦٨ .
- الملقبة، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨١ .
- ١١- ابن خلدون (ت ٧٧٩هـ / ١٣٥٨م) أبو ركريا يحيى بن خلدون بنية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر ١٩٨٠ .
- ١٢- ابن شاهي (ت ٧٨٢هـ / ١٤٦٧م) عرس الدين خليل بن شاهي الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق بوكس زلويش، باريس ١٨٩٤م .
- ١٣- ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) معبى الدين الروس الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد الميرز المويطر ، الرباط ١٩٧٦ .
- ١٤- ابن عذاري المراكشي (ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م) أبو العباس أحمد البيان المغرب في أخبار المغرب ، ٤ ج ، بيروت - ماعدا ، ١٩٥٠ ج ٣ طبعة تطوان ، ١٩٦٠ .
- ١٥- ابن مطروح (ت ٦٤٩هـ / ١٢٥١م) جمال الدين يحيى ديران ابن مطروح ، الطبعة الأولى ، قسنطينة ١٣٩٨هـ .
- ١٦- ابن منظور (ت ٧١١هـ / ١٣١١م) جمال الدين أبو العباس محمد إسماعيل الغيري للحبيب، ١٠ ج، بيروت ، بدون تاريخ .
- ١٧- أبو الفدا (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) إلك المزيد عماد الدين أبو الفدا، إسماعيل ابن طليح المختصر في أخبار البشر، ويعرف بتاريخ أبي الفدا ، ٤ ج، الاستانة، ١٢٨٦هـ .

١٨- أبو الحسن (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبو الحسن بن تقي الدين
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٩، القاهرة (دار الكتب المصرية)،
١٣٤٨-١٣٦١هـ / ١٩٢٩-١٩٤٤م.

١٩- البلاذري (ت ٢٧٩هـ / ٨٨٨م) أحمد بن يحيى بن جابر بن داود

فتوح البلدان، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ج ٢، القاهرة ١٩٠٦.

٢٠- الصميري (ت ٩٠٠هـ / ١٢٧٩م) محمد بن عبد المصم

الروغص المطار في خير الأقطار، تحقيق د. لسان عباس، بيروت ١٩٧٥

٢١- ابن العلاء (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م) أبو الفلاح عبد الصي بن علي بن محمد:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج ٨، بيروت (بدون تاريخ)

٢٢- الانريسي (٥٦٠هـ / ١١٦٦م) أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن ابريس.

صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مخطوطة من كتاب برهة المشتاق
في اختراق الأفاق نشر هذا القسم وتقدم له وترجمه إلى الفرنسية نوزي ودي
عويه لين (مطبعة بريل) ١٨٦٦م.

٢٣- الاصطخرى (عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي) أبو إسحاق إبراهيم
ابن محمد.

مسالك الممالك، لندن ١٩٢٧.

٢٤- الخوارزمي (تاريخ الوفاة غير معروف) أبو جعفر محمد بن موسى.

كتاب صورة الأرض، مخطوطة من كتاب الجغرافيا الذي ألفه بطليموس القنطاري،
نسخه وصنعه هانس فون شريك، فيينا ١٢٤٥هـ- ١٩٢٦م.

٢٥- اللطفي (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م) محمد بن أبي طالب الأحمري الصوفي المعروف
بشيخ الريدة والمكنى باللمشي:

نخبة البعر في عجائب البر والبحر، كويتهاجن ١٨٠٤م، مطبعة ليبيرج ١٩٢٢.

٢٦- الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين.

دول الإسلام، ج٣، الهند- حيدر آباد ١٣٦٧هـ

- ٢٧- الزركشي (ت ٨٨٢هـ / ١٤٦١م) أبو عبدالله محمد بن إبراهيم
تاريخ التوليتي للوعية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور، تونس، ١٩٦٦ .
- ٢٨- السلاوي (ت ١٢١٥هـ / ١٨٩٥م) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري
الاستقفا لأخبار العرب الأقبسي ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، الدار
البيضاء ، ١٩٥٤ .
- ٢٩- العمري (ت ٧٤٨هـ / ١٢٤٨م) شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فضل الله
مسالك الأبحار في منالك الأمصار ، ج ١ ، نشره المرحوم أحمد زكي ، القاهرة
(مطبعة دار الكتب المصرية) ١٢٤٢هـ / ١٩٢٤م .
- ٣٠- الغبريني (ت ٧٠٤هـ / ١٢٠٤م) أبو العباس بن أحمد الغبريني
هذوان النوبة فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بهجاءه ، تحقيق الأستاذ
رابع بوناز، الجزائر - ١٩٧٠ .
- ٣١- الكتبي (ت ٧٦٤هـ / ١٢٦٢م) محمد بن شاكور بن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين
فراة الوعيات، ٢ ج في مطبوع واحد ، القاهرة ١٢٩٩م
- ٣٢- القرويني (ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م) أبو عبدالله زكريا بن محمد بن محمود
لثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٣ .
- ٣٣- القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) أحمد بن علي بن أحمد بن عبدالله
صحيح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ ج، القاهرة ، (دار الكتب المصرية)
١٩١٢-١٩١٩ .
- ٣٤- المسعودي (غير معروف تاريخ الوفاة) محمد الناجي
العلاصة النقية في ذكر أمراء أفريقيا، تونس ١٣٢٣هـ / ١٨٦٦م .
- ٣٥- المسعودي (ت ٢٤٦هـ) أبو الحسن علي بن الحسين
مروج الذهب ومعاني الجوهر ، تحقيق الأستاذ محيي الدين عبد الحميد،
القاهرة ، ١٩٥٨م.

- ٣٦- المراكشي (ت ٦٢٠هـ / ١٢٢٤م) محبى الدين عبد الواحد
 المعجب في تلخيص المغرب ، تقديم محمد القاسي، المغرب ١٩٣٨ ،
- ٣٧- القنمسي (عاش في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) شمس الدين أبو
 عبدالله المعروف بالشاري :
 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الثانية، لندن (مطبعة بيرل) ١٩٠٩م.
- ٣٨- المقرئ (ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني.
 نفع الطبيب من حصن الأندلس الرطيب ، عشرة أجزاء، بيروت ١٩٦٨م.
- ٣٩- المقرئ (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقي الدين أبو العباس أحمد
 ١- المواظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، ٢ ج. القاهرة بولاق ١٢٧٠هـ
 ٢- السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١، ٢ إلى سنة ٧٤١هـ، نشره وعلق عليه د.
 محمد مصطفى زيادة.
- ٤٠- جبران مسعود (تاريخ الوفاة غير معروف) :
 الرائد ، بيروت ١٩٨١م.
- ٤١- مجهول.
 الحلل الموسية في ذكر الأشجار المراكشية ، نشره وصححه د. سي علوش،
 مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، ج ٦ ، الرباط ١٩٣٦ ، وطبعة أخرى
 تحقيق د. مهيبل زكار والأستاذ عبد القادر زماعة ، الرباط ١٩٧٩م.
- ٤٢- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله اللقب شهاب
 الدين.
 معجم البلدان ، ٤ ج ، ط بيروت ١٩٥٦ ، الجزء الرابع ، ق ٢ طبعة ليبزج ١٨٦٩

المراجع الأجنبية

- Archer, T.A. & Kingsford, G L., The Crusades of Jerusalem, 5 th . impression . London 1919 .
- Adya, A. S.,
- 1- The Crusade of Nicopoli, London 1934
 - 2- The Crusade in the Later Middle Ages London , 1938 .
- Bailly , A., Saint Louis, Paris, 1949 .
- Bauville, J. , Histoire de France, Paris, 1925 .
- Barthold, W , Histoire des Turcs d'Asie Centrale, Adaptation française par Ume U. Donckus, Paris, 1945 .
- Berger , E., Saint Louis et Innocent IV Étude Sur les rapports de la France et du Saint les Sicge Paris, 1893
- Bordeaux, H., Un Précurseur Vie , mort et Survie de Saint Louis , Roi de France. Paris, 1949 .
- Boulenger, J., La Vie de Saint Louis , Paris, 1929
- Bray, A., The Good St. Louis and his Times, London, 1870 .
- Brunschwig , R., La Berbère Orient Sous les Hafsides, 2 Tomes, Paris, , 1940-46
- Calenderier liturgique des diocèses de France, 1978 .
- Calmette, J., Le Monde Féodal , Paris, 1937
- Campbell, G , The Crusades , London, 1935 .
- Davis, H W. C. Medieval Europe, London 1941 .
- Deguignes, C. L., Histoire generale des Huns , des Turcs, des Mongols , et des autres Tartares occidentaux avant et depuis Jesus - Christ Jusqu'à présent. 4 t., en 5 vols ., Paris 1756-7
- Daru, Le Comte, Histoire de la republique de venise , 10 Toms, Bruxelles, 1840 .

Gibbon, E., *The Crusades: A.D. 1095-1291*, London, 1870.

Grousset, R., *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem*, 3 vols., Paris, 1948.

Guizot, M., *Saint Louis and Calvin*, London, 1809.

Hassall, A., *France Medieval and Modern*, Oxford, 1918.

Howorth, H., *History of the Mongols from the 9th to the 19th century*, 4 Parts in 5 vols., London, 1876-1927.

Kitchen, G., *A History of France*, vol. 1, Oxford, 1899.

Lamb, H., *The Crusades: The Flame of Islam*, London, 1931.

Ludlow, J.M., *The Age of the Crusades*, Edinburgh, 1897.

Michaud, M., *Histoire des Croisades*, 7 toms, Paris 1819-1822.

Miller, G., *History, philosophically illustrated from the fall of the Roman Empire to the French Revolution*, 4 vols., London, 1849-1852.

Richard, J., *Orient et Occident au moyen âge: contacts et relations (XIIe - XVe S.)*, London, 1970.

Rohricht, R., *La Croisade du prince Edward, Angleterre in A.O.L.*, t. II, Paris, 1881.

Molnier, A., *Les Sources de l'histoire de France depuis les origines Jusque, en 1815*. Cf. vol. III: *Les Capétiens: 1180-1328*, Paris, 1903.

Runemann, S.,

1- *Byzantine Civilization*, London, 1948.

2- *A History of the crusades*, 3 vols., London, 1971.

Tenison, E., *Chivalry and the Wounded: The Hospitallers of St. John of Jerusalem (1014-1914)*, London, 1914.

Troce, H., *The Crusades*, New York, 1914.

Wustenfelf, Mahler Sche Vergleichungs- Tabellen Der Mohammedanschen und Christlichen Zeitrechnung, Traduction en Arabe par DrA-M maged A. M. Ramadan, le Caire, 1980.

المراجع العربية والمصرية

- ١- ايتسمام موصى (مكتوبه) العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، الاسكندرية ١٩٨٥ .
- ٢- ابراهيم على طرخان (مكتوبه) . المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٦ .
- ٣- أنور الجدي: الإسلام تاريخ وحضارة ، دار الاعتصام ، بنود تاريخ .
- ٤- آدم مئز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، ج ٤ ، بيروت ، ١٩٦٧ .
- ٥- أبو زيد شلبى (مكتوبه) تاريخ الحضارة الإسلامية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
- ٦- أحمد الشامي (مكتوبه) الدولة الإسلامية في العصر العباسي الأول، النمام ١٩٨٣
- ٧- أحمد مختار العبادي (مكتوبه) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الاسكندرية ١٩٦٨ .
- ٨- تاريخ البحرية المصرية نقبة من أساتذة جامعة الاسكندرية بالتعاون مع القوات البحرية المصرية، الاسكندرية ، ١٩٧٣ .
- ٩- جمال الدين الفناصوري (مكتوبه) جغرافية العالم - أفريقيا ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٠- جمال الدين سريور (مكتوبه) نولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .
- ١١- جوانفيل (جان دي) : القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق د- حسن حبشي ، الطبعة الأولى، القاهرة ، ١٩٦٨
- ١٢- جوزيف بسيم يوسف (مكتوبه) .
- ١- العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ط٢- خامسة، الاسكندرية ١٩٨٧
- ٢- العنوان الصليبي على مصر، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .
- ٣- العنوان الصليبي على بلاد الشام، الاسكندرية ١٩٨٤
- ٤- الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، الاسكندرية ١٩٨٦ .
- ٥- تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، الاسكندرية ، ١٩٨٤ .
- ٦- لدولة والأمبراطورية في العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦

- ٧- العنوان الصليبي والرأي العام الغربي، محاضرة من سلسلة المحاضرات العامة للعام الجامعي ٦٧ / ١٩٦٨ الاسكندرية، ١٩٦٨ .
- ١٣- حامد خنيم أبو سعيد (مكتور) :
 - ١- مراكز الحضارة الإسلامية، ج٢ ، القاهرة ١٩٧٦
 - ٢- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج٣، القاهرة ١٩٧٣ .
- ١٤- حسن إبراهيم حسن (مكتور) تاريخ الإسلام النيسى والثغلفى والسياسى والاجتماعى الطبعة التاسعة ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ١٥- حسنى حسنى عبد الوهاب خلاصة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠
- ١٦- صبيح مؤنس (مكتور) فتح العرب للمغرب القاهرة ، ١٩٤٧ .
- ١٧- ساليهان (ريتشارد أ) وريثة الامبراطورية الرومانية ، ترجمة وتقديم د. جويرج نصيب، الاسكندرية، ١٩٨٥ .
- ١٨- سامية عامر (مكتورة) الصليبيون فى فلسطين- بلاد الشام - دار عين ، القاهرة ٢٠٠١
- ١٩- ستيفن رانسيومان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣، ترجمة د السيد الياز العريوى، بيروت ١٩٦٩ .
- ٢٠- السيد عبد العزيز سالم (مكتور)
 - ١- المغرب الكبير، العصر الإسلامى، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية. الاسكندرية ١٩٦٦
 - ٢- تاريخ المسلمين وأثارهم فى الأندلس، بيروت ١٩٦٢
 - ٣- المهدي بن تومرت مقال بدائرة معارف الشعب رقم ١٩٦٠
 - ٤- المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس ، مقالان بكتاب بيوت الله معاهد ومعاهد القاهرة ١٩٦٠، كتاب الشعب عدد ٧٨ .
 - ٥- المغرب الإسلامى كتاب الشعب عدد ١٣٨ ١٣٩ ، القاهرة ١٩٦١ .
- ٢١- سعد رطلول عبد الحميد (مكتور) تاريخ المغرب العربى. الاسكندرية ١٩٥٦
- ٢٢- سعيد عبد الفتاح عاشور (مكتور) الحركة الصليبية، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد العربى فى العصور الوسطى - ج ٢ . القاهرة ١٩٦٢

- ٢٣- صابر محمد دياب (دكتور) مدينة تونس في التاريخ الإسلامي، مقال في مجلة جامعة القاهرة (فرع الخرطوم) العدد الثامن، القاهرة ١٩٧٧م.
- ٢٤- عبد الرحمن حميدة (دكتور) - أعلام الجغرافيين العرب، دمشق ١٩٧٩ .
- ٢٥- غوستاف لويون (دكتور) حضارة العرب، نقله إلى العربية محمد عادل زعيترو، القاهرة ١٩٤٥ .
- ٢٦- لويس شيخو جولة في الدولة الطويلة، انظر مجلة المشرق السنة ٢٢-١٩٢٤، العدد ٧ بيروت ١٩٢٨-١٩٢٨ .
- ٢٧- محمد الحبيب (دكتور) : لب التاريخ ، تونس ، ١٣٤٤هـ .
- ٢٨- محمد الصادق عفيفي (دكتور) تطور الفكر الطلي عند المسلمين ، القاهرة ١٩٧٧-١٩٧٦ .
- ٢٩- محمد عبد الله عنان (دكتور) دولة الإسلام في الأندلس، ج٢، الطبعة الرابعة، القاهرة ١٩٦٩ .
- ٣٠- محمد فراج (دكتور) المدرسة العسكرية الإسلامية، ط٢، القاهرة ١٩٧٩ .
- ٣١- محمد عزالي وآخرون تاريخ أفريقيا الشمالية - تونس- الجزائر- المغرب من الفتح الإسلامي حتى ١٨٣٠م، تونس ١٩٧٨ .
- ٣٢- مكسيموس صونروند تاريخ المروب المقدسة في المشرق المدهوة بحرب الصليب ، ترجمه من الفرنسية إلى العربية مكسيموس مظلوم، ج٢، في مجلدو احدث، اورشليم، ١٨٦٥ .



جغرافية تونس وقت وصول الحملة نقلًا من أطلس التاريخ الإسلامي، ص ١٩

مقياس الرسم ١ : ٥٠٠.٠٠٠

خريطة رقم (٢)





خريطة توضح سيرة الحملة من ميناء ايجمورت بطرسية وحتى ميناء قرطاجنة بتونس
(نقل عن د. جزيق يوسف والعنوان المصليبي على مصر من ٩٧٠هـ)

محتويات الكتاب

صفحة

٢	الإهداء
٥	المقدمة
٢٥	دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر الموضوع ومراجعته
	الفصل الأول :
٥٣	الغرب اللاتيني والغرب الإسلامي قبيل حملة لويس التاسع على تونس
	الفصل الثاني :
٩٣	الاستعداد للحملة وقيادتها
	الفصل الثالث :
١١٧	وصول لويس التاسع إلى تونس
	الفصل الرابع :
١٥١	المواجهة العسكرية بين المسلمين الصليبيين داخل قرطبة
	الفصل الخامس :
١٧٣	نهاية الحملة الصليبية على تونس
١٩٩	الخلاصة
٢١٣	المصادر والمراجع
٢٢٩	الخاتمة

رقم الإيداع ٢٠٠٢/٢٥٣٧

الترقيم الدولى 8 - 878 - 322 - 977 I.S.B.N.

دار روزانه‌هاى الطباعة ت : ٧٩٥١٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٢ شارع نوبار - باب الحرق

رفع

مكتبة تاريخ وآثار دولة المماليك



١. سادية عشر

الصليبيون في شمال أفريقيا

مجلة لويس التاسع على تونس
(١١٧٠ م - ١١٨٠-١١٩٠ هـ)



Libraries Alexandria



0672941



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES